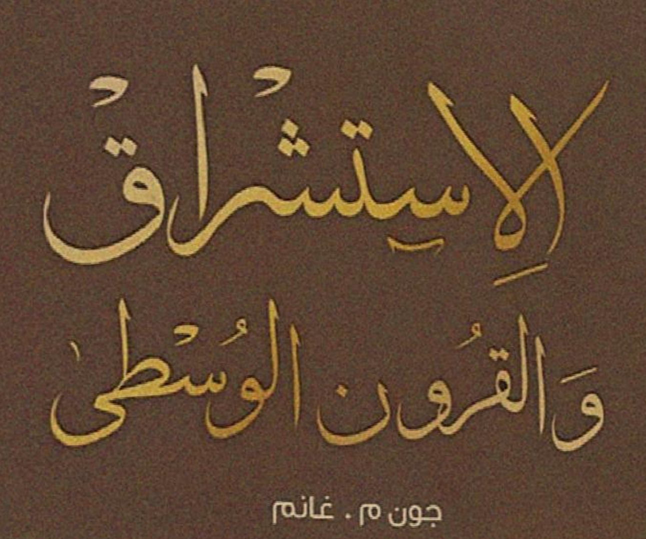


جون م. غانم

ترجمة:
عبلة عودة

جون م. غانم

الاستشراق والقرون الوسطى

ثلاث مقالات حول الأدب والفن المعماري والهوية الثقافية

ترجمة: عبلة عودة

مراجعة: د. أحمد خريس

الطبعة الأولى 1433هـ 2012م
حقوق الطبع محفوظة
© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة (مشروع كلمة)
CB353 .G2912 2011
Ganim, John M., 1945
[Medievalism and Orientalism]
الأستشراق و القرون الوسطى: ثلاث مقالات حول الأدب والفن المعماري والهوية الثقافية / تأليف جون م. غانم؛ ترجمة عبلة عودة ؛ مراجعة أحمد خريس. -ط. 1.- أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2011.
ص 208 : 14×21سم.
ترجمة كتاب: Medievalism and Orientalism: three essays on literature, architecture, and cultural identity
تدمك : 978-9948-01-997-8
1. الاستشراق والمستشرقون – تاريخ.
2. العصور الوسطي-- تاريخ. أ. عودة، عبلة. ب. خريس، أحمد، -1970. ج. العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي:
John M. Ganim
Medievalism and Orientalism: Three Essays on Literature, Architecture and Cultural Identity



www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 451 6515 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+



ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 171 6576 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+

المحتويات

شكر وعرفان

لم يكن هذا الكتاب ليرى النور لولا دعم مؤسسة جون سايمون غوغينهايم وجي آر. ميموريال؛ لذا فأنا ممتن لهذه المؤسسة أشد الامتنان، كما أوجه شكري العميق إلى كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية في جامعة كاليفورنيا على منحي إجازة بحثية مكنتني من إتمام هذا الكتاب، وأتوجه كذلك بالشكر إلى اللجنة الأكاديمية في هيئة البحث على تزويدي بعدة منح للسفر داخل البلاد وخارجها، كي؛ أزور المكتبات المختلفة، وأحصل على الوثائق المطلوبة. ولن أنسى في هذا السياق زملائي في القسم، الذين لم يبخلوا يوماً بالنصيحة والدعم، وأتمنى أن أكون عند حسن ظنهم جميعاً.

لقد قُدِّمت طروحات الكتاب في عدة محاضرات ومؤتمرات عُقدت سابقاً، ولا بد لي هنا أن أشكر القائمين على تنظيم هذه الفاعليات ومنهم: أندي كيلي من مركز الدراسات القروسطية وعصر النهضة في جامعة كاليفورنيا- لوس أنجليس، وسيث غامبريشت وهوارد بلوش وستيفن نيكولاس الذين قاموا بدعوتي للمشاركة في ندوة حول القرون الوسطى في جامعة ييل، كما أشكر ديفيد والاس على ملاحظاته في ذلك اللقاء.

أتقدم بالشكر كذلك إلى نادي القرون الوسطى في نيويورك، ولاسيما دان روبي وبام شينغورن على دعوتهما لي؛ لألقي محاضرة سنوية في النادي.

الشكر موصول كذلك إلى نانسي فان دوسن من جامعة كليرمونت، وهي عضو في جمعية المسيحية والعصور القديمة كذلك، على اللقاءات البناءة التي عقدتها حول الموضوع، والتي أثرت هذا الكتاب بشكل واضح. وأقدم شكري العظيم للسيدة ليندا جورجيانا في جامعة كاليفورنيا، وإيرني فرادنبيرغ، وفريق الأبحاث في جامعة كاليفورنيا- سانتا كروز، وخاصة جوزيف شيلديرز.

لا بد أن أذكر أيضاً البروفسور جاك فيسياك، وشيلا ديلاني على دعوتهما لي للمشاركة في ندوة حول الأدب القروسطي، واللغة، والثقافة في جامعة ميكيويكس في بوزنان- بولندا.

أهدي هذا الكتاب بالدرجة الأولى إلى زوجتي، فلطالما ألهمتني ثقافتها الواسعة وحضورها الرائع، ولا يفوتني أن أشكر لورا وليزا وجون وبيل وفيفيان الذين أظهروا دائماً الدعم والتفهم لما أقوم به. وأخيراً أذكر الصغار جوليت وروزا وجاك وبراندون وميشيل وأندريا وأيل والصغير راي؛ لأنهم سيفرحون حتماً عندما يكبرون ويجدون أسماءهم مدرجة ضمن صفحات الكتاب.

تمهيد

أين وطني؟ أيكون المحيط الهادي؟
أهي شواطئ الشرق الثرية؟
أم هي القدس؟
كل المضائق، ولا شيء غيرها
يؤدي إلى وطني
آنيان[1]، ماجلان، جبل طارق
هذه هي طرقي
تأخذني حيث عاش يافث، وربما حام وسام[2].

جون دون، السوناتة المقدسة.

في العالم القديم، في الشرق، قناة السويس
ينساب البحر بأمواجه الرقيقة
غير أن صرخة الروح
لا تنفك تؤرقني
الماضي، الماضي، الماضي
أرجع إلى الماضي البعيد

والت ويتمان، الطريق إلى الهند.

---

(1) مضيق آنيان: هو جزء من الطرق البحرية الأسطورية التي تربط بين المحيط الأطلسي والمحيط الهادي، وظهر اسم هذا المضيق للمرة الأولى في إحدى الخرائط البحرية الإيطالية عام 1562. (المترجم)

(2) أبناء نوح: يافث، وهو أصغر أبناء نوح وانبعثت من سلالته شعوب أوروبا، وحام ويعتقد أنه والد شعوب إفريقيا، وسام أكبر أبناء نوح وهو والد الآشوريين والعبرانيين والعرب والآراميين. (المترجم)

يعرض المشهد التالي من «كتاب صلاح الدين»؛ محرر القدس، تسلمه المدينة من الصليبيين:

«يقول صلاح الدين للقائد الصليبي: أخبر قومك أننا لن نعاملهم كما عاملونا عندما استولوا على المدينة أول مرة، لقد علمت وأنا طفل صغير بالفظائع التي ارتكبها غوفري، وتانكريدي في المدينة قبل تسعين عاماً، حيث قُطعت رؤوس الأطفال، وعُلقت على أسنّة الرماح، وأُحرق السكان من جميع الأعمار، وغرقت الشوارع في أنهار من الدم. الآن يريد بعض الأمراء أن يغسلوا هذه الشوارع بالدماء من جديد، ولكن هذه المرة بدمائكم أنتم، ويذكرونني دائماً بأن العقاب لا بد أن يكون من جنس العمل، فالعين بالعين والسن بالسن».

يظهر صلاح الدين هنا رمزاً مناقضاً تماماً لرموز الصليبية المتطرفة، فضلاً عن كونه أسطورة عسكرية إسلامية، وبذلك يغدو هذا الكتاب نقطة مضيئة في بحر الكتابات، والأبحاث الغربية التي تناولت هذا الموضوع. وعند تتبع صفحات الكتاب وفقراته نجد أن المسيحية الغربية تظهر كانعكاس للتعصب، والتطرف، والحقد بصوره كافة، إذ يتمثل الغرب في هذا الكتاب في الخونة، والمتطرفين المعادين للسامية، وذوي العقول الضيقة، فيما عدا بعض النماذج القليلة المستنيرة التي تمكنت من سبر أغوار حقيقة الإسلام. أما الشرق فيمثله مفكرون مبدعون، وقادة عسكريون إنسانيون متسامحون، وقيادات سياسية تنتمي إلى هويات عرقية مختلفة، وقوميات متعددة. إنه الشرق؛ منبع القيم الأخلاقية العالمية، الذي يذكر الغرب دائماً بها وليس العكس، وهو بذلك يحدد الغرب ويعرفه من جديد.

إن «كتاب صلاح الدين» يقلب مفهوم الاستشراق، ويعيد تعريفه من الأساس[1]. وليس «كتاب صلاح الدين» رواية من القرون الوسطى على الإطلاق، بل هو -على العكس- رواية نُشرت في العام 1998، وكتبها المؤلف البريطاني الباكستاني، والناشط السياسي طارق علي؛ لذلك فهي ليست مجرد سرد لسيرة صلاح الدين الذاتية ضمن إطار العصور الوسطى العربية، لكنها ترسخ أيضاً رؤية سياسية تأملية لليسار الغربي والعالمي عموماً.

تزخر هذه الرواية بالعديد من الحبكات الثانوية التي تعكس مرحلة ما بعد الإمبريالية، وما بعد الحداثة التي عاشتها بريطانيا إبان الستينيات، وفي أثناء حكم السيدة تاتشر. لقد كان صلاح الدين محارباً كردياً، وظهر انتماؤه إلى هذه الأقلية بوضوح في الرواية، أما السرد في الرواية فيقوم على قصة بطل كردي يرويها كاتب يهودي، والقيادة البطولية لصلاح الدين تبدو مهزوزة أحياناً، فالقائد يعاني غالباً من المرض، ويحسب خطواته بدقة ويعتمد على التكتيكات السياسية أكثر من اعتماده على الأفعال البطولية، وهو -حتى بعد استعادة القدس بالكامل- لا يطرد الفرنجة كلهم، وإنما يعقد معاهدة تنهي الحملة الصليبية على المدينة، وهو ما حدث تاريخياً بالفعل، بحيث تبدو الرواية أحياناً وكأنها سلسلة مجازية من المفاوضات السياسية، والثقافية، والشخصية.

تعبر رواية «كتاب صلاح الدين» عن وعي مكثف بمرحلة ما بعد الكولونيالية، فالصليبيون احتلوا لقرون الساحل الشرقي للمتوسط، وقد أدى وجودهم إلى تفكيك المسلمين، وتناحرهم حول أهداف سياسية مختلفة، لكن -وفي الوقت ذاته- أدى اختلاط المسيحية، والإسلامية، واليهودية في المنطقة،

(1) راجع إدوارد سعيد: «الاستشراق»، Orientalsm (New York: Pautheon Books, 1978.

وللمزيد حول الاستشراق والأنجلوساكسونية راجع:

Allen J. Frantzen, Desire for origins: New Language, Old English, and teaching the Tradition (New Brunswick, NJ: Rutgers University Press, 1990).

ووجود هذا التنوع الكبير من الأديان، والثقافات في مكان واحد، إلى تلاقح غريب، وظهرت تحالفات غير مفهومة انعكست كلها في هذه الرواية. وإذا اعتبرنا أن «كتاب صلاح الدين» رواية تاريخية، فإن هذا التاريخ ينبثق بالتأكيد من منابع متنوعة وتواريخ عدة متلاقحة لتاريخ الشرق والغرب، وهي أيضاً رواية تاريخية حديثة إن صح التعبير، تغوص في التاريخ القروسطي، وتعيد بناءه بصورة حداثية مميزة.

يقلب «كتاب صلاح الدين» التصنيفات النمطية للآخر. التي تجذرت في أواخر فترة القرون الوسطى، ولكن لا بد هنا أن نتذكر أن عدداً لا بأس به من الأفكار السائدة عن القرون الوسطى في الغرب، وبخاصة عندما بدأ الغرب ذاته يخطو نحو الحداثة، كانت تعتمد على تصنيفات جغرافية، وتاريخية وكأن الماضي [يعبر] عن بلاد أخرى مختلفة، كما جاء في افتتاحية رواية إل بي هارتلي «The Go-Between»، التي لقيت شعبية كبيرة بين القراء[1] في خمسينيات القرن العشرين.

سنحاول في الفصول القادمة تقديم الحجج؛ لإثبات أن هذه المقولة بالتحديد: «الماضي بلد آخر» صحيحة حرفياً بالنسبة إلى أحد جوانب الماضي الأوروبي وهو القرون الوسطى، أي الفترة التي يعتبرها المؤرخون نقطة البداية في تكوين الهويات القومية الأوروبية، غير أن هناك أيضاً من ينظر إلى التاريخ القروسطي الأوروبي أنه نتيجة للغزوات الخارجية، والتأثيرات الأجنبية التي تدخلت في تغيير مسار التاريخ، ولذلك فإن الفصول القادمة من هذا الكتاب ستحاول تتبع التعبيرات، والمصطلحات التي تعبر عن هذه الهوية الهجينة، والعلاقة الوثيقة بين الاستشراق والنزعة القروسطية.

ما ينطبق على المكان، ينطبق أيضاً على الزمان، فنحن نرى أن الحاضر ليس

---

(1) L.P Hartley, The Go-Between (London: H. Hamilton, 1953), 1.

نقطة انطلاقنا نحو المستقبل وحسب، وإنما نعترف في عرضنا لأساليب المجتمع المدني أن الماضي مازال يسكن عقولنا، ويتجلى في جهودنا لإقامة الحاضر، وكذا فإن تذكر الماضي واستحضاره يزيد من وعينا بذاتنا، فمن جهة يحضر الماضي التاريخي لا ليمثل الآخر فقط، وإنما يظهر أيضاً كعامل محوري في الحاضر، وهو ليس بالضرورة حداثياً، ومن جهة أخرى فنحن نعترف أن الماضي -مثله كمثل العديد من جوانب الهوية الثقافية- مُتخَيل ومبني [بطريقة] أقرب إلى السرد الروائي الذي بإمكاننا الاستمرار فيه أو التوقف.

إن الهدف من الفصول اللاحقة هو توضيح أن فكرة القرون الوسطى كما تطورت من سياقها الابتدائي في الوعي التاريخي للغرب الأوروبي هي جزء مما نسميه أزمة الهوية، وهي شعور عميق بالشك تجاه ماهية الغرب، وما يجب أن يكون عليه، إذ إن فكرة النقاء الأوروبي في العصور الوسطى تتفاعل مع شعور بالقلق تجاه أصول أوروبا، والغرب عموماً[1].

إن تعريف الثقافة القروسطية -وبخاصة الأدب والفن المعماري منذ بدايات تشكيل هذا التعريف في عصر النهضة وصولاً إلى القرن العشرين- كان يتضمن دائماً فكرة الغرب، وبالتالي فكرة ما ليس بغربي، وهكذا فإن طرحنا يتضمن أن الماضي هو بلد آخر انقطعت علاقتنا به في بعض النواحي،

(1) للمزيد من التحليل لعدم الاستقرار في الخطاب الاستشراقي راجع:

Lisa Lowe, Critical Terrains: French and British Orientalisms (Ithaca: Cornell University Press, 1991. Benedict Anderson, Imagined Communities: Reflections an the Origin and Spread of Nationalism (London: Verso, 1983); and Homi K. Bhabha, Nation and Narration, ed. Homi K. Bhabha (London: Routledge, 1990) and Homi K. Bhabha, The Location of Culture (London: Routledge, 1994. Anthony D. Smith, Myths and Memories of the Nation (NewYork: Oxford University Press, 1999) and Anthony D. Smith, The Ethnic Origins of Nations (Oxford: Basil Blackwell, 1987).

غير أن بعض الدراسات المنضوية تحت عنوان ما بعد الكولونيالية، أو دراسات ما بعد الحداثة أضافت العديد من التعقيدات حول تعريفنا للماضي، وما عنيناه «بالبلد الآخر». قد يكون «البلد الآخر» هو مكان وجود الآخرية، إنه المكان البعيد عن الوطن. ولكن طبقاً لإدوارد سعيد، فإن «البلد الآخر» قد يكون الفضاء المُتخيل الذي نعكس فيه رغباتنا ومخاوفنا.

وبالنسبة إلى دعاة القوميات، فإن البلد الآخر أقل مرتبة دائماً، وهكذا يجب إخضاعه بالاحتلال، غير أن هذه التقسيمات الصارمة بين بلد وآخر تخضع في الحقيقة إلى حركة التأثير والتأثر، وبقدر ما يحاول المحتل استعمال خطاب القوة والسيطرة على البلاد الأخرى، فإنه يتأثر ويتغَير بوجوده وتفاعله مع من يحاول إخضاعهم.

تعد العصور الوسطى حالة بحثية صعبة لإعمال الأفكار التي نريد طرحها، وذلك لأن هذه الفترة أرض خصبة للعديد من النظريات، والطروحات المختلفة، مما يجعلها تصنيفاً محدداً يمكن الغوص فيه، ويختلف عن جميع التصنيفات العشوائية الأخرى للماضي، غير أن «القروسطية» وهو المصطلح الذي سنستعمله؛ لتأكيد التصنيف والفترة الزمنية، تعد حالة بحثية صعبة كذلك بسبب تناولها مؤخراً كأحد المكونات المهمة لتعريف الذات.

مثلت النزعة القروسطية في القرن العشرين –بالنسبة إلى القارئ العادي، وحتى الأكاديمي في بعض الأحيان– مرادفاً للهروب من الواقع إلى المتخيل هذا المتخيل الذي رسمه وروج له كتاب مثل تولكين[1]، وصنعه مبدعون مثل ديزني، وأضاف إلى صورته عدد هائل من المعارض التجارية، والمطاعم، والمحال التي كانت تستخدم رموز القرون الوسطى لأغراض تجارية. وهكذا

(1) تولكين: جون رونالد رويل تويل تولكين المتوفى عام 1973، كاتب وروائي وأستاذ جامعي إنجليزي، عرف بشكل خاص برواياته الملحمية «سيد الخواتم» و«الهوابيت»، عمل أستاذاً لمادة اللغات الأنجلوسكسونية في جامعة أكسفورد. (المترجم)

أصبح عالم القرون الوسطى خيالياً ساذجاً يصلح للأدب الشعبي، ويمثل مادة للأفلام السينمائية، وألعاب الفيديو، لكنه فقد بذلك دوره الخطابي الحيوي في علاقته مع الحاضر، وإسهامه في تكوينه، فلم تعد القرون الوسطى تلك الفترة المثالية التي تُرجى استعادتها، بينما بقيت تداعياتها الخطابية السلبية -من «العدالة القروسطية»، حتى الظروف الاجتماعية والممارسات التي كانت سائدة في الدول الإسلامية- طيَّ الكتمان.

لم تكن الحال كذلك دائماً، ففي القرن التاسع عشر ظهرت النزعة القروسطية، لتمثل مخرجاً مثالياً من الواقع السائد، وتم تأطيرها في مصطلحات سياسية محددة، ليظهر كتّاب تمثلوا هذه النزعة في كتاباتهم النقدية مثل: السير والتر سكوت، وتوماس كارليل، وجون راسكن، ووليام موريس. وهكذا أخذ الأدب القروسطي في القرن التاسع عشر يخط مساراً سياسياً واضحاً؛ للانتقال من نظام أبوي محافظ نحو الاشتراكية المثالية؛ أي من اليمين إلى اليسار، حتى وإن كان ذلك بخطوات متعثرة أحياناً، لكننا مع ذلك نعتقد أن فترة القرون الوسطى تبقى دائماً منطقة مفتوحة للسجال، بما تثيره من إشكالات تنعكس على المقتضيات السياسية التي يعرضها دعاة النزعة القروسطية.

ينعكس الغموض السياسي في الدعوة؛ لاستدعاء الماضي على المستوى الأدبي والسياسي، وعلى المناهج التي نستخدمها في التواصل مع ذلك الماضي. وكما حدث في القرن العشرين من تحويل القرون الوسطى إلى عالم مُتخيل، سعت الدراسات الحديثة كذلك إلى البحث عن النقاء في القرون الوسطى عبر المنهج والمحتوى، إذ نظرت هذه الدراسات إلى القرون الوسطى بوصفها فترة خالية من مواضيع الصراع الموجودة في الثقافة المعاصرة، غير أن المادة التي سنقدمها في الفصول القادمة تُظهر بوضوح أن عدداً من مواضيع الخطاب النقدي الحديث مثل التمييز العرقي، والجنسوي، والمسائل القومية، والحداثة،

لها جذور ممتدة في التاريخ القروسطي الذي كان يعد حتى وقت قريب خالياً ونقياً من هذه الاهتمامات. ومع ذلك، فلسنا مهتمين في هذا البحث بتطبيق نظريات الجنسوية أو ما بعد الحداثة، مثلاً، على النصوص القروسطية، ولكن اهتمامنا سينصب على كشف النقاب عن القوالب والنماذج التي حاكها مبجلو القرون الوسطى، ولاعنوها على حد سواء، إذ تحمل المصطلحات القروسطية الضدين معاً، ولطالما نظر الغرب إلى القرون الوسطى على أنها تضم الـ«نحن» والآخر، وتعبر عن الوحدة والفوضى في الآن ذاته، والمثال الأنثوي المفرط، وشبيهه الذكوري أيضاً.

تبحث فصول هذا الكتاب في عدة مواضيع مثل: الأدب، والفن المعماري، والتاريخ، والمنهجية التي ميزت القرون الوسطى، فلقد ظهرت في القرنين السادس عشره والسابع عشر اتجاهات تُدين القوطية[1]، وتدافع عن الكلاسيكية الجديدة، في خطاب استغرابي يعتمد نماذج من الثقافات الشرقية، وظهر ذلك جلياً في عدد من الأجناس الثقافية التي أكدها أصحاب النزعة القروسطية كرموز قروسطية مثل الفن المعماري القوطي، والأدب الرومانسي القروسطي. أما العمارة القوطية، فقد كانت تُقرأ أنها عمارة محلية غربية، فالأقواس التي تميز الأسقف القوطية ترمز إلى الأشجار الضخمة في شمال أوروبا، غير أن تلك القراءة تؤكد أيضاً الهمجية التي عُرف بها القوطيّون في أوروبا، وفي أحيان أخرى كانت الأقواس القوطية ذات الرؤوس المدببة تُعزا إلى تأثير الشرق الإسلامي «الذي يكتسح العالم المتحضر ويهدد العمارة الكلاسيكية»[2]. وفي

---

(1) القوطية: Golhic نسبة إلى قبائل القوط الجرمانية التي ظهرت أولاً في شمال أوروبا ثم انتقلت جنوباً لتحتل ألمانيا الحالية واسبانيا وإيطاليا. انعكس اسم القوطيين على عدد من مجالات الثقافة في أوروبا القروسطية مثل المعمار القوطي والأدب القوطي. (المترجم).

(2) John Evelyn, tr. Roland Freart, A Parallel of the Ancient Architecture with the Modern (London: J. Walthoe, 1733), 9.

هذا السياق، يقول كريستوفر رين (1632–1723)، وهو المهندس المعماري الذي أشرف على بناء كاتدرائية سانت بول، مدافعاً عن أسلوبه الكلاسيكي في المعمار: «إن الأسلوب الشرقي في البناء ينتشر في جميع أنحاء أوروبا ولاسيما في فرنسا»[1].

الحال كذلك بالنسبة إلى الأدب القروسطي، أو على الأقل الأدب الرومانسي القروسطي، إذ اعتبره مؤيدوه سجلاً للتاريخ الوطني لأوروبا، لكنه أدب أجنبي، وشرقي على وجه الخصوص في عدد من مفاهيمه أيضاً، وقد كان رواد الأدب الرومانسي في القرن الثامن عشر يعتزون بأصوله غير الغربية، ويرون في الدفاع عن هذا الأدب دفاعاً عن الفن الروائي عامة، ودفاعاً عن جوهر الإبداع ذاته[2]. ولعل هذا الدفاع المستميت عن هذا النوع من الأدب يرجع إلى الآخرية otherness بشقيها الداخلي، والخارجي، فمن جهة هي آخرية الداخل؛ أي الماضي الهمجي لأوروبا، ومن جهة أخرى هي آخرية الخارج؛ أي نموذج الأدب الشرقي.

تعبر الصور المجازية في الدراسات المتقدمة للأدب الرومانسي عن نماذج الأجناس واختلاطها، وخلافاً لما قدمته الأشكال الثقافية القروسطية على يدي روادها في عصر النهضة، فإن كتاب القرن الثامن عشر كانوا في الواقع

(1) Christopher Wren, "On the State of Westminster Abbey," in James Elmes, Memoirs of the Life and Works of Sir Christopher Wren (London: Priestley and Weale, 1823), 110.

(2) للمزيد عن الأدب الرومانسي في القرن الثامن عشر راجع:

Arthur Johnston, Enchanted Ground: The Study of Medieval Romance in the Eighteenth Century (London: Athlone Press, 1964. Rene Wellek, The Rise of English Literary History (Chapel Hill: University of North Carolina. Press, 1941) and Rene Wellek, A -History of Modern Criticism: 1750-1950 (New Haven: Yale University Press, 1955).

منجذبين إلى الأشكال الثقافية التي تعبر عن التمازج، كما يعبر عن ذلك توماس وارتون (1728–1790) في مقدمة كتابه «تاريخ الشعر الإنجليزي»، حيث يقول إن الأدب الرومانسي القروسطي، والأدب الروائي عموماً نشأ من اللقاء الثقافي بين الشرقيين والصليبيين. وفي الفترة ذاتها تقريباً، تُرجم مقال بيير دانيال هويت إلى الإنجليزية، وقد كان يحمل تقريباً الرسالة نفسها، إذ يفترض أن جذور الأدب الرومانسي القروسطي تعود إلى التأثير المغربي في إسبانيا، ويضيف هويت: إن الأدب الروائي ذاته بما يحمل من مجاز، وبلاغة قد نشأ في الشرق، ثم عبر إلى الغرب سالكاً طرقاً متعددة[1]. ثار جدل كبير حول موضوع الأصول –خلال فترة ما قبل الأكاديمية–؛ لإعادة بناء الأدب القروسطي، وقد حمل لواءه جوزيف ريتسون، ولكن مثلث الأدب الرومانسي، والرواية، والشرق ظل موضوع هذا الجدل الأساسي مدة طويلة[2]. وقد كانت استعادة تلك الأشكال الأدبية في القرن الثامن عشر بمثابة تمجيد ل «اللاغربي» وهذا ما كان يرفضه دعاة النهضة.

وهكذا يمكن أن نقول: إن تراث القرن الثامن عشر كان زاخراً بسحر الشرق، والتأثير العجائبي للعالم البدائي، وقد أسس أبطال الرومانسية الغربية عالماً قروسطياً يعتمد على الماضي الأوروبي المحلي، والآخرية المبهرة في الشرق[3].

كانت العلاقة بين الرومانسية، والقروسطية، والاستشراق واضحة وعميقة،

(1) Pierre-Daniel Huet, A Treatise of Romances and Their Original (London: Printed by R. Battersby for S. Heyrick, 1672).

(2) Joseph Ritson, Ancient Engleish Metrical Romancees (London: W. Bulmer and Company, for G. and W Nicol, 1802), xxviii.

(3) Richard Hurd, Hurd's Letters on Chivalry and Romance, with The Third Elizabethan Dialogue (New York: AMS Press, 1976), 154.

لدرجة أنها اتخذت طابع الذوق الخاص في الأدب والمعمار، وكما يقول إدوارد سعيد في مقاله عن رايموند شواب: «إن الارتباط بين هذه المواضيع الثلاثة ولّد علاقة ديناميكية وطاغية، إذ يعد شواب الحركة الرومانسية نهضة ثانية، غاصت عميقاً في الشرق، ونظرت إلى التركيبة الثقافية القروسطية بمزيد من الوعي والتقدير، تماماً كما أعاد عصر النهضة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر النظر في اللغات الغربية، والثقافات الكلاسيكية ممهداً لظهور مصطلح «القرون الوسطى»[1]». وهكذا فقد غيرت الثورة الرومانسية الخطاب القروسطي بصورة عميقة تتخطى حدود الحماس المؤقت، مع أن هذا الحماس كان عاملاً شديد الإيجابية فيه، إذ ساهم من جانب أعداء القوطية في تغيير الصورة الرهيبة التي وصمت الأدب القوطي، والعمارة القوطية بالهمجية، والوحشية، وإعادة الاعتبار لذلك الأدب، وتلك العمارة بوصفهما جزءاً لا يتجزأ من الثقافة والحضارة الإنسانية، كما لم تعد الثقافات البدائية (القوطية) مرادفاً للانحدار والتدهور، بل أصبحت نقطة للانطلاق، وصورة من صور الاختلاف المطلوب.

تقاطع هذا المفهوم الجديد للقرون الوسطى باعتبارها حاضنة للقدرات الإبداعية لهذا الشرق الذي يختزن موهبة الخيال، وهو أيضاً السجل الأول للأصول التاريخية، مع حقيقة التوسع التجاري، وبداية المشروع الإمبريالي بما يتضمنه من مشاريع ثقافية مساندة تساعده على التوسع والامتداد، فظهرت دعوة السير وليام جونز لتأسيس الجمعية الآسيوية للبنغال بالتزامن من طروحاته حول اشتراك اللغات الكلاسيكية الغربية، واللغة السنسكريتية في أصول مشتركة؛ ليمتد أثر هذه الأفكار إلى الرومانسية الألمانية[2].

(1) Edward W Said, The World, the Text, and the Crifit) (Cambridge, MA.: Harvard University Press, 1983), 248-67.

(2) George W Stocking, Victorian Anthropology (New York: Free Press, 1987).

كان السير جونز (1746–1794) يعتقد أن اللغات ليست العامل المشترك بين هاتين الثقافتين فقط، وإنما هناك الأساطير الدينية أيضاً، وفكرة الشرك، وتعدد الآلهة بعد التوحيد. كل هذه الأفكار دفعت بأشخاص مثل فريدريش شليغل (1772–1829) إلى الاهتمام، والبحث في اللغة السنسيكريتية، وبدأ يظهر تصور خيالي للعصر الهندي الذهبي، الذي سيسبق الوحدة الروحية للقرون الوسطى، غير أن هذه المثالية لم تدم طويلاً في بدايات القرن التاسع عشر، فقد بدأت نظريات جونز تهتز وتظهر أدلة جيدة تشكك في صحتها، ومع ذلك فإن مفهوماً عاماً باشتراك الحضارة الأوروبية مع الهندية، والحضارات الأخرى في أصل واحد، مثل الغصون التي تشترك جميعاً في الشجرة ذاتها، بقي هو التفسير السائد للأدلة الجديدة التي ظهرت حول الأصول اللغوية المشتركة.

وإذا ما تتبعنا ريموند شواب في كتابه «عصر النهضة والاستشراق» سنجد أن النهضة في القرنين الخامس عشر، والسادس عشر كانت إعادة اكتشاف أوروبا من جديد، وتمثيلها أمام ذاتها[1]. لقد كانت أوروبا هي العالم كما نعرفه، وماضيها هو التاريخ كما عرفناه، ويبرر هذا فهم عصر النهضة للقرون الوسطى بأنها الغزو والهروب في آن، والأجنبي والأهلي في وقت واحد. يرى شواب أن الرومانسية تمثل «نهضة استشراقية»، تعترف بالدور الحيوي لآسيا والشرق الأوسط، وهكذا فهي تُقر بتعددية العالم، ويستعير شواب مصطلحه هذا من إدغار كونيت[2] (1803–1875)، حين قارن الأخير دور السنسيكريتية في القرن

23; Thomas R. Trautmann, Aryans and British India (Berkeley: University of California Press, 1997. Tony Ballantyne, Orientalism and Race: Aryanism in the British Empire, Cambridge Imperial and Post -Colonial Studies Series (NewYork: Palgrave, 2002).

(1) Raymond Schwab, Oriental Renaissance: Europe's Rediscovery of India and the . East, 1680-1880 (NewYork: Columbia University Press, 1984).

(2) إدجار كونيت: مؤرخ ومفكر فرنسي، شارك في الثورة عام 1848، وله عدد من المؤلفات التاريخية

التاسع عشر بدور المخطوطات الإغريقية والرومانية في عصر النهضة.

كانت أوروبا هي القاعدة الأساسية للنهضة في الإنسانيات، وكل ما أنتجته من فنون مرئية وتشكيلية، غير أن الرومانسية كانت ثورة لفظية، لا في الشعر وحسب وإنما في اللسانيات والبحث عن الأصول وتأثيراتها المختلفة أيضاً. لقد قام شواب بوضع خطوط عريضة، لتصنيف الشرق حسب ما يعنيه في الأشكال الاستشراقية المختلفة، بما فيها الشرق في الكتاب المقدس، والشرق الآشوري؛ أي شرق ما قبل المسيحية، والشرق الإسلامي، والشرق الفارسي، والشرق الصيني، في حين اعتبر الهند «الأثر الحديث»، وهي الجغرافيا الضاربة في التاريخ الذي يشكل الخطاب القروسطي الاستشراقي.

بعد ضم الهند للإمبراطورية في النصف الثاني للقرن التاسع عشر، وظهور التأثير القومي للأعراق كعامل حاسم في التاريخ، وفي مفهوم الارتباط بين الحضارة والتقدم، تم استبدال مفهومي حتمية الخطيئة[1] والمساواتية[2] في الرومانسية الاستشراقية بالتأريخ لمرحلة الاحتلال.

كيف يمكن التوفيق بين وجود أدلة على الماضي العظيم للحضارة الهندية، والطموحات الكولونيالية في احتلال الأراضي الهندية وحكم شعبها الذي تراه أدنى درجة وأقل تحضراً؟ لقد كان هناك اعتقاد بأن ذروة الحضارة الهندية تجلت في أثناء فترة الحكم الآري[3] للهند، وإخضاع الحضارة الدرفيدية[4]،

والأدبية. (المترجم)

(1) حتمية الخطيئة Prelapsarianism : اعتقاد قدمه للمرة الأولى ثيودور بيزا، ويفيد بأن الله حكم على الإنسانية بالخطيئة حتى قبل الخطيئة الأولى. (المترجم)

(2) المساواتية: Equalitarinism مذهب المساواة، وهو دعوة سياسية إلى المساواة السياسية والاجتماعية بين كل المواطنين منذ الولادة، ويكون الجميع سواسية تحت مظلة القانون والمجتمع. (المترجم)

(3) الآريون: هم شعب زجفارا بالهند، وهم شعب أبيض البشرة، كان يسكن المناطق الممتدة من آسيا الوسطى حتى شرق أوروبا، وتعد لغتهم الآرية أساس اللغات الهندية الأوروبية. (المترجم)

(4) الدرفيدية: تنتشر السلالة الدرفيدية في الهند وسيرلانكا وبنغلادش وسلطنة عُمان، ويقول بعض

وهكذا تحول التاريخ العريق للهند وصلته البعيدة بالغرب إلى جزء من التاريخ القروسطي، كما جاء في مماثلة السير هنري ماين (1822–1888) بين الأنجلوسكسونية والقرية الهندية.

لقد تم توظيف صيغة الجمع في مصطلح القرون الوسطى في اللغة الإنجليزية كذلك؛ للإشارة إلى البعد التاريخي للهوية الوطنية بعد الاحتلال، مقارنة مع المصطلح المفرد: «القرن الأوسط» في الدراسات السابقة باللغة الفرنسية والألمانية[1].

حاول ماين تبرير المحاولات البريطانية؛ لتحديث الهند بالادعاء أن هذا التطور كان حتمية محلية، وأكد ذلك بالقياس على القرون الوسطى، فكما يقول فريدريش كارل فون سافجني (1779–1861): إن فرض القانون الروماني على مؤسسة القرية الجرمانية انتقل بالقرية إلى أسس الدولة الحديثة. وقد تزود ماين بنظريات جي. إم. كمبل (1807–1857) حول الأنجلوساكسونية مشيراً إلى نقاط الشبه بين القرية الأنجلوساكسونية في القرون الوسطى والقرية الهندية الآن[2].

لقد استمدت هذه الأفكار مادتها الأساسية من المعارض الدولية التي انتشرت في أوروبا على نطاق واسع في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حيث

العلماء أن أصول هذه السلالة قد تعود إلى جنوبي العراق، ومنها انتشرت إلى الهند وإلى عُمان قبل 8000 عام. (المترجم)

(1) R.J. Smith, The Gothic Bequest: Medieval Institutions in British Thought, 1688-1863 (Cambridge: Cambridge University Press, 1987)

(2) George W Stocking, After Tylor: British Social Anthropology, 1888-1951 (Madison: University of Wisconsin Press, 1995. Bruce Dickins,J.M. Kemble and Old English Scholarship (London: H. Milford, 1940) and Eleanor Nathalie Adams, Old English Scholarship in England from 1566-1800 (New Haven:Yale University Press, 1917. Ronald B. Inden, Imagining India (Oxford: Basil Blackwell, 1990).

كانت الدول الأوروبية تعرض انجازاتها الصناعية، ومكتسباتها الكولونيالية، وهي بذلك تقتدي بالمعارض التجارية الكبرى في القرون الوسطى، وهكذا ظهر معرض القصر البلوري الضخم عام 1850 حيث عرضت نماذج فنية من القرون الوسطى؛ لتكون مصدر إلهام للمصنعين والمنتجين الأوروبيين نحو المزيد من المهارة والحرفية والإتقان[1]. كان الجناح الهندي من أكثر الأجنحة شعبية في معرض القصر البلوري، إذ كان يُظهر ثروات الهند من خلال فخامة محتوياته، وذلك قبل ضم الهند إلى الإمبراطورية البريطانية، ومن المثير للانتباه أن المعرض ضم كذلك جناحاً خاصاً بالقرون الوسطى اشتمل على الدروع المعدنية المستخدمة [في ذلك الزمان]، وقد عُرضت جميع المقتنيات في الأجنحة تحت سقف واحد، لكن بحلول عام 1867، خصص المعرض العالمي في باريس سرادقاً خاصاً خارج المعرض لعرض منتجات الثقافات الأجنبية الغريبة، واتخذ هذا السرادق طابعاً ترويجياً بعيداً عن الإنجازات العلمية والتكنولوجية التي تُمثل القوى الإمبريالية في تلك الفترة[2].

ظهر في المعرض؛ الهندي والكولونيالي في لندن عام 1886 توجه نحو إظهار مواقع التشابه بين الواقع الكولونيالي الحالي في المستعمرات، والماضي القروسطي لبريطانيا، فقد ظهر عدد من المعروضات التي تمثل الحياة الثقافية والثروة الحيوانية والنباتية في جنوب شرق آسيا، بينما مُثلت إنجلترا عبر عرض شارع من شوارع لندن القديمة، فقد صُنعت مجسمات للمباني والمعالم الموجودة في لندن قبل الحريق الكبير في المدينة. أما المعرض الدولي عام 1889 في باريس، فقد ظهر فيه برج إيفل إلى جانب نماذج للقرى في المستعمرات، كما ظهرت

(1) Yvonne Ffrench, The Great Exhibition, 1851. (London: Harvill Press, 1950).

(2) يمكن الاطلاع على تاريخ المعروضات الإثنية في المعارض الدولية في كتاب ريتشارد دي. ألتك:
Richard D. Altick, The Shows of London (Cambridge, MA.: Belknap Press, 1978).

في المعرض المركزي للتكنولوجيا الحديثة نماذج من باريس، وفيينا القديمتين، بما فيها من تفاصيل من العصور الوسطى وعصر النهضة؛ لإظهار التوازي بين ما هو قديم وثقافات ما قبل عصور التنوير سواء أكانت أوروبية أم لا. وهكذا، ربطت القرى القروسطية بالكولونيالية والمعروضات الإمبريالية بصورة تمثيلية معقدة تصل التاريخ بالجغرافيا؛ لتظهر القرون الوسطى على أنها محلية وأجنبية في ذات الآن.

أدى تهميش القرون الوسطى هذا إلى الحطّ من أهمية الثقافة القروسطية وقدرها كنموذج مثالي في بدايات القرن العشرين؛ ولذلك كان لا بد من ظهور نموذج مضاد للصورة المهمشة والأجنبية للقرون الوسطى نموذج جديد مختلف للقرون الوسطى في القرن العشرين. وقد ظهرت محاولات؛ لإيجاد هذا النموذج في أمريكا مثلاً على يدي هنري آدمز وصولاً إلى ودور ويلسون، وكانت هذه المحاولات تقدم ترابطاً بين المثاليات القروسطية والأخلاقيات المدنية المفقودة، غير أن هذا الربط لم يستطع تجاوز الشعور المتزايد بأن القرون الوسطى تاريخ هامشي لا يستحق الدراسة، وحتى الدراسات القروسطية التي ظهرت في العشرينيات في أمريكا أكدت أن عصر النهضة هو العامل الأساسي في تكوين المجتمع الحديث. لقد كانت التقدمية هي المطيّة السياسية للحفاظ على مثاليات، وأفكار أمريكا البروتستانتية، التي كانت تواجه تحديات الهجرة المتزايدة والتغيرات المتسارعة، كما عززت الكثير من الدراسات حول الأدب القروسطي في القرن العشرين إطاره الثقافي وترابطه الايديولوجي، وأبرزت تطور بنيته اللغوية، مما كان له أبرز الأثر في إعادة النظر في مكانة الثقافة القروسطية من منظور جيد، ولكن لا بد لنا أن ننوه أن معظم هذه الدراسات استبعدت عدداً من المواضيع المثيرة للجدل حتى وقت قريب، مثل موضوع

الأصول السلتية للأدب الآرثري[1]، ونظرية الأصل العربي للحب الفروسي (courtly love) الذي ساد في القرون الوسطى.

وهناك العديد من الأدبيات حول هذين الموضوعين بما لا يتسع له المجال هنا، إذ نجد في معظم الأدبيات الفرنسية في العشرينيات من القرن العشرين بما فيها الجدل الذي دار بين دنيومي، وروغمونت حول مواضيع أدب الحب الفروسي، ومصادره في القرون الوسطى المتأخرة، أن أصول هذا النوع من الأدب ترجع إلى الشعر العربي والمستعرب (Mozarabic)[2]. وتبدو هذه الفرضية مقبولة إذ ما أخذنا بعين الاعتبار الأدلة التاريخية والانتقال المباشر، غير أن الأدلة الظرفية قوية أيضاً، إذ إن إمكانية التأثير الثقافي المتبادل والانتقال الأدبي قد اختفت تماماً من خارطة الدراسات البحثية، وقد يرجع ذلك إلى أن الدراسات الأنجلوأمريكية قد تجاهلت موضوع الحب الفروسي، واعتبرته مجرد فانتازيا تاريخية للرومانسيين الجدد، أو ربما يكون في أحسن الأحوال امتداداً للتراث الأوروبي في الشعر الإيروسي الذي ينحدر من أوفيد[3] [4].

أما علاقة الأدب الرومانسي الآرثري بالميثولوجيا السلتية، فهي معروفة

(1) الأدب الآثري: نسبة إلى الملك آرثر أحد أهم الرموز الميثولوجية في بريطانيا العظمى، وهو يمثل الملكية العادلة في الحرب والسلم، وهناك خلاف حول وجود شخصية حقيقية بهذا الاسم، لكن بعض الباحثين يقولون إنه عاش في أواخر القرن الخامس الميلادي. (المترجم)

(2) Alexander Joseph Denomy, The Heresy of Courtly Love (New York: D.X. McMullen Co., 1947); and Denis de Rougemont, Love in the Western World (NewYork: Harcourt, Brace and Company, 1940).

(3) شاعر روماني قديم ولد في إيطاليا القديمة عام 43 قبل الميلاد، له عدة أعمال أهمها «التحولات»؛ «ميتامورفوزيس». (المترجم)

(4) للمزيد حول الأصول غير الغربية للأدب القروسطي راجع:

Maria Rosa Menocal, The Arabic Role in Medieval Literary History: A Forgotten Heritage (Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 2003); and Maria. Rosa Menocal, Shards of Love: Exile and the Origins of the Lyric (Durham: Duke University Press, 1994)

في الأدب الحديث، ومن أشهر الأمثلة في هذا المجال قصيدة ت. إس. اليوت «الأرض اليباب».

وقد ظهر هذا التوجه للأدب الآرثري في مدرسة كامبردج، التي عزلت الدراما الإغريقية كنوع من الطقوس، وشجع هذا التوجه التأثير الكبير لدراسة فريزر «الغصن الذهبي»[1]، التي تأثر بها تي. إس. إليوت ذاته، بالإضافة للوميس ومعاونيه[2].

تتبع لوميس تفاصيل الأدب الرومانسي الآرثري وصولاً إلى الميثولوجيا السلتية، وقد أعاد توجيه الجدل في هذا الموضوع من الارتباط الذي تناوله فريزر إلى سؤال حول الأسبقية، وبالنسبة إلى لوميس، فالميثولوجيا السلتية صُورت وكأنها تراث أدبي، مما يجعلها جزءاً من التقدمية القروسطية، لكنه وبتأكيده الأصول البريطانية للأسطورة الآرثرية، فإنه يستثير حنق المؤسسة الآرثرية الفرنسية. لقد كانت الفرضية السلتية حالة قائمة وخاصة في أمريكا، لكنها أصبحت الآن حالة عامة، ومجالاً لكل الباحثين حول القروسطية[3].

إذا كان المدخل الأنثروبولوجي للأدب الرومانسي الآرثري يضرب جذوره في المشروع الكولونيالي للقرن التاسع عشر، فإن نقص المصادر في

(1) الغصن الذهبي: دراسة مقارنة في الميثولوجيا والأديان، أعدها عالم الأنثروبولوجيا الأسكتلندي جيمس جورج فريزر ونشرت في جزأين عام 1890، ثم ظهر الجزء الثالث منها عام 1906. (المترجم)

(2) Roger Sherman Loomis, Celtic Myth and Arthurian_Romance (NewYork: Columbia University Press, 1927) and ed. Roger Sherman Loomis, Arthurian Literature in tile Middle Ages: A Collaborative History (Oxford: Clarendon Press, 1959).

(3) تمثل شخصية إنديانا جونز في فيلم «إنديانا جونز والصليب الأخير» تلخيصاً لنظريتنا، وإنديانا جونز هو بالطبع السيد وليام جونز الذي اكتشف العلاقة بين السنسكريتية واللغات الأوروبية. للمزيد حول حياة جونز، راجع:

Garland Hampton Cannon, The Life and Mind of Oriental Jones: Sir William Jones, The Father of Modern Linguistics (Cambridge: Cambridge University Press, 1990).

الثقافة البريطانية، يمثل إشكالية أخرى، ففي جميع المعارض البريطانية التي ذكرناها سابقاً، كانت إيرلندا وإسكتلندا تمثلان من خلال ماضيهما القروسطي الرومانسي بما فيه من فنون، بينما تُمثل إنجلترا من خلال الإنجازات الصناعية والعلمية، وتُبرَز الجوانب السلتية من بريطانيا وكأنها مستعمرات داخلية.

وعلى جميع الأحوال، فإن هذه الفرضية الرومانسية حول الأصول السلتية لعدة جوانب من الثقافة القروسطية قد تم تحويلها، وتسييسها من خلال المنظور ما بعد الكولونيالي، فقد تناولت الدراسات حالة إيرلندا وإسكتلندا وويلز، وعلاقتها مع الحكم الإنجليزي من خلال الخطاب ما بعد الكولونيالي. كما أن جغرافية التاريخ القروسطي، وتشكل القوميات في تلك الفترة، كانا دائماً في حالة من التغير فيما يخص الحدود الجغرافية، والتحالفات السياسية، بالإضافة إلى وجود عدة نماذج للاحتلال والإحلال والمقاومة، ويعكس تعدد اللغات في معظم مجتمعات القرون الوسطى صورة معقدة عن الإمبريالية والشعوب الخاضعة من جهة، وصور أخرى للمقاومة في وجه القوة والسلطة من جهة أخرى[1].

يبدو من غير الممكن أن تُستعاد مثل هذه النظريات، بأي شكل من الأشكال، ممثلةً حالتها الأولى، غير أن شكلاً حديثاً من أشكال الأنثروبولوجيا تم إحياؤه؛ ليكون مدخلاً للنصوص القروسطية والنصوص الحديثة الأولى عبر التاريخية الجديدة، والتأثير المتقطع لأفكار إم. إم باختين M.M.Bakhtin. والأمر صحيح أيضاً بالنسبة إلى النصوص غير الأدبية التي تدين لها الدراسات الأدبية القروسطية بالكثير، فقد غرس مؤرخون مثل ناتالي دايفز في الولايات المتحدة، وكارلو جينز.بيرغ في إيطاليا، وآرون غوريفيتش في روسيا، وبيتر

(1) Michelle R. Warren, History on the Edge: Excalibur and the Borders of Britain, 1100-1300., Medieval Cultures (Minneapolis: University of Minnesota Press, 2000).

بوركي في بريطانيا، الفلكلور والأنثروبولجيا ولكن بصيغة أقل رومانسية وأكثر عقلانية[1].

هناك أيضاً النقد الداخلي في الأنثروبولوجيا الذي حركه مارشال سالينز وكليفورد جيرتز، والاهتمام بالطقوس القروسطية من قبل فيكتور تيرنر، الذي دفع بالدراسات القروسطية نحو الأنثروبولوجيا، وكذلك التاريخ، وبذا اتجهنا نحو التسليم بالحالة الأنثروبولوجية للقرون الوسطى منذ بدايات تشكلها الأولى على أنها نوع من أنواع المعرفة[2].

نجد تحت الاستقرار الظاهري لهذه الفكرة، تمثيلات متناقضة للقرون الوسطى، فهي محلية تارةً وأجنبية تارةً أخرى، وهي نقطة الأصل في التاريخ، غير أنها تبدو أحياناً وكأنها تمثل التاريخ الممزق لأوروبا، وهكذا.

صُنف موضوع الاستشراق منذ أن تشكل في كتاب إدوارد سعيد

(1) Traian Stoianovich, French Historical Method: The Annales Paradigm (Ithaca, N.Y : Cornell University Press, 1976); John M. Ganim, "The Literary Uses of the New History" in The Idea of Medieval Literature: New Essays on Chaucer and Medieval Culture in Honor of Donald R. Howard, ed. James M. Dean (Newark: University of Delaware Press; Associated University Presses, 1992), 209-26; Aron Gurevich, Historical Anthropology of the Middle Ages, ed. Jana. Howlett (Chicago: University of Chicago Press, 1992); Aron Gurevich, Medieval Popular Culture: Problems of Belief and Perception, Cambridge Studies in Oral and Literate Culture (Cambridge: Cambridge University Press, 1988); Carlo Ginzburg, The Cheese and the- Worms: The Cosmos of a SixteenthCentury Miller (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1980); Natalie Zemon Davis, Society and Culture in Early Modern France (Stanford, CA.: Stanford University Press, 1975); Marshall David Sahlins, Islands of History (Chicago: University of Chicago Press, 1985); Clifford Geertz, The Interpretation of Cultures: Selected Essays (NewYork: Basic Books, 1973).

(2) Victor Turner and the Construction of Cultural Criticism: Between Literature and Anthropology, ed. Kathleen M. Ashley (Bloomington: Indiana University Press, 1990).

«الاستشراق» تحت مظلة أكبر، وهي مظلة ما بعد الكولونيالية، وكذلك هي الحال بالنسبة إلى الدراسات القروسطية، فهي تنتمي بوضوح إلى دراسات ما بعد الكولونيالية. لقد صاغ ألين فرانتزين مصطلح «الأنجلوساكسونية» للمرة الأولى، بناء على نموذج سعيد: «الاستشراق»، لوصف حالة الدراسات في الإنجليزية القديمة أنها غير فاعلة، وسابقة للدراسات الأدبية والثقافية. وقد حاول القروسطيون مؤخراً إدراج منتجات الثقافة القروسطية ضمن خطاب الحداثة، غير أن مخاوف ظهرت من إمكانية تطبيق مفاهيم الحداثة الصارخة على تلك الثقافة القديمة[1]، وهنا يدعو بروس هولسينغر القروسطيين للتخلي عن هذه المخاوف، إذ لا يمكننا افتراض أن الدراسات القروسطية لم تسهم بدور ما في الأعمال الثقافية والسياسية، بالإضافة إلى دراسات ما بعد الكولونيالية[2]، ويضيف هولسينغر، أن على القروسطيين أن يتتبعوا مسيرتهم النظرية والعملية؛ للوقوع على نقاط الاتفاق والاختلاف، كما يشير إلى التحولات التي طرأت على المنهجيات والنظم البحثية خلال العقود الثلاثة المنصرمة، التي بدأت بالتوضح للمرة الأولى ضمن الدراسات القروسطية.

يقول هولسينغر «نجد ضمن القروسطيين والحداثيين الأوائل، دراسات جادة حول ما يُعد أصعب الأبعاد، وأكثرها تعقيداً في علاقتنا مع النظرية»، وتتبع التاريخ الثقافي لهذا البعد وعلاقته المتشابكة بماضينا، سيؤدي بالتأكيد إلى نتائج مهمة. وبذلك يعيد هولسينغر الفضل للدراسات القروسطية الأولى في وجود الدراسات الحداثية الأخرى، بما فيها مؤرخو أنال[3] مثل مارك بلوخ

(1) Jeffrey Jerome Cohen, The Postcolonial Middle Ages, The New Middle Ages (NewYork: St. Martin's Press, 2000).

(2) Bruce Holsinger, «Medieval Studies, Postcolonial Studies, and the Genealogies of Critique,» Speculum 77 (2002): 1195-227.

(3) أنال: Annales، أسلوب جديد في التأريخ طوره مجموعة من المؤرخين الفرنسيين في القرن

والمؤرخون الماركسيون مثل روبرت برينر ونظريته حول الاقتصاد الفلاحي، وبدلاً من محاولات إيجاد موقع قدم للدراسات القروسطية ضمن الدراسات ما بعد الكولونيالية، علينا أن نعرف أن العلاقة بين هذين الحقلين هي علاقة تبادلية تفاعلية.

لقد تم تقديم هذا التوجه بطرق مختلفة كما يقول هولسينغر من قبل عدد من الكتاب مثل كاثلين بيدك، التي تقول في كتابها الصدمة القروسطية «The Shock of Medievalism» أن هناك علاقة جدلية بين ما بعد الكولونيالية ونظرية ما بعد البنيوية، وموضوع الدراسات القروسطية، إذ يبدو أن هناك توافقاً في الرؤية نحو الماضي القروسطي من خلال إيديولوجية إمبريالية، وتظهر تبعات هذا التوافق واضحة في القروسطية المعاصرة. وفي عدد خاص من مجلة «القرون الوسطى والدراسات الحديثة المتقدمة»[1] التي يحررها جون داجيناس ومارغريت جرير. يشير المحررون إلى نظرة الإمبراطوريات القومية نحو التاريخ القروسطي، إذ ترى فيه هذه الإمبراطوريات تاريخاً مشابهاً لتاريخ الأراضي الشاسعة التي سعت إلى استعمارها[2]، ويرى داجيناس وجرير أن رؤية عصر النهضة للماضي القروسطي وفق أنه فجوة وحشية مظلمة، تتعلق بالرغبة في احتلاله وإعادة رسم حدوده؛ ليُعاد قلب الزمان والمكان وتغييرهما بحيث

العشرين، وقد سمي باسم المجلة التاريخية الفرنسية التي كانت تصدر في ذلك الوقت، ويعتمد هؤلاء المؤرخون على العلوم الاجتماعية والاقتصاد، وليس على الأحداث السياسية والدبلوماسية. (المترجم)

(1) الدراسات الحديثة المتقدمة: Early Modern Studies، هي الدراسات التي تتناول الفترة ما بين 1500 – 1800 وبدايات الكولونيالية الأوروبية.

(2) John Dagenais and Margaret Greer, «Decolonizing the Middle Ages: Introduction,» Journal of Medieval and Early Modern Studies 30, no. 3 (2000): 431-48. Nancy Bisaha, "Petrarch's Vision of the Muslim and Byzantine East," Speculum 76 (2001): 284-314.

تحتل المستعمرات الجديدة والقرون الوسطى الإطار الزمني ذاته. ويستشهد المحررون بملحمة بترارك «أفريكا»[1] أنها نقطة البداية التاريخية والجغرافية، وفي الأثناء يميطون اللثام عن ثنائية دائماً ما تظهر عندما تحاول الحداثة الانقلاب على ماضيها القروسطي: إن خلق القرون الوسطى هو فعل ثنائي، كولونيالي ولا كولوينيالي في الآن ذاته، وفي النهاية فهم يقدمون لنا هذه الحقيقة، إن عصر النهضة كما يعرفه بترارك هو «انتفاضة أهلية».

يثير ذكر بترارك تساؤلات حول طلائع الاستشراق القروسطي، والمعرفة القروسطية بجنوبها وشرقها وموقفها من هذا الجنوب وذاك الشرق. وبما أننا نفترض أن تاريخنا قد بدأ مع فترة الحداثة المتقدمة، حيث نستطيع تتبع التطور السياسي والمؤسساتي الذي نعتقد أنه شكّل لحظتنا الخاصة، فإننا نرى القرون الوسطى في فترة ما قبل الحداثة، وتبعاً لذلك فنحن لا نرى فيها التاريخ كما نعرفه، وهنا يقع العبء على المؤرخين الحديثين؛ ليضيفوا إلى القرون الوسطى تاريخها المنقوص، وقد ظهرت بعض الأبحاث المهمة بالفعل في هذا المجال مؤخراً؛ لتصحح العديد من الافتراضات التي كانت موجودة حول القرون الوسطى. ومن هذه الافتراضات أن القرون الوسطى، لأنها سبقت عصر التوسع الجغرافي الكبير، فإن ثقافتها تفتقر إلى فهم ما هو خارج حيزها المكاني، كما أنها لا تقدم فهماً متكاملاً لما هو داخل حدودها، غير أن الدراسات الحديثة وبتنقيبها في العديد من الوثائق في أدب الرحلات والطبوغرافيا، تدحض الكثير من الافتراضات السابقة، وتقلب الصورة القروسطية المُتخيلة عن تلك البلاد وشعوبها.

يرسم الفكر الأوروبي في القرن العشرين صورةً للقرون الوسطى تبدو فيها

(1) أفريكا: ملحمة باللغة اللاتينية عن القائد الروماني سكسيبيو أفريكانوس، كتبها بترارك وهو مفكر وشاعر إيطالي عاش في عصر النهضة، ويلقبه بعضهم بأبي الإنسانيات. (المترجم).

استمرارية للتقاليد الفكرية القديمة، حين تظهر القرون الوسطى خالية من جوهر الفكر الغربي، وقد برز فيها التعصب الثقافي، بالتوازي مع رهاب الأجانب وكراهية المختلف، التي امتدت في الثقافة الأوروبية منذ نشيد رولاند[1] حتى عودة الغزو المسيحي لإسبانيا مرة أخرى. أما الحلقة التي تربط هذا التاريخ الطويل ببعضه، فهي الحروب الصليبية التي وسعت آلتها العسكرية العنف في نشيد رولاند؛ ليصل في النهاية إلى إعادة احتلال إسبانيا. وإذا كان مفكرو القرن التاسع عشر قد نظروا إلى الحروب الصليبية أنها انفتاح على عالم الثقافة الإسلامية الأكثر تطوراً في ذلك الوقت، التي كان الصليبيون ضدها بالأساس، فإن مفكري القرن العشرين أكدوا حقيقة عدم حدوث انتقال ثقافي ملحوظ بين العالمين، نتيجة الحروب الصليبية وقيام مملكة الفرنجة في الشرق.

ومع ذلك فقد حدث تقدم ملحوظ في دراسات الاستشراق القروسطي لاحقاً، فمع التفوق السياسي للغرب الأوروبي على أعدائه في الشرق والغرب الإسلامي، بدأت الثقافة الغربية تعي دورها الثقافي، ومدى مساهمتها في إثرائه. ومع إنهيار الحكم الأموي في إسبانيا وبداية الوجود المسيحي فيها، بدأت فترة من التفاعل الثقافي التي شهدت حراكاً كبيراً في عملية الترجمة بين اللغات، والأديان الموجودة آنذاك، مما نتج عنه فيض من المعرفة الجديدة على أوروبا المسيحية. كذلك لعبت البندقية دوراً مهماً في انتقال الفكر والثقافة بين الشرق والغرب، إذ لطالما كانت الثقافة والتجارة في البندقية منفتحة على الشرق، لكن خليطاً غير عادي من الثقافات ظهر مع تأسيس المملكة النورماندية في صقلية، وضم ثقافة شمال إفريقيا وأوروبا المسيحية والمسلمة، الشرقية منها والغربية، وقد وصل تأثير هذا الخليط الثقافي إلى بلاط الملك هنري الثاني والدوقة إليانور

(1) نشيد رولاند: هو أقدم عمل مهم متبقٍ من الأدب الفرنسي، شاع في القرن الثاني عشر والرابع عشر، وهو ملحمة شعرية تمجد أحد الأبطال. (المترجم)

آكتيان، وانعكس في الملامح الشرقية للأدب الرومانسي القروسطي، أما إنْ كان الحب الفروسي قد ظهر في أوروبا بتأثير الاتصال مع الفلسفات الإسلامية والثقافات الإسلامية المختلفة، فإن ذلك أمر مازال موضع جدل، كما أننا غير متأكدين من أن هذا النوع من الحب كان له وجود أصلاً خارج إطار النصوص الأدبية(1).

وباختصار، فإن الفترة ما بين القرنين العاشر والثاني عشر، شهدت ازدواجية في النظرة تجاه الشرق، فمن جهة تركت الحملات الصليبية سجلاً حافلاً بالكراهية والعدوانية تجاه الشرق لا تظهر فيه إلا بعض محاولات فردية هنا وهناك، للتعامل والتفاوض مع الأعداء. ومن جهة أخرى فإن التفكك والضعف الذي حاق بإسبانيا المسلمة أدى إلى انفتاحها؛ ليتدفق منها فيض من الأفكار والنصوص والحوارات باتجاه أوروبا، التي بدأت في ذلك الوقت انفتاحها على العالم بطريقة مختلفة عما سبق من عدوان، وتوسع باتجاه البلاد الأخرى. وإذا كان الخطاب الاستشراقي قد تطور ضمن حالة من الديناميكية الغربية في أثناء مراقبتها لحضارة عظيمة تذوب وتختفي، فإن الاستشراق القروسطي قد وقع في فخ من نوع مختلف، فلطالما كان الاستشراق القروسطي قلقاً وحائراً تجاه الآخر، غير أنه كان يعي عظمة الثقافة الشرقية وكمّ الإبداع فيها، ولذلك حاول

(1) Maria Rosa. Menocal, The Ornament of the World: How Muslims, Jews, and Christians Created a Culture of Tolerance in Medieval Spain (Boston: Little, Brown, 2002); and the detailed chapters in Maria Rosa Menocal, The Literature of Al-Andalus, ed. Maria Rosa. Menocal, Cambridge History of Arabic Literature (New York: Cambridge University Press, 2000. Norman Daniel, The Arab Impact on Sicily and Southern Italy in the Middle Ages (Cairo: Istituto italiano di cultura per la R.A.E., 1975); Norman Daniel, The Arabs and Mediaeval Europe (London: Longman,1979); Norman Daniel, Islam and the West: The Making of an Image (Edinburgh: University Press, 1960); Norman Daniel, Islam, Europe and Empire (Edinburgh: Edinburgh University Press, 1966).

الغرب الأوروبي استقطار واستخلاص ما يمكنه استخلاصه من هذه الثقافة المركبة والمعقدة، التي كانت مغرية ومخيفة في الآن ذاته.

وهكذا أخذت أوروبا تفهم ذاتها وتُعرِّفها من جديد عبر هذه النصوص المنتقاة من الثقافة الشرقية والعلوم والأفكار الجديدة، بيد أنها ومن خلال عملية إعادة تعريف ذاتها، أعادت صياغة دونيتها أمام هذه الثقافة العظيمة في شكل من أشكال الفوقية[1].

وسنتعرض في الفصول المقبلة للعلاقة المتغيرة بين القرون الوسطى والاستشراق من خلال سلسلة من المناظير المتشابكة، ففي الفصل الأول نتطرق إلى تحليل العلاقة بين الأدب الرومانسي القروسطي والعمارة القوطية ذات الأصول الشرقية، أولاً: عبر نظرة الكلاسيكية الجديدة الحداثية المتقدمة ومحاولتها تأسيس العمارة الإغريقية والرومانية بالإضافة إلى ثقافة هاتين الحضارتين لتصبح عماد الحضارة الغربية، وثانياً: عبر نظرة أعلام الرومانسية وما قبل الرومانسية في العصور الوسطى، ومحاولتهم تقديم صورة بديلة وفاضلة للتاريخ والجغرافيا في القرون الوسطى. ويخلص هذا الفصل إلى تساؤل حول بعض المواقف الحديثة من الأدب والثقافة التي ما زالت تستخدم ثنائية الاستشراق والقروسطية.

نتعرض في الفصل الثاني إلى اختفاء القرون الوسطى كعامل من عوامل تشكيل الهوية الأوروبية في النظريات القومية، التي ظهرت في القرنين السادس عشر والسابع عشر، ولاسيما تلك التي تطرح مسألة استقرار الفينيقيين والعبرانيين في مرحلة من مراحل ما قبل التاريخ في بريطانيا.

(1) للمزيد حول إعادة تعريف الغرب لذاته من خلال مرآة الشرق، راجع:

Brenda Deen Schiidgen, Dante and the Orient, Illinois Medieval Studies (Urbana: University of Illinois Press, 2002. Robert Bartlett, The Making of Europe: Conquest, Colonization and Cultural Change 950-1350 (Princeton: Princeton University Press, 1993).

أما في الفصل الثالث فنحاول تتبع الجهود حول كتابة القرون الوسطى كظاهرة متعلقة بالهوية القومية والشخصية، وظهورها في المعارض العالمية بأشكال مادية أُخذت من الشرق. لقد استمددت معظم أدلتي في جميع هذه الفصول من مصادر بريطانية، بَيْدَ أن نتائج هذا البحث قد تنطبق على ثقافات أوروبية غربية أخرى.

الفصل الأول

القرون الوسطى: جنس أدبي

تمثل قصة الدراسات الرومانسية من عدة وجوه السرد الأساسي في دراسة الأدب القروسطي، والثقافة القروسطية عموماً، إذ نجد ضمن دراسات الأدب الرومانسي، منذ بداياتها الأولى، جدلية سياسية فريدة من نوعها تتضمن فانتازيا العرق، والجنوسة، والسلطة.

يبدأ تعريف الرومانسية في إنجلترا، وفي أماكن أخرى كذلك، بولع شديد بالأصول. وهو أمر مبرر، بالنسبة إلى جنس أدبي لا يحظى بشرعية واضحة، ولا يريد أن يتبناه أحد. فمن جهة، نُظر إلى الرومانسية على أنها أدب أهلي وقومي ومحلي، وأنها شكل من أشكال التاريخ قبل أن يتشكل الوعي التاريخي، ومن جهة أخرى يُنظر إلى جذور الأدب الرومانسي أنها رافقت ظهور الرواية، وكلاهما يصوِّر الآخرية التي كانت تعنى، في القرن الثامن عشر على الأقل، شكلاً من أشكال الاستشراق. أما بالنسبة إلى أدب الحب الفروسي في القرن التاسع عشر فله إشكالية اجتماعية ترد جذوره إلى مكان آخر ربما كان الشعر العربي، الذي وصل أوروبا عن طريق إسبانيا، وهذا ما يعرضه وارتون في مقدمة كتابه «تاريخ الشعر الإنجليزي»، إذ يفترض أن الأدب القروسطي والفن الروائي الغربي عموماً قد بدأ بفعل الاحتكاك الثقافي بين الشرقيين والصليبيين. أما بيير دانيال هويت (1630–1721)، فيذكر في دراسته المهمة حول الأدب الرومانسي، التي ترجمت إلى الإنجليزية في القرن الثامن عشر، أن جذور الأدب الرومانسي ترجع إلى التأثير الموريسكي[1] القادم من إسبانيا، في حين

(1) الموروس أو المورسكيون: Moors سكان شمال افريقيا في القرون الوسطى. (المترجم)

أن الرواية، بما فيها من مجاز وبلاغة، فأصولها شرقية، وقد وصلت إلى الغرب بطرق مختلفة[1].

لقد تمت مأسسة الدراسات الأدبية في الجامعات الحديثة خلال القرن التاسع عشر، وبدايات القرن العشرين، بَيْدَ أنّ الدراسات القروسطية في الأدب الإنجليزي كان لها طريق آخر، إذ تعهد بها جيل من الباحثين الهواة، وسبقهم جيل آخر من الآثاريين، وقد حدث ذلك ضمن دراسات أدبية أخرى، بيد أنّ خصوصية الدراسات القروسطية ما قبل الأكاديمية، والهالة التي كانت تحيط بالخبراء في هذا المجال، جعلتا هؤلاء الخبراء يسقطون مواقفهم تجاه الأدب القروسطي، والقيم الثقافية المرتبطة بها، على الدراسات الأكاديمية في هذا الموضوع.

ولدت دراسات الأدب القروسطي من رحم الحنين إلى تلك الفترة، وما رافقها من قيم، بغض النظر عن الاهتمام بمؤلفين عظام مثل شكسبير أو نصوص بعينها، وقد كان هذا الدافع العاطفي هو المحرك الأول لهذه الدراسات، بما فيها من جوانب اجتماعية وتاريخية، وكذلك اللغة الأدبية التي مازالت حتى الآن تؤثر في حكمنا على الأعمال الأدبية الخاصة بتلك الفترة.

سنحاول في هذا الفصل تتبع هذه الجوانب وبخاصة كيفية تحول دراسة الرومانسية القروسطية إلى هدف في حد ذاتها، إذ يبدو أن الخطاب النقدي الرومانسي، منذ النشأة الأولى له في القرن الثامن عشر حتى منتصف القرن العشرين، يبدأ بدراسة رومانسية القرون الوسطى ليتحول هو ذاته بعد ذلك تدريجياً إلى نوع خاص من الرومانسية. ويطغى هذا التماهي بين الماضي والجنس الأدبي على كل شيء، ويزداد تعقيداً بالنظر إلى طبيعة هذا الجنس الأدبي، فالرومانسية ومنذ ارتباطها بالقرون الوسطى، ارتبطت بنوع خاص

(1) Huet, A Treatise of Romances.

من الغربة عن المكان والزمان أيضاً. وإذا كان التاريخ الثقافي لأوروبا الأممية يعود بأصوله إلى عصر النهضة، فإن تاريخ القوميات يرتبط عادة بالقرون الوسطى، والثقافة القروسطية عموماً، ولاسيما بالمخيال الجغراتاريخي الذي يربط الرومانسية والقومية. ومن هنا جاءت ازدواجية القرون الوسطى في كونها تمثل حالة من الانقطاع ونقطة أصل، وهي سجل قومي وفتنة مستوردة في الآن ذاته.

سنبدأ بعرض فقرة من كتاب هيبوليت تاين Taine «تاريخ الأدب الإنجليزي»:

> «من المستحيل ترجمة هذه الأفكار المتضاربة التي لا تتماشى مع أسلوبنا الحديث، فهي غير مترابطة أبداً ولا تخضع للعرض المنطقي، كما أنها تخلو من الروابط وأدوات التعريف وكل ما يربط المصطلحات ببعضها، وليس فيها غير العواطف الجياشة التي تجتاح النص بجنون، إنها قمة الهمجية»[1].

يناقش تاين هنا شعراً باللغة الإنجليزية القديمة، لكنه يصف البلاغة القروسطية بأنها همجية، وهي بلاغة يعود تاريخها إلى الحقبة القوطية؛ لتصبح القوطية ذاتها مرادفاً للهمجية. إن انعدام الذوق والافتقار للمنطق السردي، وطغيان العاطفة دون تطور درامي للأحداث، هي صور للهمجية في النص من وجهة نظر تاين، غير أن هذه الصفات جميعاً هي أيضاً الصفات التي ميزت الفن والعمارة القوطية، وهي ما كان يزعج الكلاسيكيين الجدد.

ينطوي نقد تاين اللاذع على تصنيف آخر، وهو تصنيف موجود ضمنياً في قصيدة هوراس «آرس بواتيكا»، ألا وهو الغروتسكية[2]:

(1) Hippolyte Taine, History of English Literature (New York: H. Holt and Company, 1886), 43.

(2) الغروتسكية (grotesque): البشاعة والتشويه بالخروج عن المألوف والطبيعي. (المترجم)

«إذا حاول رسام جمع رأس إنسان فوق رقبة حصان، أو جمع بعض الأطراف المختلفة، ونثر بعض الريش عليها؛ ليحصل على مخلوق نصفه الأعلى سيدة جميلة، بينما يعود النصف الأسفل إلى سمكة سوداء بشعة، فهل يمتلك المشاهد لهذا المنظر بعد تأمله إلا أن يضحك؟ ألا يبدو هذا المشهد وكأنه حلم في مخيلة شخص مختل[1]؟

يقدم لنا هوراس Horace هنا جانباً مهماً من جوانب الآخرية، فبينما ينتقد تاين ذكورية السرد القروسطي وهمجيته، يقدم هوراس الفن غير التقليدي على أنه منفر ويثير الاشمئزاز، وهذا الاشمئزاز يتمثل في صورة الأنثى. ومع أن تعريف الغروتسكية قد اختلف قليلاً فيما بعد، إلا أن ما قدمه لنا هوراس من صورة لهذا الفن يطابق الوصف السلبي الذي وُجد للمرة الأولى في الكهوف، والذي قدمه فتروفيو الروماني[2]) منذ مئات السنين. أما الفقرة السابقة من شعر هوراس النقدي حول الفن غير اللائق، فقد كانت مقدمة لنظريات الكلاسيكيين الجدد حول الجمال.

تمثل هاتان الفقرتان نموذجاً لما قد يجده المرء في وصف القرون الوسطى من الناحية الأدبية، وناحية الفن المعماري، وكلتاهما تعبر عن الوحشية والهمجية، ويبدو أن هذين المفهومين شديدا الارتباط عند الحديث عن القرون الوسطى، وغالباً ما نجدهما في السياق ذاته، غير أن إسباغ المغزى السلبي على كلمة القوطية ظهر أول ما ظهر في نظريات العمارة، التي كان من روادها جيورجيو فاساري Vasari (1511–1574):

«هناك أعمال أخرى تدعى بالجرمانية تختلف في زخرفتها

(1) Horace, Satires, Epistles, and Ars Poetica with an English Translation, Loeb Classical Library (Cambridge: Harvard University Press, 1932), 450-51.

(2) (Documentum de arte versificandi II3.154-5) in Edmond Faral, Les Arts Poetiques Du XIIe et Du XIIIe Siecle (Paris: E. Champion, 1924).

وتناسقها عن العمارة الأثرية والحديثة، غير أن المعماريين المحترفين لم يعودوا يستعملونها، بل إنهم يتجنبونها؛ لأنها تمثل الوحشية والهمجية، ذلك أنها تفتقر إلى التنظيم والأفكار الواضحة»[1].

ويشير فاساري في (ص128) إلى الثقافة القروسطية عموماً أنها «قوطية»، وقد ظل هذا التعميم قائماً حتى جاء وارتو وعدد آخر من مفكري القرن الثامن عشر بمزيد من التوضيحات[2].

يقدم فاساري هنا واحداً من أوائل الفروقات بين ما هو قوطي وما هو كلاسيكي في مجال العمارة في القرون الوسطى، وقد جاءت الفقرة السابقة تعليقاً على فقرة أخرى لفتروفيو يتحدث فيها عن الغروتسكية الواضحة في تصميم المنحنيات، والأقواس التي وجدت للمرة الأولى على جدران الكهوف.

يخفي ازدراء فاساري لهذا النوع من العمارة مجموعة من الافتراضات المرتبطة بالعرق والجنوسة التي تُصنف تحت مفهوم «الآخرية»، كما أننا نستشف وراء مصطلحات الوحشية والهمجية مجموعة من الرموز الخفية التي تشير إلى الشرق والغرب، ويرتبط بها مفهوما الأنوثة والذكورة، فالهمجية ذكورية أما الوحشية فهي مؤنثة، والغرب مذكر بينما صُنف الشرق مؤنثاً. ومع ذلك فإن القوطية والقروسطية تثيران الكثير من الارتباك؛ لأنهما لا تعترفان بمثل هذه التصنيفات[3]، كما أن هذه التصنيفات لا تسير باتجاه واحد كما يقول

(1) Giorgio Vasari, Le Opere di Giorgio Vasari (Firenze: Sansoni, 1973), 137.

(2) من أهم هؤلاء المفكرين بول فرانكل:

Paul Frankl, The Gothic (Princeton, NJ.: Princeton University Press, 1960.

(3) Marie Helene Huet, Monstrous Imagination (Cambridge, MA.: Harvard University Press, 1993); M.M. Bakhtin, Rabelais and His World (Cambridge, MA.: MIT Press.

بارثا ميتير Mitter؛ ولذلك فإن الفنون الهندية والآسيوية صُنفت عموماً لدى النقاد الغربيين بأنها وحشية[1].

ليست هذه القطبية اختراعاً حديثاً، ولكنها الفنتازيا التي ابتكرها مؤسسو القروسطية كمفهوم، إذ ردوا بناء السطوح الإبرية المدببة إلى أصول شرقية، كما فسروا وجود القناطر في العمارة القروسطية بتأثرها بأشكال الغابات الشمالية حيث كان يقطن القوطيون، ويظهر هذا الارتباط العرقي بين القوطية والقرون الوسطى في الكثير من النصوص حول العمارة والتاريخ الأدبي، حيث يشير الكتاب أحياناً إلى خلل في تناسق البناء، وأحياناً أخرى إلى همجية الزخارف ووحشيتها، وقد يطال النقد أيضاً أسلوب البناء عموماً.

يقدم السير جون إيفلين Evelyn (1620—1706) العمارة القوطية في كتابه «سجل المعمار والمعماريين» على أنها غزو عرقي: «بعد توغل واكتساح هؤلاء المتوحشين من الشمال، بالإضافة للموريسكيين والعرب من الشرق والجنوب وسيطرتهم على العالم المتحضر، أخذوا يدمرون فن العمارة النبيل، ويشوهونه أينما حلوا»[2]. أما كريستوفر رين فيقول: «لقد انتشر الأسلوب الشرقي في العمارة المعروف في الشرق بسرعة في أوروبا ولاسيما في فرنسا»[3].

هناك انتقادات أخرى للقوطية نجدها في بعض النصوص بطرق مجازية غير مباشرة، كما هي الحال في كتاب جون أوبري Aubrey (1626—1697) غير المنشور «تاريخ المعمار»، حيث يرصد الأساليب المعمارية الإنجليزية في القرن

1968), 33.

(1) Partha Mitter, Much Maligned Monsters: History of European Reactions to Indian Art (Oxford: Clarendon Press, 1977).

(2) John Evelyn, A Parallel of the Ancient Architecture with the Modern, 9.

(3) Wren, «On the State of Westminster Abbey,» 110. Moliere, CEvres de Moliere., eds. Eugene Andre, Despois and Paul Mes-nard (Paris: Hachette et cie., 1873), 541.

السابع عشر، ويؤرخ للمباني الموجودة، ويصنفها حسب طرازها المعماري، كما يلاحظ الانتقال من الأسلوب الرومانسي إلى الأسلوب القوطي، ويصف الأشكال المختلفة للأسلوب القوطي، لكنه يشير دائماً إلى الأسلوب القوطي وفق أنه نوع من التدهور، والتراجع في جميع مجالات التصميم بما فيها النقوش المكتوبة: «لقد تدهورت العمارة الرومانية لتصل إلى الأسلوب القوطي، وينطبق هذا على النقوش الرومانية أيضاً»[1].

يصف أوبري الأسلوب القوطي بالوحشية، ويُصنف الرومانسية القروسطية تحت تصنيف الغروتسكية: «بالنسبة إلى الرومانسية القوطية ومحاولتها تشويه الطبيعة، فقد رأينا الكثير من الأعمال المقيتة لهذا الأسلوب، التي تظهر فيها كلاب وأسماك تتداخل مع أنواع من الزهور»[2].

يُبدي أوبري حنيناً خاصاً وتعلقاً شديداً بقيم القرون الوسطى، بالإضافة إلى أسفه الشديد على بعض المعالم القروسطية التي دُمرت، ومع ذلك فهو يعتبر القرون الوسطى فترة تسودها الخرافات، وتسيطر عليها الغيبيات التي تتناقلها النساء على وجه الخصوص: «عندما كنت طفلاً، كانت العجائز يحكين لنا قصص الأشباح والأرواح قبل النوم... وكانت النساء تتناقل هذه القصص من الأمهات إلى البنات».

يتواصل الجدل حول الفن والأدب القروسطي خلال القرن السابع عشر والثامن عشر مع اختلاف بسيط في التصنيفات، كما نجد لدى جيمس بيتي Beattie (1735–1803) في كتابه «رسالة النقد والأخلاق» حيث يعتبر أن

(1) لقد اعتمدنا نسخة جون هنتر لهذا الكتاب

.. John Aubrey, Chronologia Architectonica, p. 186 cited in Michael Hunter, John Aubrey and the Realm of Learning (New York: Science History Publications, 1975), 162.

(2) Hunter, John Aubrey and the Realm of Learning, 218.

تهميش الكلاسيكية في العصور الوسطى هو نتيجة طبيعية لوجود هذا الفن الوحشي: «بينما يسود الذوق العام الذي يحبذ كل ما هو وحشي، لا بد أن نفترض أن البساطة الطبيعية في الفن الكلاسيكي لن تلقى رواجاً يذكر»[1]. بالنسبة إلى بيتي، فإن هذا النقد الحاد للرومانسية ينسحب على كتب مثل رواية «دون كيشوت» لمؤلفها سيرفانتس، يقول: «إن وجود مثل هذا النوع من الأدب المتطرف إلى جانب الأدب الذي يراعي واقع الحياة الحقيقية في التصنيف ذاته، سيجلب بالضرورة الانتباه إلى النوع الأول؛ لما فيه من اختلاف واضح ومبهر» 562—563. ويحاول بيتي في الواقع أن يدافع عما يدعوه بالرومانسية، وما سندعوه لاحقاً بالرواية في القرن الثامن عشر، ويستشهد بهذه الأعمال الرومانسية المتقدمة.

يُرجع المدافعون الأوائل عن الرومانسية تلك الأعمال الوحشية، عادةً، إلى القرون الوسطى، ومنهم توماس وارتون Warton الذي يقول: «تثير هذه النصوص من الاهتمام أكثر مما تستحق؛ لما تحتويه من غرابة ووحشية لا تنسجم مع المنطق وقواعد الطبيعة والمجتمع»[2]. أما ريتشارد هارد Hurd (1720—1808)، فإنه يستخدم لغة وأوصافاً مهنية حتى في دفاعه عن القوطية «إذا ما حاول المعماريون تطبيق القواعد الإغريقية على الأبنية القوطية، فإنهم لن يجدوا شيئاً سوى الفوضى والتشويه»[3].

يحاول ريتشارد هيرد في كتابه «رسائل حول الفروسية والرومانسية» أن

(1) James Beattie, Dissertations Moral and Critical (London: Printed for W. Strahan; and T. Cadell, in the Strand; and W Creech at Edinburgh, 1783), 560.

(2) Thomas Warton, Observations on the Fairy Queen of Spenser (London: R. and J. Dodsley, 1762), 322-23. Thomas Warton, The History of English Poetry, ed. Richard Price (London: Printed for T. Tegg, 1824).

(3) Richard Hurd, Letters on Chivalry and Romance, 60-61.

يحلل موقف الكلاسيكية الجديدة السلبي من القوطية، بناء على أسس نظرية، مستلهماً هوراس، لكنه في الآن ذاته يرفض مواقفه؛ باعتبارها عائقاً أمام جموح الخيال[1]) بقوله: «فإذا لم تكن الدنيا قنطوراً ولا هاربي ولا عملاقاً بعين واحدة[2] (كلها وحوش كلاسيكية!) فمن أين سيأتي الشعر؟»

علينا أن نتذكر بالطبع أن هيرد يناقش هنا مضمون الرومانسية وليس الشكل، بيد أن ما يهمنا في هذه الدراسة هو ما يفعله بهذا المضمون، إذ إنه يدافع أحياناً عن حرية الخيال التي تسمح بوجود مثل هذه المخلوقات ضمن السرد، وأحياناً أخرى يسعى إلى ترميز هذه المخلوقات بحيث يصبح العملاق والوحش رمزاً للسيد المتغطرس، أو البارون المستبد في عدد من الأعمال الرومانسية[3]، وهنا يقاتل الفارس ضد الظلم لا ضد غير الطبيعي؛ إلا إذا كان هذا الظلم هو ذاته غير طبيعي. هذه هي الطريقة التي يتبعها هيرد في الدفاع عن الرومانسية، التي تحاكي الترجمة الأخلاقية لعمل هوميروس الخيالي: «السحر والفتنة»[4].

يقول هيرد «لقد فقدنا عالماً من الأساطير»[5]) ويدعم مقولته هذه بمجموعة من الافتراضات التي توحي بأن العصور الوسطى هي العصر الذهبي المفقود، أو الطفولة التي لا يمكن استعادتها؛ إنه الخيال الذي شكل الثقافة في العصور الوسطى، بينما حل محله المنطق في القرن الثامن عشر وما بعده في تشكيل تلك الثقافة، وقد كانت الرومانسية هي الوسيلة الذاتية للكشف عن الحضور المكثف لهذا الخيال.

وإذا أعدنا تفكيك افتراضات هيرد، سينجلي أمامنا ما يلي بوضوح:

---

(1) Hurd, Letters, on Chivalry and Romance, 139-40.

(2) القنطور والهاربي والعملاق: شخصيات وحيوانات أسطورية من الميثولوجيا الإغريقية. (المترجم)

(3) Hurd, Letters, 96.

(4) Hurd, Letters, on Chivalry and Romance, 152.

(5) Hurd, Letters, on Chivalry and Romance, 154.

رُبطت القرون الوسطى بالرومانسية، ثم رُبطت الرومانسية بالمثالية؛ لتصبح الجنس الأدبي النمطي الخاص بالعصور الوسطى، أما التاريخ فقد قُرئ أنه جنس أدبي، وعندما ظهرت القوطية من جديد في أواخر القرن الثامن عشر، كانت تحمل تصوراً خاصاً للقرون الوسطى، بَيْدَ أنَّ هذا التصور لم يكن له علاقة سياسية بالحنين للقرون الوسطى ولم يكن يستلهمها، لكنه حافظ ضمنياً على المثالية الرومانسية الواضحة في الجنس الأدبي، بيد أن هذه المثالية لم تكن تتعلق بالحاضر أو المستقبل على الإطلاق.

تمثل القوطية هنا حالة ما قبل الحضارة، وحالة اللازمن، حيث تخلو الأعمال القوطية من سياق سياسي أو اجتماعي محدد، والقوطية، وبالتالي الرومانسية، ليست أشكالاً جمالية فنية وحسب، وإنما هي تراث ممتد يمكن لوارتون وهيرد استعادته في العالم الحديث عبر الخيال.

إن تصور التاريخ في حالة ثابتة لا تحمل التغيير إلا بوجود عالم مناقض، عالم الآخر، يجعل من الرومانسية محطة مهمة؛ لأنها حافظت على الماضي الجامح، الماضي المفقود، الماضي الآخر الذي ساهم في التغيير. لم تكن هذه النظرة الجمالية للقرون الوسطى وللرومانسية لتتحقق خارج سياق محدد، ولطالما احتدم الجدال حول قراءة التاريخ القروسطي الإنجليزي في القرن السابع عشر، وبدايات القرن الثامن عشر، وكانت هذه القراءة التاريخية أحد الأسس التي قامت عليها الثورة البيوريتانية[1]، وما تبعها من حروب أهلية، كما أن هذه القراءة أثّرت مباشرة في المصطلحات السياسية، فكان هناك جدل حول مصطلح الغزو النورماندي مثلاً، وهل هو غزو فعلاً أم امتلاك شرعي للسلطة، كما امتدت التساؤلات إلى البحث عن تمثيل برلماني سابق ضمن الساكسونيين،

(1) الثورة البيوريتانية Puritan Revolution: أو الثورة الإنجليزية هي إحدى الثورات التي تبعتها حروب أهلية في التاريخ الإنجليزي في الأعوام (1640–1660) بين أنصار الملكية والبرلمانيين، وأدت في النهاية إلى إعدام الملك تشارلز الأول. (المترجم)

وهو البحث الذي أيده البرلمانيون أيام الحرب الأهلية. أما الملكيون فقد كانوا يثيرون تساؤلات حول وجود توريث سياسي للسلطة في بريطانيا السلتية، إبان فترة ما قبل القوطيين، وكانت كل هذه التساؤلات حول شرعية البرلمانية أو الملكية الوراثية تصب في جدل حول شرعية الاحتلال، والحريات القوطية في إنجلترا قبل الاحتلال الساكسوني.

تطور هذا الجدل في بدايات القرن الثامن عشر محدثاً تغييراً واضحاً في القراءة التاريخية للتاريخ الإنجليزي القروسطي، بحيث أصبح هذا التاريخ ينقسم إلى عدة مراحل تاريخية اجتازتها إنجلترا قبل الوصول إلى الحاضر، أما الصراعات الأيديولوجية السابقة فقد انصهرت جميعاً في بوتقة مؤسسة الحاضر الموجودة[1]، كما تضاءلت المؤسسة السياسية للقرون الوسطي؛ لتصبح القرون الوسطى مرحلة عبرتها الحضارة للوصول إلى الحاضر؛ لتضيء مرحلة أخرى لاحقة، وبذلك استبدلت هذه القراءة الجديدة للتاريخ - استخلاص أفضل ما في الماضي لدعم الحاضر - الصراعات القديمة بالاستقرار والوئام، لكن الغريب في الأمر أن هذه القراءة أدت كذلك إلى تهميش الأهمية السياسية والثقافية للقرون الوسطى. ومع نهايات القرن الثامن عشر وإعادة اكتشاف الرومانسية القوطية، كانت الأبعاد السياسية والاجتماعية للرومانسية المرتبطة بالقرون الوسطى قد أُهملت.

حوّل تهميش الدور السياسي والاجتماعي للقرون الوسطى الرومانسية القروسطية إلى حالة أسطورية محضة، فهي غريبة وبعيدة بارتباط جذورها بالشرق، لكنها محلية أيضاً بتعبيرها عن مرحلة تاريخية تشكلت قبل وجود

(1) Christopher Hill, Puritans and Revolutionaries: Essays in Seventeenth Century History Presented to Christopher Hill, ed. D.H. Pennington (Oxford: Clarendon Press and Oxford University Press, 1982), 50-122; R .J. Smith, The , Gothic Bequest.

الوعي التاريخي. إنها بذلك مألوفة وغريبة في الآن ذاته، وقد كان ذلك جزءاً من جاذبية الرومانسية القروسطية بالنسبة إلى روادها الأوائل، إذ كانت تمثل الماضي الجامح الذي ترعرعت فيه حرية الخيال، وبالتالي حرية الفن، وهكذا فهي نموذج لحرية الجمال والفن.

شكّل مفهوم القوطية باللغة الإنجليزية منذ بداية ظهوره مرادفاً للهمجية والبدائية في الجمال والأخلاق منذ بدايات القرن الثامن عشر، وكان للقوطية تاريخ مميز في القرن السابع عشر، إذ ارتبط القوط بالجوتيين[1]، الذين كانت لهم مكانة مميزة بين الشعوب الجرمانية الغازية، وهذا ما يؤكده بيد[2].

من السهل الوقوع على عدد كبير من الانتقادات الموجهة للقوطية في بدايات القرن الثامن عشر، غير أن هذه الانتقادات كانت تتوسع أحياناً؛ لتشمل كل ما يتعلق بالقرون الوسطى، فنجد ألكساندر غوردون Gordon (1692–1754) وهو من مناصري التراث الإغريقي والروماني، يناشد جمعية الآثاريين قائلاً: «بجهودكم سيزدهر العلم ويعود الاهتمام بالآثار الحقيقية في هذه الجزيرة؛ لنصل إلى استئصال الجهل، والذوق السيء وكل ما يتعلق بالقوطية»[3].

لقد كان غوردون عضواً كذلك في «جمعية الفرسان الرومانيين»، التي كانت تسعى إلى المحافظة على الآثار الكلاسيكية في بريطانيا، وفي هذه الجمعية

(1) الجوتيين Jutes: من أقوى الشعوب الجرمانية الموجودة في أوروبا، وقد احتلت بالتعاون مع السكسونيين، والإنجليز الجزر البريطانية منذ القرن الرابع الميلادي. (المترجم)

(2) Samuel Kliger, « `The `Goths' in England: An Introduction to the Gothic Vogue in Eighteenth-Century Aesthetic Discussion,' « Modern Philology 43 (1945):107-17.

(3) مقتبس عن:

Stuart Piggott, William Stukeley: an Eighteenth-Century Antiquary. (Oxford: Clarendon Press, 1950), 24. See Alexander Gordon, Itinerarium Septentrionale or, A Journey Thro' Most of the Counties of Scotland, and Those in the North of England (London: Printed for the author and sold by G. Strahan etc., 1726.

ذاتها ألقى وليام ستاكلي Stukeley (1687–1765) خطاباً يثني فيه على جهود الجمعية وأعضائها قائلاً: «بينما ينشغل الآخرون في ترميم آثارهم القوطية، تحتفظون أنتم بشرف المحافظة على الآثار الرومانية النبيلة في بريطانيا»[1]. وهو في هذا الخطاب يرد على من يتهمون بعض أعضاء الجمعية بالقوطية، وبأنهم مثل الهمج تماماً، لا يملكون الإحساس بجمالية الآثار الكلاسيكية.

يلاحظ صامويل كليجر Kliger في كتابه «القوطية في إنجلترا» أن القوطية في القرن السابع عشر كانت على الأرجح تصنيفاً سياسياً لا تصنيفاً فنياً جمالياً[2]، فالقبائل الجرمانية التي اعتبرها تاسيتس[3] مدخلاً لانهيار الإمبراطورية الرومانية كانت تصنف بأنها قوطية، واعتماداً على تاسيتس بعد ذلك، عرَّف البرلمانيون الإصلاحيون في القرن السابع عشر المؤسسات الديموقراطية أنها قوطية بما فيها البرلمان، والانتخابات الديموقراطية والنظام القضائي، كما ربطوا بين السلطة الملكية، والإمبراطورية الرومانية المتفككة، في حين ارتبط الريف البريطاني بالبرلمان الروماني.

لم تكن الأسس التي قامت عليها فكرة القوطية واضحة وقاطعة بما يكفي البداية، فقد كان يُنظر إلى البرابرة الموجودين على التخوم أنهم أكثر تحضراً من أولئك الموجودين داخل الإمبراطورية، والمستفيدين من مزاياها، وبينما كان تاسيتس يشير إلى مكانة مهمة نسبياً للنساء ضمن القبائل الجرمانية، كانت النصوص السياسية تشير إلى القوطيين بأوصاف الذكورة والنبل، في حين تصف الرومان بالفساد والتخنث والانحلال، أما الإمبراطورية الرومانية فتمثلها ثقافة واهية تقابلها الثقافة الحية الثائرة للقوطيين، وبتطور القوطية إلى مفهوم جمالي

(1) Stuart Piggott, William Stukeley, 55.

(2) Samuel Kliger, The Goths in England.

(3) تاسيتس Tacitus: كان مؤرخاً ورئيس قضاة في إحدى مقاطعات الإمبراطورية الرومانية، وله كتب تؤرخ لحقب الحكم في روما. (المترجم)

في القرن الثامن عشر أعيد بناء تلك القطبية، ومع ذلك فقد ظلت الفروق السياسية بين القوطية والرومانية غامضة نوعاً ما حتى في القرن السابع عشر، إذ كان هناك أنصار للقوطية على المستوى الجمالي من جميع الفئات، والأحزاب سواءً من حزب التوري أو الويغ[1]، ومع ذلك فقد ارتبطت الأشكال القوطية في البناء بالإصلاحات، التي كان ينادي بها حزب الويغ والحريات، التي كان يدعو إليها، بينما ارتبطت المعابد الكلاسيكية بحزب توري (المحافظين) وما كان يمثله من أفكار كلاسيكية محافظة، وهكذا ارتبطت القوطية بالفوضى والثورة، أما الكلاسيكية فقد ارتبطت بالتضييق على الحريات الشخصية[2].

يقيم المؤرخ يوردانس[3] Jordanes علاقة بين القوط وآسيا[4]، وهو أول من صنَّف القبائل الجرمانية أنها «قوط»، وهو المصطلح الذي ظل سائداً حتى القرن الثامن عشر، كما أنه يُرجع أصول القبائل القوطية إلى جزيرة قطبية تسمى «ساندزا» انطلق منها القوط؛ لينتشروا في آسيا وأوروبا، وعند وصولهم إلى غرب أوروبا جلبوا معهم بعضاً من سمات الشرق. وبينما كانت فرضية يوردانس حول الشتات القوطي، الذي بدأ من جزيرة ساندزا، يقدم مرجعية

(1) حزب توري، ويغ: Tory, Whig: أحزاب سياسية بريطانية تتنافس في البرلمان الإنجليزي منذ عام 1680 فصاعداً. (المترجم)

(2) يلاحظ كليغر في كتابه «القوط في انجلترا» أن هذا التوازن بين الأضداد كان قائماً في معظم الأحيان، غير أنه يميل إلى عدم الاستقرار أحياناً عندما تطغى أفكار طرف ما على قيم وأفكار الطرف الآخر.

(3) يوردانس Jordanes: مؤرخ روماني عاش في القرن السادس الميلادي، له أعمال مهمة حول أصول القبائل الجرمانية والقوط. (المترجم)

(4) Jordanes, Iordanis Romana et Getica, Monumenta Germaniae Historica Inde Ab Anno Christi Quingentesimo Usque Ad Annum Millesimum et Quingentesimum. (Berlin: Weidman, 1882. Jordanes, The Gothic History of Jordanes in English Version (Cambridge, New York: Speculum Historiale; Barnes & Noble, 1966).

لمفهوم الأصول الشرقية للثقافة القروسطية، كانت أسطورة أودين[1] التي انتشرت في عدد من المصادر القروسطية تؤكد اتصال القوط بآسيا في وقت من الأوقات، إذ تذكر الملحمة النرويجية «هيمسكرنغلا Heimskringla» أن مملكة أودين كانت في آسيا، ومنها توجه القوط، إلى سيثيا[2]) شمال قزوين في آسيا.

تحتوي مجموعة أشعار إيدا[3] على سلالة القوط التي تُظهر أنهم ينحدرون عبر عدة أجيال من برج بابل، إلى أن وجه أودين جيش بومبي وأجبرهم على التراجع إلى أوروبا[4]، أما ديدوكاند فيُرجع تاريخ شعوب الساكسون إلى بقايا الجيوش المقدونية بقيادة الإسكندر الأكبر[5]، أما المقدونيون فهم أهل طروادة حسب عدد من الروايات القروسطية، وتعود أصولهم إلى بريطانيا حسبما يعتقد الكثيرون، وقد ترددت أسطورة أودين التي تنسب القبائل الجرمانية إلى أصول شرقية طوال فترة القرن الثامن عشر دون أن يحاول أحد ضحدها، بل إن أيليت سامز Sammes (1636—1679) يوظف أسطورة أودين كدليل؛ لتعزيز نظريته حول أن الثقافة البريطانية لها جذور فينيقية، وأنها وصلت إلى بريطانيا من آسيا مع جيوش أودين[6].

(1) أودين Odin: كبير الآلهة في الميثولوجيا النوردية، وهو إله الحكمة والحرب والشعر. (المترجم)

(2) Heimskringla the Norse King Sagas, trans. Samuel Laing (London: J.M. Dent, 1930).

(3) أشعار إيدا Prose Edda: مجموعة من الأشعار تحتوي على قصص من الميثولوجيا النوردية. (المترجم)

(4) Snorri Sturluson, The Prose Edda, trans. Arthur Brodeur (New York: The American-Scandinavian Foundation, 1916).

(5) Widukind, Rerum Gestarum Saxonicarum Libri Tres, Monumenta Germaniae Historica (Hannover: Hahnsehe Buchhandlung, 1989).

(6) Aylett Sammes, Britannia Antiqua Illustrata or, The Antiquities of Ancient Britain, Derived from the Phoeicians (London: Printed by T. Roycroft, for the author, 1676). 35.

يؤكد هويت على «أن الرومانسية هي اختراع شرقي يعود إلى المصريين والفرس والسوريين»[1]، وحتى أولئك الذين يدعمون نظرية قدوم القوط من الشرق، لا يستطيعون إنكار التأثير الشرقي على الثقافة القوطية، وربما يكون ذلك عن طريق الغزو الأسطوري لأودين الذي دفع بالقوطيين إلى جميع أنحاء العالم، وفي جميع هذه الروايات انتقلت الثقافة الغربية إلى الشرق؛ لتعود ثانية إلى وطنها الأم بعد أن تشربت الثقافة الشرقية.

يعترف وليام واربرتون Warburton (1698–1779) بأهمية الصليبيين في ظهور الرومانسية، ولكنه يناقش أن المثالية التي خلقها الصليبيون حوَّلت التقاليد البربرية الشمالية إلى موضوع رومانسي[2]. أما توماس بيرسي Percy (1729–1811)، فيصِّر على أنه ليس من الضروري أن يكون التأثير العربي هو المسيطر على الفن الرومانسي، فربما كانت الرومانسية موجودة فعلاً في الثقافة القوطية قبل وصولها من الشمال، وليس بالضرورة أن يكون القوطيون قد اكتسبوها من احتكاكهم بالموريسكيين في إسبانيا[3].

يقدم وارتون Warton في كتابه «أصول السرد الروائي الرومانسي في أوروبا» توليفة من جميع هذه النظريات:

> «إن هذه الأنواع الغريبة والاعتباطية من السرد الروائي، التي عادةً ما ندعوها بالرومانسية، كانت مجهولة تماماً من جانب كتاب الرومان والإغريق، ويبدو أنها وصلت إلى أوروبا

---

(1) Pierre-Daniel Huet, A Treatise of Romances, 10.

(2) Warburton's preface to Miguel de Cervantes Saavedra, The Life and Exploits of the Ingenious Gentleman Don Quixote de la Mancha, Charles Jarvis (London: Printed for J. and R.Tonson, and R. Dodsley, 1742), xv.

(3) Thomas Percy, Reliques of Ancient English Poetry (London: L.A. Lewis, 1839), III, 8.

عن طريق أناس لهم طرائق غير عادية في التفكير، ويُفترض عموماً بأنها مستعارةٌ من العرب»[1].

يضيف وارتون في بحثه أن الاتصال بين أوروبا والشرق قد حدث في مرحلة سابقة، نتيجة للغزو الإسلامي لإسبانيا، وعموماً يؤكد كتّاب مثل هويت الأصول الشرقية للرومانسية، في حين يؤكد بيرس على أصول مقومات الرومانسية بما فيها موضوع المبارزة، وترسيخ فكرة الفارس المتفرد وإعلاء صورة المرأة، ويُرجع أصول كل هذه المقومات إلى الشمال. يجمع وارتون بين نظريتي الأصول الشرقية والشمالية معاً، وهو بذلك يقدم قراءةً مشابهة للعمارة القوطية التي تجمع في سماتها بين الأسلوب الشرقي والشمالي. أما جون هَزبندز Husbands فينحاز قليلاً نحو المخيلة الشرقية بالمقارنة مع المخيلة الكلاسيكية بقوله: «إن العبقرية الشرقية تحلق عالياً بأجنحة قوية؛ لترتفع فوق ملكة الشعر الإغريقية والرومانية»[2]، ويؤكد وليام كولنز Collins (1721–1759) هذه المقارنة في حديثه عن الشعر الشمالي مقارنة بالشعر الشرقي بقوله «يتميز الشعر الشرقي بقفزات قوية متسارعة بين الأبيات، بينما ينعم الشعر العربي والفارسي بذلك المجاز الثري الذي ينساب بسلاسة»[3].

تأثرت الرواية القوطية كذلك بشكل مباشر وغير مباشر بالاستشراق، سواءً من ناحية المعالجة أو الموضوع أو المصادر، وهو الأمر الذي لاحظه معاصرو القرن الثامن عشر، إذ يعرف ناثيان درايك Drake (1766–1836) «القوطية المبتذلة» ويعني بها الرومانسية؛ لتمييزها عن الثقافة الشمالية عموماً، «بأنها متأثرة

---

(1) Thomas Warton, History of English Poetry, 1.

(2) John Husbands, A Miscellany of Poems by Several Hands (Oxford: Printed by Leon: Lichfield, 1731), preface.

(3) William Collins, Oriental Eclogues (London, 1760), 5.

بالسرد الروائي الشرقي الذي وصل إلى أوروبا خلال الحروب الصليبية»[1]، ذلك أن الرواية القوطية تحمل مثل هذه الخصائص التي توضح «تأثير الخرافات العربية والشرقية عموماً في بناء هذه الرواية وشكلها»[2]. وهكذا أصبحت القوطية مشهداً استقطابياً جديداً يعزز الرأي الإثني الذي كان سائداً في القرن الثامن عشر، والذي يؤكد شحَّ الخيال لدى الأعراق الشمالية رغم الأثر الذي تركته البدائية القوطية في الحياة السياسية العامة. غير أن هذا التصور لا يلقي ضوءاً كافياً على أسلوب العمارة القوطية المفرط في الخيال، ولذلك فلابد أن يكون مصدر هذا الخيال هو الشرق لا غير عن طريق الهجرات المتواصلة للقوطيين، التي جلبت معها هذا الأسلوب الخشن والبدائي من جهة، كما أنه يتسم بالوحشية والفخامة من جهة أخرى[3].

لقد شكل الأدب القروسطي سجلاً تاريخياً وانفلاتاً تاريخياً كذلك، فهو سجل للبطولة التي يمثلها الفرسان من جهة، وموئل للشعر والرومانسية التي تمثلها النساء من جهة أخرى، وقد تفاعلت همجية الشمال مع وحشية الشرق؛ لتشكلا معاً أصول القوطية، بَيْدَ أنّ هذا الوهم الكبير حول أصول القوطية أخذ يثير التساؤلات في أواسط القرن الثامن عشر وصولاً إلى القرن التاسع عشر، حين دُحض هذا الوهم تماماً في ألمانيا وبخاصة فيما يتعلق بأصول العمارة القوطية[4].

---

(1) Nathan Drake, Literary Hours or, Sketches, Critical, Narrative,- and Poetical (London: Longman, Hurst, Pees, Orme, and Brown, 1820), I, 139.

(2) Drake, Literary Hours, I, 147.

(3) من الكتاب الذين حاولوا الخوض في أصول العمارة القوطية والرومانسية أيضاً، فيكتور هوغو.
«L'ogive chez les goths de l'Orient venue,» Avant l'exil in Victor Hugo, (Evres Poetiques, Bibliotheque de la Pleiade ([Paris]: Gallimard, 1964), I, 478. Notre-Dame de Paris.

(4) Heinrich Hubsch, In What Style Should we Build?: The German Debate on

إن الجدل حول الرومانسية هو في الواقع جدل حول السرد الأدبي في حد ذاته، إذ إن التساؤلات التي تثار حول علاقة الرومانسية بالواقع، وعلاقتها بالأخلاق والمجتمع يولد تساؤلات مشابهة حول دور السرد الأدبي عموماً، وقد نجد مواقف متناقضة من الرومانسية تتراوح بين الرفض والانبهار، والاحتفاء والازدراء ضمن عدد من التعريفات المتعلقة بالرومانسية حتى يومنا هذا في دراسات الأدب الإنجليزي.

يطغى دور المجاز في الرومانسية على دور الرومانسية كجنس أدبي، ذلك أن النظرة إلى السرد الأدبي وفق أنه رومانسية تتضمن طريقتين متلازمتين، ومتناقضتين من التفكير، فالرومانسية هي تلك الفانتازيا الإيروسية المرغوبة من جهة؛ وهي كذلك مصدر للشك والنأي المرفوض من جهة أخرى. ونجد في نموذج فكري آخر أن الجنسانية (Sexuality) والأجنبية (Foreignness) هما أيضاً عاملا جذب ونفور في الوقت نفسه. أما في الرومانسية، فإن هذين العاملين يتمثلان في الجنسين المؤنث والمذكر، والرومانسية هي وثيقة تاريخية، توثق التاريخ الإنجليزي أو الأوروبي، وتكشف البنية التشريحية لهذا التاريخ المتمثلة في الوجود الفعلي للمجتمع، أو الصورة المتخيلة عنه.

والرومانسية إذ تتضمن صورة مثالية نبيلة بما فيها من فروسية، وبطولات، تقترب كثيراً في خصائصها من الملحمة، بيد أن هذه الخصائص الملحمية الذكورية النبيلة تقابلها أيضاً خصائص أخرى تثير القلق، فالرومانسية هي الأدب الجامح المليء بشغف غير المحدود، الذي ينبثق من عالم آخر مختلف مثيراً الشك والريبة، وتنعكس هذه الريبة على النظرة للأدب الرومانسي، إذ تجد الرومانسية أحياناً رمزاً للفروسية والسلوك الأرستقراطي لدى أولئك

Architectural Style, trans. Wolfgang Herrmann (Santa Monica, CA: Getty Center for the History of Art and the. Humanities, 1992).

المحافظين على الفضائل والأخلاقيات القروسطية في بدايات القرن التاسع عشر، لكن من جهة أخرى تثير الرومانسية الشك لدى المحافظين الواعين في أواخر القرن التاسع عشر، الذين تأثروا بالوعي القومي الجديد المرتبط بالتقاليد النوردية مقابل التقاليد الأوروبية عموماً.

أدت نزعة التجديد في القروسطية في القرن الثامن عشر إلى بروز نوع رفيع من الشعر الرومانسي[1]، عكس الاختلاف والتنوع المتجذر في القوطية التي أصبحت لاحقاً أهم المصادر الإيديولوجية للشعر الرومانسي، بغض النظر عن فهم الشعراء الرومانسيين، وتفسيرهم للثقافة القوطية، ومنهم كوليريج، وكيتس اللذان تأثرا بالقوطية بشكل مباشر. وقد تأثر الشعراء الرومانسيون عموماً بالثقافة القوطية، حين وجدوا في الرومانسية ضالتهم المنشودة في بحثهم عن الذات الشعرية، حتى وإن كان بعضهم مثل شيلي، الذي لا يعرف الكثير عن الرومانسية في القرون الوسطى، أو له موقف مضاد لها كما حدث مع بايرون.

لقد تخطى تصور الطبيعة حسب المفهوم الرومانسي، التصور الأولي للطبيعة في الثقافة القوطية، إذ ثارت الرومانسية على القواعد الأساسية للشكل واللغة، التي كانت معروفة في القرون الوسطى، مُشكلة لغة وشكلاً جديدين للرومانسية، ظهر عبر الثقافة الضبابية للقوطية.

وعلى الرغم من الارتباط الواضح بين الحركات السياسية الثورية والأسس

(1) Saree Makdisi, Romantic Imperialism: Universal Empire and the Culture of Modernity, Cambridge Studies in Romanticism (Cambridge: Cambridge University Press, 1998); Filiz Turhan, The Other Empire: British Romantic Writings About the Ottoman Empire, Literary. Criticism and Cultural Theory (New York: Routledge, 2003); Tim Fulford and Peter J. Kitson, Romanticism and Colonialism: Writing and Empire, 1780-1830, ed. Tim Fulford (Cambridge: Cambridge University Press, 1998).

الجمالية للرومانسية، فإن عملية ترميم الرومانسية القروسطية، واستعادتها ظلت مقصورة على مؤسسة المحافظين في بدايات القرن التاسع عشر.

كان الباحثون في موضوع الرومانسية القروسطية، أواخر القرن الثامن عشر، ينكرون وجود أي صبغة سياسية لأبحاثهم، غير أن هذا الإنكار كان يخفي وراءه انتماءً واضحاً للمؤسسة المحافظة[1]، وقد ظهر هذا الانتماء بوضوح من خلال الحماس الذي استقبلت به أعمال هؤلاء الباحثين في أوائل القرن التاسع عشر في إنجلترا خلال فترة حربها مع فرنسا، حيث ظهر بوضوح اتجاه معادٍ للجمهورين يحتفي بأعمال شعراء رومانسيين،.بمن فيهم السير والتر سكوت (1771–1832)، يحمل آراءً شديدة المحافظة (يبدو ذلك واضحاً في السيرة الذاتية لنابوليون التي كتبها سكوت في عدة أجزاء). لقد قدّم هؤلاء الباحثون القرون الوسطى في إطار نقدي مضاد للتحديث والتصنيع والإفراط، ومؤازر للأرستقراطية والتراث؛ لارتباط الكلاسيكية بالفروسية خصوصاً دون أي من وجوه القرون الوسطى الأخرى، مما عزز مكانة الرومانسية أكثر فأكثر .بما تتضمنه من نماذج طاغية للفروسية.

أصبحت الرومانسية جنساً أدبياً رائجاً مع بدايات القرن التاسع عشر، وانتشر أسلوب إحياء القروسطية، وأخذت الرومانسية والقروسطية تحددان المثل العليا للمجتمع، وقُدمت القروسطية أنها إيديولوجية محددة لها برنامج ديني، وسياسي، وثقافي خاص، وارتبطت القروسطية بالعودة إلى الطقوس الأنجليكانية، وأخذت الجماعات الإصلاحية المحافظة مثل جماعة إنجلترا الفتية على عاتقها مهمة تحويل العراقة والأصول النبيلة إلى منصة سياسية. أما السمة الآثارية Antiquities للقرن الثامن، فقد أصبحت رمزاً ثقافياً انبثقت

(1) Alice Chandler, A Dream of Order: The Medieval Ideal in Nineteenth-Century English Literature (Lincoln, Nebraska: University of Nebraska Press, 1970), Mark Girouard, The Return to Camelot (New Haven: Yale University Press, 1981).

عنه الرومانسية القروسطية التي استقبلها القرن التاسع عشر، ولاسيما في إنجلترا بالكثير من الإعزاز؛ لأنها كانت تمثل جنساً أدبياً وطنياً خالصاً، على العكس من معظم النماذج الأوروبية الأخرى السائدة في القرن الثامن عشر. وقد رافق إضفاء الصبغة الوطنية الغربية على الرومانسية، تركيز شديد على الجوانب الذكورية في الرومانسية، وما فيها من بطولات دون إغفال الأصول الآرثرية والسلتية لها، غير أن معظم التركيز كان على الخصائص الإنجليزية، لا بل الأنجلوساكسونية للرومانسية.

لم تكن الرومانسية القروسطية مع ذلك قاعدة ثابتة لقيام تلك المؤسسة، إذ تُظهر لنا دراسات الثقافة الرائجة في ذلك الوقت أن الرومانسية حملت رغبات الأفراد إلى جانب القيم العامة المشتركة، الأمر الذي أدى إلى صراعات طويلة تركت علاماتها على التاريخ غير المعلن للرومانسية في القرن التاسع عشر.

حاول ألفريد لورد تينسون Tennyson في مجموعته الشعرية «أنشودة الملك»[1] أن يوفق بين الإيروسية الجامحة في الرومانسية، ونظرة العامة للقرون الوسطى، غير أنه لم ينجح كثيراً في ذلك، ومع ذلك فإن مجموعته الشعرية لقيت رواجاً شعبياً هائلاً في ذلك الوقت. أما وليام موريس، فحاول استعمال الرومانسية القروسطية؛ لخدمة الأفكار الثورية، إذ إنه قدم عملاً استشرافياً في إطار القرون الوسطى وهو «أخبار اللامكان – News from Nowhere»، حيث يحكي قصة مثالية عن المستقبل في إطار قروسطي، موظفاً الرومانسية؛ لتقديم اليوطوبيا المنشودة.

توضح ستيفاني بارشويسكي أن أبطال الأساطير القروسطية، أمثال الملك آرثر، وروبن هود، لم يكونوا بمنأى عن المواقف العنصرية التي سادت في القرن

(1) أنشودة الملك Idylls of the king: مجموعة من القصائد النثرية التي نشرت بين عامي 1856–1885، وتحكي أسطورة الملك آرثر وفرسانه، وحبه لجنيفر، وخيانتها له، كما تصور قيام مملكة آرثر وسقوطها. (المترجم)

التاسع عشر، كما نجد في رواية «إيفانهو» لوالتر سكوت، فقد قدم سكوت قالباً جديداً للعنصرية في هذه الأساطير، آملاً في إيجاد وحدة عرقية ونفسية، ويتضح ذلك في تقييمه الإيجابي لدور اليهود. أما ردة الفعل تجاه التمرد الهندي، فقد كانت نقطة تحول في السياسة الإمبريالية البريطانية، والسياسة العرقية، ومؤشراً على نهاية المفهوم السائد حول الحضارات الشرقية أنها ميراث الإمبريالية المجيد. لكن وبحلول عام 1850 عادت المواقف العنصرية من جديد في بريطانيا، وألمانيا، وشمال أوروبا، لتجسد الاختلافات الإثنية، واللغوية عبر تصنيفها تحت مظلة العرقية[1]، وهكذا أخذت صورة روبن هود مثلاً تتغير إلى بطل ساكسوني معزول مع إعلاء للخصائص التيتونية[2]، التي هي أقرب ما يكون إلى الأصول الآرية. ربما كانت نظرية الأصول الدينية التي تربط الحضارة البريطانية بالشرق الأوسط شائعة في القرنين السادس عشر والسابع عشر، بما فيها من فرضية أن اللغة الأصلية للجزر البريطانية كانت اللغة العبرية، غير أن هذه الفرضيات تبدلت تماماً في أواخر القرن التاسع عشر؛ ليعاد تصنيف اليهود بأنهم النقيض والآخر وفق أسس دينية وعرقية.

وفيما يخص الملك آرثر، فقد كان تصنيفه العرقي أكثر تعقيداً، إذ تفرض تراتبية التفوق العرقي إعلاء الأنجلوساكسونية فوق الهوية السلتية، رغم الجهود

(1) Stephanie L. Barczewski, Myth and National Identity in Nineteenth Century Britain: The Legends of King Arthur and Robin Hood (Oxford: Oxford University Press, 2000); Maike Oergel, The Return of King Arthur and the Nibelungen: National Myth in Nineteenth-Century English and German Literature, European Cultures (New York: Walter de Gruyter, 1998. A. MacDougall, Racial Myth in English History: Trojans, Teutons, and Anglo-Saxons (Hanover, N.H.: University Press of New England, 1982); Claire A. Simmons, Reversing the Conquest: History and Myth in Nineteenth- Century British Literature (New Brunswick, NJ.: Rutgers University Press, 1990).

(2) تيتونية: نسبة إلى الشعوب التيتونية الجرمانية الأصل التي استقرت شمالي أوروبا. (المترجم)

التي بُذلت في القرن الثامن عشر؛ لإرساء هوية كبرى تقوم على وحدة الفصائل العرقية المختلفة.

يُعَد الباحث جوزيف ريتسون Ritson (1752–1803) حالة خاصة فيما يتعلق بالقروسطية المحافظة، إذ تظهر في أبحاثه بعض الصعوبات التي تواجهها هذه المؤسسة سواء ضمن تيارها اليميني، أو اليساري، وقد كان ريتسون راديكالياً متطرفاً، وشخصاً حاد الطبع، توفي بعد أن حبس نفسه في مكتبته مدة شهر كامل قام خلاله بإحراق جميع مخطوطاته، وعلى الرغم من هذا التطرف فإن الرؤية الرومانسية لريتسون تتوافق مع النموذج المثالي للآثارية مع رفضه لمعظم المفاهيم الخاطئة لديها، إذ يسخر في مقدمة كتابه «مقاييس الرومانسية الإنجليزية القديمة» من مفهوم الرومانسية الذي قدمه وارتون، الذي يُرجع فيه أصول الرومانسية إلى الاحتكاك مع العرب في إسبانيا:

> «ربما نقبل هذه الفكرة فيما يتعلق بالنصوص التي كتبت بعد الحروب الصليبية، ولكن ليس هناك أي دليل أو مسوغ لتعميم الفكرة ذاتها على النصوص التي كُتبت قبل ذلك الوقت بزمن طويل»[1].

ويشير ريتسون إلى إمكانية وجود أصول إسكندنافية للرومانسية، لكنه يشك في وجود أدلة نصية، أو شهود على هذه الفرضية. ولا يقتصر الشك لدى ريتسون في موضوع الأصول العرقية للرومانسية على العرب والإسكندنافيين فقط، إذ ينسحب هذا الشك على الأصول السلتية كذلك، فهو يرى أن التاريخ الويلزي لا يقدم نماذج شعرية أو قصصية قبل ظهور جيفري مونماوث Monmouth (وهو شاعر وكاتب من ويلز ولد العام 1100)[2]. وبالإضافة إلى

(1) Joseph Ritson, Ancient Engleish Metrical Romancees (London: W Bulmer and Company, for G. and W Nicol, 1802), xxviii.

(2) المصدر السابق، Ritson, p. xvi.

ذلك، يرفض ريتسون بشدة نظرية الأصول الأنجلوساكسونية للرومانسية ويقول:

«لم يجلب هؤلاء الغرباء معهم أي كتب، ولم يكن لديهم مخزون أدبي على الإطلاق، غير أنهم كانوا أمة شجاعة محاربة عندما كانوا وثنيين، ولكن بعد تحولهم إلى المسيحية أصبح معظم ملوكهم رهباناً، وتحول شعبهم إلى مجموعة من العبيد الخاضعين لأي مُحتل جديد، وفقدوا قدرتهم في الدفاع عن أنفسهم»[1].

تبدو الدوافع وراء تحليلات ريتسون في هذا المقام مثيرة للاهتمام، إذ ينعت ألفريد بطل التقدمية السياسية في القرنين السابع عشر والثامن عشر بأنه «متعصب بائس»، في حين يستخدم فكرة «النير النورماندي» بقوله: «كان وليان يستعبدهم مثل ثيران الحقول»[2]، وفي سياق سابق كانت العبودية النورماندية تدعم المؤسسات السياسية الأنجلوساكسونية، أما التحول الديموقراطي الذي كان يتصوره الراديكاليون في القرن السابع عشر، فقد كان يعني العودة إلى الحق الطبيعي لأي إنجليزي بأن يكون حراً. يزدري ريتسون وجهة نظر القاضي والسياسي المحافظ وليام بلاك ستون، الذي كان ينظر إلى الغزو النورماندي أنه شكل من أشكال التعاقد، إلاّ أنه لا ينظر برومانسية إلى الوجود الأنجلوساكسوني أيضاً، بل إن نزعته الجمهورية الراديكالية تظهر بوضوح في غضبه على الكنيسة، لما سببته من فساد ضمن الأنجلوساكسونيين حتى قبل الاحتلال. كيف ينظر ريتسون إذاً إلى الرومانسية وسط كل هذه الشكوك؟

(1) المصدر السابق، (Ritson, p. (lix-lx).
(2) المصدر السابق، Ritson. p. lxix.

قامت تعريفات الرومانسية في القرن الثامن عشر بناء على أصول الرومانسية من جهة، وحالة الغموض التي تكتنف هويتها الوطنية من جهة أخرى، أما ريتسون فهو يرفض الجهتين معاً، ويعد التعاريف التي تستند إلى هذه الأسس واهية، ولا تمت للواقع بصلة، وبالإضافة إلى ذلك فإن ريتس يرفض الرومانسية باعتبارها حالة تاريخية تمثل جانباً مختلفاً للآخرية قائلاً:

«لا تختلف قصص الأبطال التاريخيين الإنجليز مثل بيغيس وغاي عن غيرهم مثل أماديس دوي غول، فهم جميعاً من صنع الخيال، غير أنهم اكتسبوا مكانة تاريخية؛ بفضل الكتابات الرومانسية التي قدمها أشخاص مثل وارتون»[1].

يرفض ريتس فكرة تفرد الرومانسية الإنجليزية وتميزها، ويقبل بالرومانسية الفرنسية لا؛ لأنها سبقت الرومانسية الإنجليزية فحسب، وإنما لأن الرومانسية الفرنسية أفضل من الإنجليزية على ما يبدو، ويعبر هذا الرفض بوضوح عن عدم إعجابه بالرومانسية القروسطية الإنجليزية مقارنة بالرومانسية الفرنسية. وربما يعود موقفه هذا إلى رفضه التوجهات القومية الخاصة بالأمة الإنجليزية من جهة، وولائه لقيم الثورة الفرنسية من جهة أخرى، لكن من المؤكد أن موقف ريتسون الرافض لتفرد الرومانسية الإنجليزية كان ردة فعل مباشرة على محاولات وارتون ربط الرومانسية الإنجليزية بالأرستقراطية النورماندية، وتكريسها واجهة لعرض عظمتها، وهو الأمر الذي كان ريتسون يرفضه بقوة. وهكذا يحاول ريتسون أن يُشرِّح نظاماً عاماً قائماً سلفاً من جهة، لكنه يمتلك أيضاً خصوصية تاريخية من جهة أخرى؛ ولذلك فإن ريتسون في معظم خلافاته مع الباحثين الآخرين يصل في النهاية إلى أن الرومانسية سمة إنسانية عالمية، وقد يبرع بعضهم في التعبير عنها أكثر من غيرهم. بذلك يصل ريتسون

(1) المصدر السابق، Ritson, p. xciv.

إلى المأزق الذي وصل إليه جميع الباحثين في موضوع الرومانسية حتى يومنا هذا، وهو أن البحث الأكاديمي في موضوع الرومانسية يحرر الرومانسية من سحرها الذي هو بالضبط ما يجذبنا إليها.

كان معاصرو ريتسون يقدرون الدقة التي يتحرى بها معلوماته، لكنهم كانوا يتجاهلون معظم مواقفه وآرائه، ويعتبرونها نتاج عقلية مشوشة، ولذلك لا يمكن أن يُعتد بها. ومع ذلك فقد تركت شكوك ريتسون بالإضافة إلى أحلام الفروسية التي سادت في القرن التاسع عشر إرثاً إشكالياً متعدد الوجوه، إذ انضمت الدراسات الرومانسية الإنجليزية إلى المؤسسة الأكاديمية تحت عنوان الأدب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر[1]، وبذلك تعرضت الرومانسية إلى عدد من الضغوطات التي هددت موقعها ضمن الدراسات الأكاديمية، إذ لم يعترف بها النموذج الجرماني في فقه اللغة المقارن كشكل أدبي خاص، كما هدد أصحاب مدرسة أرنولد بتهميش الرومانسية فيما عدا بعض الكتاب المهمين في القرون الوسطى.

لقد قامت مأسسة الدراسات الأدبية في القرن التاسع عشر على أكتاف الدراسات القروسطية، غير أن نتيجة هذه المأسسة كانت إقصاء الدراسات الرومانسية القروسطية بعد أن كانت في قلب حركة إحياء الدراسات القروسطية في القرن الثامن عشر.

كانت مجلة «جمعية النصوص الإنجليزية المتقدمة» من أهم المنشورات التي

(1) أتاح تأخر قيام المؤسسة الأكاديمية الأدبية في بريطانيا الفرصة لغير الأكاديميين بتكوين جمعيات أدبية صغيرة أهمها نوادي القراءة في بدايات القرن التاسع عشر، التي كان لها فيما بعد كبير الأثر على الدراسات الأدبية في بريطانيا. للمزيد حول الموضوع راجع:

Harrison R. Steeves, Learned Societies and English Literary Scholarship in Great Britain and the United States (New York: Columbia University Press, 1913); Robert William Ackerman and Gretchen E Ackerman, Sir Frederic Madden: A Biographical Sketch and Bibliography (New York: Garland Pub., 1979).

ظهرت في العصر الفكتوري، وقد ارتبطت هذه المجلة بمؤسسها إف جي فارينفال Furnivall (1825–1910)[1]. كانت مثل تلك الجمعيات مقصورة إلى حد بعيد على أفراد طبقة معينة بما يتفق والقيم الاجتماعية القروسطية، أما فارينغال فقد كان خير مثال لأبناء تلك الطبقات، إذ كان محامياً معروفاً يهوى الكتابة، والتحرير، ويلتزم بالاشتراكية المسيحية، وبالإضافة إلى ذلك فقد كان متحمساً جداً لجمعيته ومجلتها، ويظهر ذلك بوضوح في أعداد المجلة من حيث المحتوى الرفيع للأبحاث المنشورة فيها. وبينما يدافع الآثاريون المتقدمون عن القرون الوسطى من خلال أجناس أدبية بعينها مثل الرومانسية، أو القصيدة الغنائية، يقدم مشروع فارينفال رؤية أوسع للمجتمع القروسطي؛ رؤية تتلائم وأفكاره السياسية الخاصة التي لم تكن يسارية بالضرورة، لكنها مثلت الوعي الاجتماعي لدى الطبقات العليا في المجتمع الفكتوري.

تبدو قروسطية فارينغال علمانية في بعض جوانبها، ومشروعه الواحد المتمثل في إلقاء الضوء على الماضي الأدبي من خلال النصوص الأدبية المتقدمة، يمكن أن يعكس أكثر من جانب، فمجموعة النصوص التي تظهر في أعداد مجلته قد تظهر جانباً من الخطاب القروسطي، لكنها بالتأكيد لا تمثل فكرة العصور الوسطى التي أسسها الآثاريون السابقون، ولا حتى الجمهور المعاصر له.

لقد جمع فارينفال في تصوره بين الحياة الواقعية للشعب، والنموذج الجرماني العلمي لفقه اللغة، وقد تمت مأسسة هذا النموذج عن طريق مثل تلك

(1) William Benzie, Dr. F.J. Furnivall: Victorian Scholar Adventurer (Norman, OK.: Pilgrim Books, 1983); David Matthews, The Making of Middle English, 1765-1910, Medieval Cultures (Minneapolis: University of Minnesota Press, 1999); Richard J. Utz, Chaucer and the Discourse of German Philology: A History of Reception and an Annotated Bibliography of Studies, 1793-1948, Making the Middle Ages (Turnhout: Brepols, 2002).

الجمعيات الأهلية بالإضافة إلى الجامعات الرسمية في البلاد، ومن خلال هذا التصور ظهر موقف جديد رافض للجيل السابق من الآثاريين الأرستقراطيين الهواة، كما هو رافض للجيل اللاحق من سادة الأدبية الانطباعية. ونتيجة لذلك ظلت النصوص الرومانسية التي لا تتناسب ومفهوم الرومانسية الموروث من الجيل السابق محمية من النقد والتشريح، وفي الوقت ذاته غيرت النصوص الأدبية القروسطية التي جمعها فارينفال، والتي كانت برأيه تمثل الهوية الإنجليزية الحقة؛ لما تعكسه من تجارب العامة من النساء والرجال، قواعد دراسة الأدب الإنجليزي القروسطي، وبذلك أصبحت الرومانسية عن غير قصد ممثلاً للشخصية الوطنية الإنجليزية.

ظهر بعد تلك الفترة بقليل كتاب مهم حول الأدب الرومانسي شكل مرجعاً أساسياً لعدد كبير من الباحثين، وهو «الرومانسية والملحمة» لمؤلفه كير W.P.ker (1855–1923)، وفي هذا الكتاب تم استبعاد النصوص الرومانسية الإنجليزية القروسطية الأولى منذ البداية، حيث يقول الكاتب: «لم يتعرض أحد لمجموعة كبيرة من النصوص الرومانسية الإنجليزية الأولى من قبل»[1].

وبالنسبة لكير فإن الميثولوجيا القروسطية تنضوي داخل الملاحم، أما الرومانسية فهي محاكاة من الدرجة الثانية لقوة الملحمة التي تمثل الأدب في فترة زمنية سابقة، حين سادت البطولات قبل أن تظهر الفروسية، ويعتقد كير أن الرومانسية تمثل الحداثة القروسطية، بينما تمثل الملحمة التراث القروسطي، «إن الرومانسية أدب مصطنع متكلف، أنتجه آلاف الأدباء الذين كانوا يسعون وراء الربح، وهو بذلك يشبه العمارة القوطية الحديثة في أنه محاولات منظمة للولوج إلى أرض السحر والخيال»[2].

(1) W.P. Ker, Epic and Romance (London: Macmillan, 1897), a.

(2) المصدر السابق، Ker, Epic and Romance, 371.

تحمل تشبيهات كير واللغة التي يستخدمها في الحديث عن الرومانسية الكثير من المواقف الواضحة، فهو يقول إن الرومانسية: «غالباً ما تحمل الروعة والخيلاء»[1]، «ومهما حملت الملحمة من معانٍ فهي تعكس بعض الصلابة والثبات، أما الرومانسية فتفقد كل معانيها إذ افتقرت إلى الغموض والخيال»[2]. يحاول كير أن يبتعد عن القطبية الواضحة في تمركزه خلف الملحمة مقابل الرومانسية، ولكنه يفعل ذلك بطريقة ساخرة، حيث يقول «إن الصليبيين فقدوا أسلوبهم البسيط، والرصين الذي تميزوا به»[3]، وهو هنا يقارن بين الاستراتيجيات العسكرية، والأشكال الأدبية، ويضيف «إن طريقتهم الفروسية في القتال قد تؤدي إلى اتهامهم بالتطرف والهمجية مقارنة برجال الأعمال في المدن مثلما حدث مع المستوطنين في أيسلندا»[4]. تبدو هناك أفكار فكتورية واضحة خلف هذه التشبيهات والصور، إذ كانت الرومانسية توصف بأنها حرب صليبية أجنبية لأنها، تبحث عن الأجنبي، وتسعى إليه، وفي النهاية يغلب موقف كير من الملحمة والرومانسية الازدواجية القروسطية في القرن الثامن عشر، التي كانت تعزز الرومانسية على حساب الملحمة، لكنه يعكس أيضاً أزمة الحضارة في إمبريالية القرن التاسع عشر، إذ يبدو موقف كير في تفضيله للملحمة على الرومانسية وكأنه خيال إمبريالي عسكري، لكننا إذ ما تفحصنا هذا الموقف على مستوى أعمق سنجد أنه يخفي قلقاً عميقاً حول إمكانية وجود الفضائل، والأخلاق البطولية الأولى أو الحنين إليها.

يعيد كير تعريف الرومانسية القروسطية لدى موريس[5] على أساس

(1) المصدر السابق، Ker, Epic and Romance, 3.

(2) المصدر السابق، Ker, Epic and Romance, 5.

(3) المصدر السابق، Ker, Epic and Romance, 5.

(4) المصدر السابق، Ker, Epic and Romance, 5.

(5) وليام موريس (1834–1896) كاتب ومعماري اشتراكي، ولد وتعلم في لندن، كتب ونشر الشعر

التسلسل التاريخي، ورغم القاعدة الأرستقراطية لهذه الرومانسية فإن المجتمع البطولي ينحو فيها نحو المساواة التي «لا تميز بين سادة وأجراء»[1]، ويعتقد كير أن الرومانسية ما هي إلا أحد الفصول التي انتزعت الغموض، والسحر من الملحمة إلى سياق آخر، فالرومانسية ليست سياقاً أجنبياً غريباً فقط، وإنما وحشية وهمجية أيضاً، وهنا يبدو وكأن كير يستند إلى كتاب راسكن Ruskin حول عمارة مدينة البندقية.

قد يظن المرء أن الرومانسية بالنسبة إلى كير تتخذ الخصائص التي تحدث عنها أوسكار، وايلد Oscar Wilde وسواينبورني Swinburne والتي تتعارض مع خصائص الملحمة القروسطية، لكن كير يضيف مقاربة مجازية أخرى بين الرومانسية والإنتاج، إذ تبدو الرومانسية وكأنها مادة مصنّعة على أيدي منتجين محترفين وقابلة دائماً لإعادة التصنيع مرة بعد أخرى، على العكس من التطور الطبيعي للملحمة، وهو بذلك يصور الرومانسية أنها نوع من الرأسمالية المنفلتة، واللاأخلاقية في مقاربة غريبة وصادمة، فكير يحصر الرومانسية في تلك النشوة التي يتركها الشعر الرومانسي في النفوس، ويقرأ الرومانسية القروسطية وفق أنها محاولات مصطنعة، لإعادة إنتاج تلك النشوة مرة بعد أخرى.

نشر كير كتابه «الرومانسية والملحمة» عام 1897 عندما كان في الثانية والأربعين من عمره في إسكتلندا، التي كانت في ذلك الوقت تسير على هدي البرنامج الثقافي للسير والتر سكوت Walter Scott، فجاء كتابه ليعكس ولاءً وتقديراً لبطولات الفروسية التي كان يتبناها سكوت، على الرغم من موقفه السلبي من الرومانسية. وفضلاً عن ذلك فإن كير كان ملتزماً بالتراث السياسي للرومانسية القروسطية، فقد كان محافظاً طوال حياته، كما أن انحيازه إلى شعر

والقصص وترجمات النصوص القديمة من القرون الوسطى. (المترجم)

(1) المصدر السابق، Ker, Epic and Romance, 7.

البطولات وما يظهره من قيم أخلاقية رفيعة كان يتلائم مع بعض القيم التي كان ينادي بها الاشتراكيون أمثال موريس، كما أنه يدين بتقدمه في الأدب المقارن للكاتب والباحث الفرنسي غاستون باريس Gaston Paris، مع أنه كان يرفض فكرة الرومانسية التي كان ينادي بها باريس، ويسعى إلى تأسيس نموذج جديد للأدب القروسطي باعتباره أدباً إنجليزياً نوردياً وليس فرنسياً عالمياً كما كان يدعو إليه باريس.

تواصل هذا التهميش للرومانسية حتى بدايات القرن العشرين، وانعكس بالضرورة على المواقف غير الأكاديمية للباحثين في الأدب الإنجليزي، وقد يكون الاستثناء الوحيد لهذا التهميش هو دراسة مالوري Malory حول الأدب الآرثري، حيث تحولت الأسطورة إلى عمل رومانسي.

لا بد أن نلحظ أنه، وبالتوازي مع عملية تغريب الرومانسية، أخذت العمارة القوطية تكتسب المزيد من الصفات الوطنية، أو على الأقل بعض الخصائص الغربية مع نهاية الربع الأول من القرن التاسع عشر، أما العمارة القروسطية والشرقية في القرن الثامن عشر –التي قد تكون إسلامية، أو من الشرق الأدنى– فكانت جزءاً من الصورة الفنية المعمارية لتلك الفترة، ولكلٍّ أن يختار الأسلوب المعماري الذي يناسب مشروعه الخاص. ومع ذلك فقد ارتبطت الصورة الجمالية الفنية تلك بقيم مختلفة لكل من العمارة القوطية والشرقية، إذ ارتبطت القوطية بالجدية، والكآبة، والتاريخ المحلي. أما العمارة الشرقية فقد ارتبطت بالمتع الحسية، والغرابة (حتى وإن كان النموذج المعماري مسجداً أو معبداً)، وقد كان هوريس ولبول Horac Walpole (1717–1797) وآخرون يصنفون المواضيع القروسطية والشرقية بأنها بديل لخيارات دنيوية أخرى، لكن مع ظهور بوغين A. W N. Pugin عام 1820 أخذت القوطية ترتبط بالنقاء بعد أن كانت فنوناً همجية، وبالنظام بعد أن كانت تنحو نحو الفوضى،

وبالأصالة بعد أن كانت ثقافة محتجبة.

لم تكن القوطية بالضرورة بعيدة عن السياسة، فقد كان من أبرز الدعاة إلى إحياء الحركة القوطية هوريس والبول Horace Walpole، وهو ابن السير روبرت والبول الذي كان أحد أهم الوزراء في بريطانيا في القرن الثامن عشر، وقد كان قصر السير روبرت مثالاً واضحاً على الهندسة البالادية[1]، إلاّ أنه كان أيضاً مشتركاً في الجدل القائم في ذلك الوقت حول العلاقة بين التاريخ القروسطي، ونوازع التحرر في بريطانيا.

أما المهندس المعماري وليام كنت William Kent، فقد كان من أوائل المعماريين، الذين تنبهوا إلى الأسلوب المعماري القروسطي كبديل للعمارة البالادية. وقام مع مساعده جيمس غيبس James Gibbs ببناء «معبد للحرية» عام 1741 على الطراز القوطي في ستوهاوس في ضاحية باكنغهام شاير[2].

ومهما كانت الصورة المعمارية الفنية، التي سادت عن الفن القوطي في أوائل القرن التاسع عشر، فقد انطبقت أيضاً على الرواية القوطية بشكل أو آخر، إذ اشترك كلاهما في مميزات تاريخية خاصة.

ساهم المعماري المميز بوغين Pugin في إحياء العمارة القوطية عبر إثارة الجدل حول السمات الشرقية والغربية فيها، وهو جدل ظل قائماً طوال القرن التاسع عشر، وبالطبع كان بوغين يقف في صف المدافعين عن الأصول الغربية للعمارة القوطية. وقد بدأ بوغين حياته المهنية في الفترة الرجينتية (نسبة إلى الملك

(1) الهندسة البالادية Palladian: هي أسلوب هندسي أوروبي في العمارة أخذ اسمه من اسم المهندس الإيطالي أندريا بالاديو الذي كان يستند إلى التناظر وقيم التناسب في المعابد الكلاسيكية الإغريقية والرومانية. (المترجم)

(2) Megan Aldrich, «Gothic Sensibility: The Early Years of the Gothic Revival,» in A.W.N. Pugin Master of Gothic Revival (New Haven: Published for the Bard Graduate Center for Studies in the Decorative Arts, New York by Yale University Press, 1995).

ريجينت، الذي أصبح اسمه بعد توليه الحكم الملك جورج الرابع) وانعكست ملامح تلك الفترة على معظم تصميماته الهندسية في الكنائس والمسارح، وظهرت الرموز الدينية والتراثية واضحة في تلك التصاميم، ولاسيما المتعلقة بزخرفة الكنائس.

راجت الكثير من الممارسات الدينية المسيحية القادمة من إيطاليا بحلول عام 1840، فظهرت المواكب الدينية التي تطوف المدن بقيادة الرهبان منشدةً التراتيل الدينية باستمرار، فضلاً عن مراسيم منح البركات التي كان يقوم بها الأساقفة، أما لمسات بوغين التي تنبع من دراسته العميقة لتاريخ الطقوس، والشعائر الدينية والتي كانت تتمثل على وجه الخصوص في المذابح المزخرفة داخل الكنائس، فقد أخذت تختفي من معظم الأبرشيات.

يقول بوغين إن تفوق العمارة القوطية يرجع إلى علاقتها الوثيقة بالمواد الأولية المستعملة في البناء، وإن نظرنا إلى تصميم أي معبد إغريقي، أو روماني رخامي سنجد أن هذا التصميم لا يختلف في أسلوبه عن الأبنية الخشبية الأولى، فانتقال العمارة إلى استعمال الحجر كمادة أولية للبناء لم ينتج عنه أي تغيير في التصاميم، كما «أن أضخم المعابد الإغريقية وأجملها يشبه في تصميمه الأساسي تصميم الأكواخ الخشبية القديمة»[1].

ألاّ أنّ الأسوأ من ذلك هو أن العمارة الكلاسيكية هي نتاج «للإعجاب الأعمى بكل ما هو وثني، والإطاحة بالرموز المسيحية في الفنون والآداب». ومما يثير الاهتمام في دفاع بوغين عن القوطية، هو دقة التعريف الذي يقدمه لأسلوب العمارة «المدببة» في إشارة للقوطية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر. إن ما يميز هذا التصميم هو، أولاً: الزخرفة المركبة لهذا النموذج التي

(1) A.W.N. Pugin, The True Principles of Painted or Christian Architecture (London: J. Weale, 1841)

تتناسب مع الأسلوب الفكتوري الثري بالزخارف التفصيلية، وثانياً: أنه يمثل سطوة الكاثوليكية في فترة تاريخية مهمة قبل هجوم الحركات الإصلاحية، والعودة إلى العمارة «المدببة» ترمز إلى كسر التقاليد الدينية والمعمارية الأصيلة.

يقيم دفاع بوغين عن العمارة القوطية علاقة استراتيجية بين رغبته في إظهار التاريخ الكاثوليكي القروسطي بصورة نقية، والإصلاحات الأنجليكانية التي كانت تقودها جمعية كامبردج كامدين[1] في الاتجاه ذاته. وفي ذلك الوقت، ساعد التغير التاريخي المتمثل في تغيير هنري الثامن ولاءه للكنيسة الكاثوليكية، وإنشائه الكنيسة الإنجليزية، على إعادة الاعتبار للقوطية، وتنصيبها رمزاً للمؤسسة الإنجليكانية، كما سمح هذا التغيير لجمعية كامبردج كامدين والكنيسة الإنجليكانية، في الوقت ذاته، اعتبار نفسها وريثاً للكنيسة الحقة، متناسية جميع الخلافات الجذرية التي كانت بينها عبر التاريخ.

كان بوغين قد بدأ بانتقاد المساقط العمودية في العمارة القوطية المتأخرة عندما استدعاه شارلز بارى وجيمس غراهام للاشتراك معهما في تصميم البرلمانات الجديدة في إنجلترا، لكنه انضم إليها على أي حال، وربما كان نقده ذاك يستند إلى رؤية فنية جمالية، غير أنه كان يحمل أيضاً وجهة نظر عقائدية. وهكذا، أصبحت الأعمدة والمساقط العمودية نماذج إنجليزية معدلة عن النموذج المعماري القوطي المتأخر، وأخذت تتكرر في العمارة الإنجليزية حتى يومنا هذا، لكنها ترتبط تاريخياً بالمشروع الإصلاحي الديني لهنري الثامن، وبالردة الدينية التي قادها بإنفصاله عن الكنيسة الكاثوليكية، مع أن بوغين لم يذكر هذا المنطق بوضوح.

---

(1) جمعية كامبردج كامدين Cambridge Camden: جمعية للمعماريين أسسها طلاب جامعة كامبردج عام 1839؛ للترويج للدراسات المعمارية القوطية. (المترجم)

وفي جميع الأحوال، كان بوغين قد قرر أن نموذج ثيودور الهندسي، الذي ساد في القرن السادس عشر قد أصبح جزءاً من الماضي، وقد وافقه على ذلك حلفاؤه في جمعية كامبردج كامدين، وبالإضافة إلى ذلك فقد قرر زملاؤه باري وغراهام اعتماد التصاميم العامودية؛ لتتناسب مع سياق العمارة الموجودة في كنيسة ويستمنستر آبي Westminster Abbey.

تزامن رفض بوغين للتصاميم العامودية في العمارة القوطية مع فتح آفاق جديدة لحلفائه في جمعية كامبردج كامدين، ففي كتابه «التباين – Contrasts» الذي كان يحتفي فيه سابقاً بالعمارة العمودية وأسلوب ثيودور كأفضلية على ما جاء بعدهما من أساليب قبيحة على حد تعبيره، ويلقي باللوم على البروتستنتية، ويحملها عبء التدهور الثقافي والمعماري الموجود، ويضيف أن المشكلة لم تكن في العمارة الثيودورية أو غيرها، بل في عصر النهضة، وذلك عندما بدأ المعماريون بتقليد الأساليب الوثنية القديمة التي تتعارض مع المبادئ الكاثوليكية تحت شعار الإصلاح[1].

مما يثير الاهتمام في هذا الخطاب المضاد لعصر النهضة أنه يرتبط بالحماس الذي لقيته النهضة الإيطالية، وتأثيرها على مخططات العمارة الكنسية من طرق نيومان، وأتباعه الذين كانوا حلفاء لبوغين من قبل، لكن بوغين يقف مع حلفائه في جمعية كامبردج في خندق القوطية الفيكتورية رافضين البروتستنتية الأفنجليكية، والكنيسة الكاثوليكية الإيرلندية في ذلك الوقت. ويتعلق خطاب بوغين بمدحه الراهب سافانارولا[2] بقوله: «هذا الشهيد البطل الذي مات دفاعاً

(1) A.W.N. Pugin, Contrasts or A Parallel Between the Noble Edifices of the Middle Ages, and Corresponding Buildings of the Present Day, Skewing the Present Decay of Taste. Accompanied by Appropriate Text (London: C. Dolman, 1841), iii.

(2) الراهب سافانارولا: Savanarola راهب إيطالي من فلورنسا (1452–1498، عُرف بمناوأته للنهضة، واشتهر بمهاجمته للأعمال الفنية التي كان يعتبرها لا أخلاقية، وقد قام بإحراق العديد من الكتب

عن الحقيقة»، كما أنه يربط بين «حدائق ميديشي المليئة بالرموز الوثنية، ودور العبادة الموجودة الآن في كل مكان» وكأن دعاة الأفنجيليكية الآن ينحدرون من صلب الفساد في كاثوليكية عصر النهضة[1].

ويعتقد بوغين أن نجاح العمارة القوطية يعود بالأساس إلى قدرتها على إظهار روعة وغموض الإيمان الصحيح عبر المباني الشاهقة والزخارف واستعمال الزوايا التي توجه الضوء، بالإضافة إلى أصالة هذه العمارة وانتمائها إلى الثقافة المحلية «إذ لم يستلهم القوطيون أفكارهم من أي مذاهب وثنية خارجية، ولم يستعيروا زخارفهم ورموزهم من شعوب غريبة»[2].

يتحدث بوغين كذلك عن الفنون المرئية (Visual arts) بعجالة في معرض حديثه عن العمارة، وعلاقتها بالدين، ويتذمر من طلاب الفنون الذين يذهبون إلى إيطاليا؛ لدراسة الفن الكلاسيكي، أو فنون عصر النهضة، فبدلاً من ذلك «عليهم أن يتوجهوا إلى دراسة الفن الإيطالي في القرون الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر، الذي يمثل قمة النقاء المسيحي، غير أن هذه الفنون تدهورت، وانحطت بعد ذلك عندما تخلت عن سموها ونقائها»[3]، ومع أنه يشير إلى الفنان الإيطالي رفاييل على أنه أحد رموز الفن الكاثوليكي العظام، فقد تنبأ تقريباً بتكوين الرابطة الفنية التي سميت فيما بعد «أخوية الفنون ما قبل رفاييل»[4].

وبغض النظر عن أفكار بوغين السياسية، أو العقائدية، فإنه كان ينظر إلى

التي تدعو إلى الإصلاح، غير أنه أعدم عام 1452 في فلورنسا. (المترجم)

(1) المصدر السابق، Pugin, Contrasts, v.

(2) المصدر السابق، Pugin, Contrasts, 6.

(3) المصدر السابق، Pugin, Contrasts، 12.

(4) Pre-Raghaelite Brotherhood : رابطة كونتها مجموعة من الفنانين الإنجليز عام 1848، تدعو إلى إصلاح الفنون برفض المنهج الميكانيكي في الفن الذي اتبعه خلفاء رفاييل ومايكل انجلو، واعتبروه مفسراً للدراسة الأكاديمية الفنية. (المترجم)

القوطية من زاوية هندسية واضحة، وفهم أهمية تسلسل المسافات في هذا النوع من العمارة، والعلاقة بين الإنسان والفضاء الذي يتحرك فيه، بالإضافة إلى الزخارف والنماذج التي كانت مفصّلة في القرن الثامن عشر، والتي نفذها هو شخصياً في عدد من المباني التي صممها. أما دفاعه عن قوطية القرن الثالث عشر؛ لما فيها من سمو ونقاء ديني، ومنطقية في البناء، فقد أكسبه مكانة خاصة في نظريات الهندسة الحديثة، حين احتلت العمارة القوطية مكانة مهمة بما تميزت به من وضوح في بنيتها التركيبية. وفضلاً عن ذلك، فقد ترك بوغين أثراً واضحاً على تاريخ العمارة الإنجليزية؛ لما قدمه من دراسات مهمة حول تصنيف أنواع المباني، ولاسيما في العمارة القوطية، ودعوته لوضع برنامج متكامل وشامل للعمارة في إنجلترا.

لقد عرَّف بوغين القوطية أنها تعبير عن المجتمع التقليدي، ورمز للثقافة والدين، معززاً في جوانب عدة القيم الاستبدادية التي كان يؤمن بها الجيل السابق من المعماريين الذين عملوا على إحياء القوطية، وظلت وجهة النظر تلك قائمة لزمن طويل حتى جاء موريس، وأعاد قراءة الأسلوب القروسطي بما يتناسب مع رؤية المجتمع الجديد الذي يدعو إلى المساواة، متحدياً بذلك مواقف كارليل وراسكن المحافظة.

بدت الصورة مختلفة قليلاً في فرنسا، فبحلول عام 1850، كان يوجين إيمانويل فايوليت لا دو، Eugene-Emmanuel Viollet –le-Duc, وجون بابتيست لاسو Jean – Bapliste Lassus يبرران الترميمات التي قاما بها للمعالم القوطية في فرنسا، بأنها معالم ترتبط بالقرن الثامن عشر الذي أُشتهر بالكاتيدرائيات العظيمة المبنية في المدن الفرنسية، التي كانت قد تحررت من النظام الإقطاعي، وهنا يقدم فايوليت لادو ولاسو صورة مغايرة للقوطية تميزها بنية معقدة، ومنطق رياضي محكم، ولقد حافظت هذه على تماسكها إلى اليوم، وتبلورت

بوضوح في كتاب بانوفسكي Panofsky «العمارة القوطية والفلسفة المدرسية Gothic Architecture and Scholasticism».

وهنا لا بد أن نشير إلى أن التركيز على موضوع التطور المعماري القوطي وما يعكسه من ثقافة متقدمة كان رداً على بعض الآراء، والاتهامات التي وُجهت إلى العمارة القوطية أنها تعكس حالةً من التدهور في تركيبة المجتمع، وأن هذه العمارة «هي أقرب ما تكون إلى الأشكال المعمارية التي تبنيها الحيوانات بدافع الغريزة مثل حيوان القندس»[1].

وهكذا كانت حركة إحياء القوطية في فرنسا تستند إلى سياق اجتماعي مختلف تماماً عن السياق الإنجليزي الديني، الذي قامت عليه هذه الحركة في إنجلترا، فبدلاً من اعتبار القوطية بديلاً للمذهب العلمي، والتقدم الصناعي، والرأسمالية، أشار فيوليت لا دو وزملاؤه إلى القرون الوسطى وعمارتها، وما تنضوي عليه هذه العمارة من احترام للعمل والعامل أنها مصدر إلهام للروح الفرنسية الحرة التي تحمل شعلة العلم والعمل.

كان للعمارة الألمانية كذلك دور مهم في حركة إحياء العمارة القوطية من خلال تراكيب جديدة تضم أسلوب الكلاسيكية الجديدة، بالإضافة إلى مواضيع وتقنيات قوطية[2].

سادت قراءة راسكن للقوطية منذ أواسط القرن التاسع عشر، وأصبحت هذه القراءة هي المنظور الذي يرى الآخرون القوطية بواسطته، وقد تجلى في كتاب

(1) Quatremere de Quincy, The True, the Fictive, and the Real: The Historical Dictionary of Architecture of Quatremere de Quincy, trans. Samir Younes (London: A. Papadakis, 1999) Quatremere de Quincy, Dictionnaire Historique d'Architecture (Paris: Librairie d'Adrien le Clere, 1832).

(2) Hubsch, In What Style Should we Build? the German Debate on Architectural Style: WD. Robson-Scott, The Literary Background of the Gothic Revival in Germany: A Chapter in the History of Taste (Oxford: Clarendon Press, 1965).

راسكن «حجارة فينيسيا The Stones of Venice» الذي يؤرخ فيه للعمارة في مدينة البندقية التي طالما كانت منفتحة على الشرق، وفيها نجد اندماجاً بين العمارة القوطية والإسلامية، ليظهر أسلوب مختلف تطور من خلال اتصال هذه المدينة بالعالم الإسلامي إما عن طريق الاحتلال، أو حتى بطريق التلاقح الثقافي عبر التبادل التجاري. ويستخدم راسكن في كتابه صوراً مختلفة لوصف هذه التركيبة المعمارية: «يبدو لهب البركان العربي واضحاً في سماء منطقة الشمال، وحتى بعد أن خمد هذا البركان، فلايزال أثره واضحاً في العمارة القوطية في هذا المكان»[1].

يُبدي راسكن بعض التعاطف مع التأثير الإسلامي في كتابه «حجارة فينيسيا»، إلا أن موقفه تغير بحلول عام 1850؛ لتصبح الأساليب المعمارية الإسلامية مجرد تفاصيل هامشية، وتتحول العمارة الإسلامية والقوطية إلى قطبين متنافرين بعد أن كانتا مندمجتين في كتابه «حجارة فينيسيا»[2]. ويبدو ذلك واضحاً في مناقشته موضوع الزخارف المعمارية حيث يقول:

> «كل تلك الزخارف الوحشية الفجة ظهرت نتيجة التأثر ببعض الأمم المتوحشة مثل الموريسكيين والهنود والصينيين والأيسلنديين وهكذا»[3].

وهكذا تتغير أفكار راسكن من إيمان بالحتمية الجغرافية، ومحاولات للتوفيق بين الأديان والمعتقدات إلى قطبية عنصرية واضحة؛ ولذلك فمن البدهي أن نعتبر

(1) «The Stones of Venice» in John Ruskin, The Works of John Ruskin, ed. Edward Tyas Cook (London: G. Allen, 1903), IX, 40.

(2) Crinson, Mark Crinson, Empire Building: Opentalism and Victorian Architecture (London: Routledge, 1996), 57.

(3) «On the Unity of Art,» The Two Paths in Ruskin, The Works of John Ruskin, XVI, 307.

قراءة راسكن لتاريخ البندقية في تحولها عن فضائل القرون الوسطى، وسقوطها في أحضان عصر النهضة وكأنها سيرة ذاتية لراسكن، إذ انتقل إلى البندقية بعد زواجه بفترة قصيرة، وقرر تأجيل إنجاب الأطفال حتى ينتهي من كتابه حول البندقية؛ لأنه كان يعتقد أن وجود الأطفال سيتعارض مع عمله، ولعل أفضل رصد لحياة راسكن وإسقاطه مخاوفه الخاصة على مدينة البندقية يظهر في كتاب ريتشارك إيلمان الذي يؤرخ فيه لحياة عدد من العظماء «Golden Codgers: Biographical Speculations» والذي يقارن فيه بين حياة راسكن الخاصة وقصة يوحنا المعمدان مع سالومي[1]، ويضيف أن راسكن يصب جام غضبه على مدينة البندقية في عصر النهضة، ويصورها بأنها مثل عاهرة بابل التي شوهت نقاء القرون الوسطى وارتمت في أحضان خطايا عصر النهضة، وبذلك تكون قد خانت الفضيلة وغدرت بذاتها الأولى. أما فيما يتعلق بالتأثير الشرقي في مشروع راسكن، فقد انعكست مخاوفه عليه بالضرورة، إذ ظهر بوضوح في كتاباته الأحدث ما بين عامي 1850 —1860 أن الشرق أصبح يمثل نموذجاً للغدر والخيانة والتدهور على العكس مما ظهر في كتابات راسكن الأولى، حيث كانت العلاقة بين العمارة القروسطية، والعمارة الشرقية مثالاً للإبداع والجمالية الفنية.

مثلت العمارة البيزنطية مشكلة خاصة بالنسبة إلى نقاد العصر الفكتوري؛ لأنه فن معماري مسيحي لكنه اكتسب صفة الآثارية، وهي صفة عززت معظم الأساليب الفنية الأخرى، غير أنها كانت صفة سلبية بالنسبة إلى العمارة البيزنطية، إذ إن الصورة التي رُسمت للفن المعماري البيزنطي تضعه في إطار الغموض، والجمود، وعدم التطور عبر العصور، وكأنه «شرقي» بصورة أو

(1) Richard Ellmann, Golden Codgers: Biographical Speculations (London: Oxford University Press, 1973).

أخرى حسب مفهوم القرن التاسع عشر للحضارة – الذي استخدمه ماركس وإنجلز كذلك في تعريفهما «الاستبداد الشرقي Oriental despotism» . وخلال القرن التاسع عشر، كان الفن المعماري البيزنطي يوصف بأنه تدهور تدريجي جرى بعد بناء المعلم المعماري المتمثل في كاتدرائية أيا صوفيا في مدينة إسطنبول، في حين وُصف الفن القوطي في المقابل بأنه يتمتع بالتنوع والتطور غير المحدود[1].

لا يخفى على أحد اهتمام راسكن بالعمارة البيزنطية، وبخاصة فيما يتعلق بوصفه لكاتدرائية سانت مارك، حيث يبدي عناية خاصة بعمارة هذا البناء من ناحية الأساليب المختلفة التي تظهر في هندسته، والتي انعكست في المواد المستخدمة، والموقع، والتصميم، والتفاصيل الأخرى. غير أن هذا الاهتمام كان خالياً تماماً من أي إشارات عنصرية كالتي ظهرت في كتابات راسكن ما بين عامي 1850 –1860، إذ كان يرى أن العمارة البيزنطية جزء لا يتجزأ من تطور العمارة القوطية، ويعزو ذلك إلى المرونة التي تميزت بها العمارة القوطية في التأقلم مع الظروف المستجدة، والأماكن المختلفة، وقد ظل هذا الرأي قائماً ومؤثراً في فنون العمارة وأساليبها لفترة متأخرة من القرن التاسع عشر.

انتشرت القوطية في معظم أرجاء الإمبراطورية البريطانية نظراً؛ لربطها بالهوية الإنجليزية من قبل المستعمر، وقاطني المستعمرات، بالإضافة إلى تبني جمعية كامدين، التي عُرفت لاحقاً بجمعية الإكسسيولوجين، هذا الأسلوب في العمارة، غير أن هذا الانتشار كانت له تداعيات مختلفة على بعض الفنانين والمعماريين، إذ تقول بيدك Biddick، إن مشكلة «الأصالة» ظلت قائمة حتى مع انتشار القوطية على نطاق واسع، فنحن نجد أن وليام موريس William

(1) David B. Brownlee, «Neugriechesch/Neo-Grec: The German Vocabulary of French Romantic Architecture, «Journal of the Society of Architectural Historians 50 (1991): 18-21.

Morris يرفض بيع أعماله لمشروع إحياء العمارة القوطية، لأن هذه العمارة تفتقد بشدة إلى الأصالة، لكن بيدك تترجم ردة فعل موريس بأنها مجرد حالة فزع في مواجهة الغرابة التي تتسم بها الزخرفة القوطية. وبالنسبة إلى موريس فإن الأصالة تتطلب وجود اللمسات القروسطية قبل كل شيء، وتشير بيدك إلى محاضرة ألقاها موريس عام 1881 وكرر فيها قناعاته بأهمية الحرفية القروسطية حيث يقول: «أنا على يقين أن جميع علوم العصر الحديث والأفكار والفلسفات الموجودة الآن لا يمكن أن تضاهي في مجملها حرفية وبراعة أي فلاح جاهل من بيركشاير أو راع هندي متجول بثياب رثة في القرن الرابع عشر».

يتمتع راسكن بتأثير كبير في فن العمارة؛ نظراً لأبحاثه العميقة حول القرون الوسطى والمقاربات وأساليب القياس والتمثيل التي يستخدمها للدفاع عن تلك الفترة المفضلة لديه، إذ إن مقاله الشهير «افتتاح القصر البلوري[1] The opening of the crystal palace» لم يظهر ترحيباً بالمعرض التجاري عام 1851، بل تعقيباً على نقل القصر البلوري إلى سايدنام حيث بقي حتى عام 1936 [2].

في الواقع، لم يكن موضوع القصر البلوري إلا أداة يستطيع راسكن من خلالها التعليق على العديد من الأعمال الفنية، وينتقل بعدها إلى وصف المعالم القوطية عموماً وبخاصة في فرنسا، حيث كانت تجري عمليات ترميم ضخمة لهذه المعالم. وقد كان راسكين يعترض على عمليات الترميم المفصلة لبعض الكنائس والمباني العامة، ومع أنه يظهر تقديراً واضحاً للعمل الجاد والحرفية الواضحة في ترميم مناطق مثل شارتر وروان في فرنسا، فقد كان ينتقد

---

(1) القصر البلوري Crystal Palace: هو مبنى ضخم من الفولاذ والزجاج أقيم بالأساس في حديقة هايد بارك في لندن؛ لاستضافة المعرض التجاري الضخم 1851، ثم نقل القصر بعد ذلك إلى بلدة سايدنام وبقي فيها حتى أتى عليه حريق ضخم عام 1936. (المترجم)

(2) John Ruskin, The Opening of the Crystal Palace Considered in Some of Its Relations to the Prospects of Art (New York: J.B. Alden, 1973).

محاولات الوصول بهذه المباني إلى الكمال وتحري الدقة المبالغ فيها، إذ يفضل راسكين الحالة الأصلية للمباني حتى لو كانت شبه مدمرة، فهي تعكس خبرة الأيدي التي شاركت في بنائها، وحالة سكانها الأوائل، أي ما كانت عليه القوطية فعلاً لا ما يجب أن تكون عليه، فهذه المباني حسب رأيه لا بد أن تحتفظ بأصالتها، حتى إن بقيت منها أجزاء بسيطة، إذ إن هذه الأجزاء البسيطة هي الشاهد الحي على عراقة هذه المباني، وجمال ماضيها، أما ما يحدث الآن فهو أشبه بمحاولات جراح ماهر يحاول تقليد وجه الماضي بحرفية ودقة، ولكن دون إضفاء روح حقيقية على الوجه الجديد.

يقارن راسكين بعض المعالم القوطية التي تم ترميمها بمعالم أخرى قديمة بقيت على حالها، مستخدماً لغة خطابه السابق حول وحشية العمارة القوطية، «يا لها من حقيقة مؤلمة، أن تصبح مهابة المباني القديمة، والأساليب المعمارية الأصلية عاملاً منفراً لمعظم الأوروبيين، يحاولون تجنبه أو تجميله» (مقالة افتتاح القصر البلوري، 15، وهكذا يضع راسكين القوطية الأصيلة الرصينة في مقابل القوطية الجديدة المرممة التي توفر المتعة للناظرين، إنها خطوة في مسيرة تحول القوطية إلى البروتستنتية خلال القرن التاسع عشر، ويختلف هذا عن وجهة نظر بوغين الذي كان يرى في القوطية تعبيراً عن الكاثوليكية الحقة.

يُظهر هذا الإحساس العميق بالازدراء نحو الترميمات، والتعديلات التي تجري على المباني القوطية شعوراً بأن للقوطية قوة جسدية مادية تحاول الترميمات الجديدة إخفاءها، وبالإضافة إلى ذلك، فإن راسكين يصل في نقده إلى التطور المدني، وأثره على حركة البناء والاستهلاك والتحولات المدنية الأخرى:

> «تنصب جهود الطبقة العليا في المجتمع الأوروبي على تحويل مناطق العالم إلى ما يشبه قصر الإليزيه في باريس قدر الإمكان... فنادق ضخمة وصفوف من المنازل الكبيرة

ذات النوافذ المربعة، التي تحجب كلها جمال المباني الأثرية القديمة في المدن الأوروبية المختلفة في فرنسا وإيطاليا، بينما تمتد المنتزهات الواسعة تتخللها النوافير والتماثيل المتناثرة هنا وهناك، أما الشوارع الرئيسية فتشق طريقها حيثما اتفق غير عابئة بتدمير معالم تاريخية مهمة، فالأهم أن تُظهر هذه المدن بهاءها وعظمتها الحديثة»[1].

ويستمر راسكن في إظهار حزنه على العمارة القوطية الأصيلة بتشبيهها بالرجل العاري الفقير، الذي يخجل الجميع منه، ويريدون إخفاءه عن العيون، ومع ذلك فهو أصيل، وصادق، ويحاول دائماً الصمود، ويستغيث بنا؛ لإنقاذه، ويصور راسكن كل ذلك بوصف دقيق مؤثر يحمل الكثير من العاطفة والانحياز:

«ماذا يحدث لو أن قاعة كبيرة في قلب لندن تستضيف حفلة عشاء راقصة مهيبة حيث يجتمع فيها القوم على موائد تحفل بألوان الطعام والشراب، ثم فجأة ينشق باب القاعة؛ لتدخل مجموعة من الجياع العراة، والبؤساء إلى هذا الحفل، ويرتمون على أرضية القاعة يستجدون بعض الفتات مما تجود به أيدي المحسنين، فهل يمكن أن نمنحهم نظرة عطف وشفقة؟»[2].

ويتعاطف راسكين هنا مع «جسد» القوطية الواهن الجائع، وبذلك يقلب الصورة السابقة حول القوطية بأنها وحشية، وغير إنسانية مؤسساً لبدايات نقد المدنية الحديثة.

لم تقتصر تبعات العلاقة بين الذاتية الذكورية في القرن التاسع عشر

(1) Ruskin, The Opening of the Crystal Palace, 10-11.

(2) Ruskin, The Opening of the Crystal Palace.

والرومانسية على حياة راكسين الخاصة وتوجهاته الفنية فقط، ففكرة عبء الرجل الأبيض، والعقبات التي واجهت بريطانيا في الحفاظ على الإمبراطورية الواسعة بما يتضمنه ذلك من خسائر عسكرية متلاحقة، كانت تنضوي تحت لواء السرد الطبيعي لفكرة معاناة حراس الكأس المقدسة[1] Holy Grail، ولاسيما أن فكرة الكأس المقدسة خرجت من إطارها الكاثوليكي الديني في النصف الثاني من القرن التاسع عشر؛ لتصبح نموذجاً للسلوك العسكري، والمدني في المستعمرات، وفيما بعد اندمج هذا النموذج مع نموذج الحروب الصليبية التي ظهر إخفاقها خارج أوروبا؛ ليشكلا معاً إطاراً لصورة الإنجليزي المعزول في الشرق.

وكما يقول بارسويسكي Barczewski: «لقد قدم نموذج البحث عن الكأس المقدسة صورة مزدوجة للثقافة البريطانية الإمبريالية في أواخر القرن التاسع عشر، جمعت بين ثقة عالية في النفس خارجياً، أما داخلياً فقد كانت ثقافة يمزقها الشك، وتزعزع اليقين»[2]، وظل هذا النموذج محتفظاً بقوته الإيديولوجية بالإضافة لدوره في تأسيس الذات، والذاكرة خلال الحرب العالمية الأولى كما يوضح فرانتزين Frantzen [3].

لقد كرس كتاب «أعمدة الحكمة السبعة» لمؤلفه تي إي لورنس T.E Lawrence، بالإضافة إلى شخصية لورنس التي أبرزتها وسائل الإعلام، وضخمتها كبطل رومانسي، صورة الغرب البطولية في محاولاته لقيادة الشرق

(1) الكأس المقدسة Holy Grail: وعاء مقدس استعمله المسيح في العشاء الأخير ويقال إن له قدرات إعجازية، وتطورت الفكرة بعد ذلك في الأدب لتصبح مغامرات البحث عن الكأس المقدسة من أهم مغامرات فرسان الملك آرثر. (المترجم)

(2) Barczewski, Myth and National Identity, 219.

(3) Allen J. Frantzen, « `Chivalry, Sacrifice and The Great War: The Medieval Contexts of Edward Burne Jones' <The Miracle of the Merciful Knight',» in Speaking Images Essays in Honor of V.A. Kolve (Asheville, NC.: Pegasus Press, 2001), 611-35.

وتحديد مصيره[1].

لكن هذه الشخصية البطولية الرومانسية أخفقت إخفاقاً ذريعاً، وهو ما صوره لورنس ذاته في سرده حول التضحيات التي قدمها، والصعوبات التي لقيها في أثناء رحلته في الشرق، ومحاولته تكوين الجيوش التي ستحارب؛ لتقرير مصيرها، غير أن جميع مخططاته فشلت تحت ضغط المخططات الإمبريالية البريطانية والفرنسية التي كانت تسعى؛ لاقتسام المنطقة، وهكذا يتحول لورنس إلى شخص مجهول في سلاح الجو، ويغير اسمه حتى لا يتعرف إليه أحد، متمثلاً في صورة بطل من أبطال التراجيديا المأساوية، لكن إرفنغ هاو Irving Howe يقرأ شخصية لورنس بأنها تمثل إخفاق البطولات في القرن العشرين، لكنها لا يمكن أن تقترب من فكرة البطولة إلا عبر الإخفاق في النهاية[2].

أما جون ماك، فيشير في عرضه المميز للسيرة الذاتية للورنس بأن حياة الأخير السرية، وعائلته غير الشرعية، التي طالما استخدمها أعداؤه للتعريض بآراءه السياسية، جعلت منه في الواقع ضحية لقوى سياسية كبرى، ودوافع داخلية متضاربة[3].

وبالنسبة إلى ردة الفعل العربية تجاه تاريخ لورنس في المنطقة، فكانت تؤكد دائماً استقلالية الجيوش العربية في تلك الفترة، وهامشية الدور الذي لعبه لورنس في توحيد العرب. وفي دراسات أخرى عربية، وغربية أُعتبر لورنس عميلاً مزدوجاً، لكنه خاضع للسلطات البريطانية، وفي كتاب «الاستشراق» يقارن سعيد بين لورنس في تعاطفه مع القضية العربية، والسير ريتشارد بيرتون

(1) T.E. Lawrence, Seven Pillars of Wisdom: A Triumph (London: J. Cape, 1935).

(2) Irving Howe, A World More Attractive: A View of Modern Literature and Politics (New York: Horizon Press, 1963), 1-40.

(3) John E. Mack, A Prince of Our Disorder: The Life of T.E. Lawrence (Boston: Little, Brown, 1976).

وانغماسه العميق في دراسة الإسلام، ويعتبر لورنس نموذجاً للعميل الذي يخدم مصالح السياسة الخارجية البريطانية، لكنه في الوقت ذاته يسعى وراء أحلامه الخاصة بالاستكشاف والمغامرة.

لم يظهر تأثير الفكتورية القروسطية على منظور لورنس، وأفكاره إلا مؤخراً، مع أن من المعروف أن خبرة لورنس كعالم آثار متخصص في الآثار، والقصور الصليبية كانت القاعدة التي انطلق منها؛ لتوسيع معرفته بالجغرافية العربية، وكذلك اللغة العربية التي كان يتقنها كأهلها. يتتبع إم دي آلان M. D. Allen في كتابه «القروسطية عند لورنس العرب The medievalism of Lawrence of Arabia» أصداء قراءات لورنس في القرون الوسطى من الملاحم، والكتابات الرومانسية إلى سير القديسين عبر كتابات لورنس الخاصة والعامة[1]، ويسطر آلان ملاحظاته، واستنتاجاته مع نموذج سعيد للشرق المُتخيل بانياً إياها من خلال قراءات سابقة بالإضافة إلى ملاحظاته حول قراءات لورنس، وهنا لا بد أن نضيف أن هناك بعداً أدائياً تمثيلياً للفكتورية القروسطية يملي على أتباعها أن يعيدو بناء القرون الوسطى كما يتخيلونها، وبالجمع بين الذكورية المسيحية، وصورة حراس الكأس المقدسة ينشأ لدينا نموذج غامض مُتخيل للبطولة يمثله لورنس. ومن هذا المنظور كان الشرق يمثل القرون الوسطى، أو على الأقل مسرحاً للصراعات القروسطية بين الشرق والغرب في أثناء الحروب الصليبية، على أمل أن تعاد كتابة هذا التاريخ في ضوء الملاحم القروسطية، غير أن ذلك لم يحدث كذلك.

يتخذ تاريخ دراسات الأدب القروسطي شكل الصراع بين الأسطورة والتاريخ، إذ كانت أقوى الدراسات خلال الربع الأخير من القرن المنصرم

(1) M.D. Allen, The Medievalism of Lawrence of Arabia (University Park, PA.: Pennsylvania State University Press, 1991).

تعتمد على مواقع تاريخية محددة في مقابل الدراسات التي تقوم على أفكار عاطفية خيالية عن القرون الوسطى. ومنذ بدايات الدراسات المنظمة للأدب القروسطي، كانت هذه الدراسات تؤطر إما تاريخياً، أو، أسطورياً وأحياناً كان الإطار يتسع للصورتين معاً، ولكن من المؤكد أن دراسة الأدب القروسطي بدأت بالفعل بدراسة الأساطير القروسطية، كما تزامن اختراع الرومانسية - إن صح التعبير- مع بدايات فكرة الأدب القروسطي، أو فكرة القروسطية في حد ذاتها.

يبدو ارتباط الرومانسية بالأسطورة واضحاً جداً في أدب القرن العشرين الحديث، وبخاصة في أعمال تي إس إليوت ومنها «الأرض اليباب The waste land»، وهنا نجد أن مفهوم ارتباط الاستشراق بالقرون الوسطى الذي أُقحم في السابق على الرومانسية لا يزال موجوداً في الأدب الحديث، حيث نجد لدى إليوت Eliot، وبوند Pound، وييتس Yeats تزامناً وارتباطاً بين موضوعي الاستشراق والقرون الوسطى، كما أن هذين الموضوعين يستخدمان لنقد الحاضر في قصيدة إليوت «الأرض اليباب».

تستند قصيدة الأرض اليباب على قراءة أنثروبولوجية لأسطورة الكأس المقدسة، لكن الكلمات الأخيرة في القصيدة كُتبت باللغة السنسكريتية، ولا عجب في ذلك، إذ إن إليوت مثله كمثل الكثير من المثقفين في القرن التاسع عشر تعلم اللغة السنسكريتية بالإضافة إلى اللغة اللاتينية والإغريقية، أما بالنسبة إلى بوند فقد كانت اللغة الصينية هي ما قدمه في شعره، وقد يكون لنظرية «الشكل المكاني - Spatial form» في أدب الحداثة علاقة بهذا الهوس بالقرون الوسطى، والشرق، وقد صاغ جوزيف فرانك Joseph Frank مفهوم «الشكل المكاني» في الأدب الحديث؛ ليصف حالة عودة الحداثيين إلى الأسطورة هروباً

من التاريخ[1]، إذ يقلب الحداثيون حدود الزمان والمكان، ويؤكدون البعد المكاني للغة بدلاً من بعدها الزمني الطبيعي، مما يخلق ردة زمنية بالعودة إلى الماضي بعيداً عن تعقيدات الحاضر وضوضائه، التي يرون فيها تشوشاً غير محتمل، وما استدعاء الماضي في صورة العصور الوسطى، والشرق إلا أحد جوانب هذه الردة الزمانية.

ولد هذا المدخل إلى الرومانسية في «مدرسة كامبردج»؛ لدراسة الدراما الإغريقية، التي ازدهرت في بدايات القرن العشرين، وتأثرت بدراسة فرايزر Frazer الشهيرة حول الأساطير والأديان: «الغصن الذهبي The Golden Bough»[2].

وقد قام هذا المشروع على أسس أنثروبولوجية من جهة، وطقوسية من جهة أخرى، وبرعاية آر إس لوميس R. S. Loomis ومعاونيه الذين عملوا بشكل أساسي على النصوص الآرثرية، وما يهمنا في مشروع لوميس بالنسبة إلى موضوعنا أنه استطاع التعبير عن أحلام الرومانسية والرومانسية الجديدة بأدوات الأكاديمية القروسطية الحرفية «إن التفكير في الرومانسية، القروسطية هو بمثابة النظر من خلال نافذة سحرية إلى بحر هائج محفوف بالمخاطر»[3].

تنبع أهمية لوميس جزئياً من كونه استطاع أن يرد معظم النصوص الآرثرية الرومانسية إلى أصولها وصولاً إلى الأسطورة السلتية[4]، فلم يسبقه الى ذلك أحد، إذ أرجع لوميس سلسلة التداعيات المحتملة إلى مصدرها بدلاً من

(1) Joseph Frank, «Spatial Form in Modern Literature,» in The Widening Gyre: Crisis and Mastery in Modern Literature (Bloomington: Indiana University Press, 1968), 3-25, 49-62.

(2) James Frazer, The Golden Bough: A Study in Comparative Religion (New York: Macmillan, 1894).

(3) Roger Sherman Loomis, Celtic Myth and Arthurian Romance, 1.

(4) Roger Sherman Loomis, ed., Arthurian Literature in the Middle Ages.

تجاهلها، مُصنفاً بذلك التداعيات الحرة للباحثين السابقين ضمن علم اللغة، والتاريخ الأدبي، وحاصراً الأسطورة السلتية في التراث الأدبي، ولتحقيق ذلك قام لوميس بتحرير عدد كبير من ترجمات النصوص القروسطية بما فيها نصوص لا تمت بصلة للآرثرية. وبالنسبة إلى لوميس، فإن قوة النص الأدبي سواءً كان رومانسياً أو غير ذلك، لا تكمن فقط في لغة النص؛ لذلك فقد جمع بين الأنثروبولوجيا والتاريخ الأدبي رغم جميع الانتقادات الموجهة إليه.

حرضت محاولات لوميس ورفاقه -في إرجاع النصوص الآثارية إلى جذور بريطانية- المؤسسة الآرثرية الفرنسية ضدهم، فقد كانت هذه المؤسسة تكافح من أجل تهميش الدراسات الآرثرية الأنجلو-أمريكية، غير أن ولع لوميس بقضية الأصول، والمصادر كان قد بدأ يخفت أيضاً بعد ظهور مدارس نقدية جديدة تهتم بالنصوص المنفردة دون الرجوع إلى أصولها، وتركز بحثها على الأثر الذي تتركه اللغة المستعملة في أشكال أدبية محددة مثل الرومانسية. بالنسبة إلى هدفنا من هذا البحث، فليس التعارض بين النظرية السلتية والنظرية الأوروبية هو الأساس، بل هو التعارض بين أحد أشكال نقد الأسطورة الذي ظهر لاحقاً ممثلاً في كتاب «الشعر الإنجليزي القروسطي Medieveal English Poetry» لمؤلفه جون سبيرز John Speirs، وسي إس لويس C.S. Lewis وهو مؤلف عدد من الروايات الأسطورية أو الرومانسية[1].

يحاول سبيرز أن يبعث نظرية فريزر الأنثروبولوجية ويعقلنها عبر تأكيد الهوية الإنجليزية، وتراثها، ولذلك فهو يعتقد أن شوسر Chaucer ارتبط بصورة أكبر بالقارة الأوروبية عموماً، وبالإبداع الأدبي الواعي، أما بقية الأعمال

(1) John Speirs, Medieval English Poetry: The Non-Chaucerian Tradition (London: Faber and Faber, 1957); C.S. Lewis, «The Anthropological Approach,» in English and Medieval Studies Presented to J.R.R. Tolkien, ed. Norman Davis (London: Allen, 1962), 219-30.

القروسطية فهي تمثل امتداداً للأسطورة فيما قبل المسيحية، ويعتبر أعمالاً مثل «سير غواين والفارس الأخضر Sir Gawain and the green knight» مجسدة لتلك الأساطير البدائية حول الصراع بين الشتاء والربيع مثلاً، ويقول سبيرز إن الصور الأسطورية في هذه الأعمال هي ما يمنح اللغة القوة التي نستشعرها عند قراءتها، ويضيف سبيرز أن أعمال لوميس والآخرين لها أهمية خاصة، ولكنها لا تمثل نقداً أدبياً. أما سي إس لويس C.S Lewis فيتطرق في بداية مقاله النقدي إلى لوميس، غير أنه يصب اهتمامه على سبيرز ومحاولاته تأطير الأدب القروسطي داخل إطار الوثنية، إلاّ أن هذا الهجوم لم يكن يستند إلى أهمية اللغة الأدبية في الاتجاهات النقدية الحديثة، وإنما على طبيعة الرومانسية كجنس أدبي يقدمه المؤلفون لقراء يتجاوبون مباشرة مع قوة السرد:

> «يخلق كُتَّاب الرومانسية عالماً غريباً، يحتمل كل شيء فيه تفسيرات مختلفة، ويحمل أبعاداً تاريخياً لا يتوقعها الفارس الشارد في عالم مليء بالغابات الممتدة، والرموز التي عليه تفسيرها، والتنبؤات التي تواجهه في كل مكان. في هذا العالم، على الرجل أن يرتدي درعه دائماً في مواجهة المخاطر، وعليه أن يكون حاضراً للنزال في أي لحظة، فقد تتحول السيدة الجميلة أمامه إلى وحش مخيف، وقد تخفي القلاع خلفها أسراراً لا يعرفها، وهو ما يراه القراء حتى الآن عالماً مثيراً ونبيلاً مليئاً بالغموض والتحديات، ومع ذلك فهناك نوع آخر من القراء يظهر الآن لا يستمتع بهذا النوع من الأدب ولا يقبل به»[1].

يبدو وصف لويس ممتعاً جداً، لكنه في الحقيقة يخفي بعداً مختلفاً، فهو

(1) Lewis, «The Anthropological approach» 129.

يدافع ظاهرياً عن الرومانسية، لكنه يشير ضمنياً إلى أن القارئ الحديث (ممثلاً في سبيرز) لا يستطيع أن يستجيب لعقيدة لم تعد موجود، ولذلك فلا بد أن يستدعي مرجعية قديمة؛ لتوضيح ما هو موجود وواضح أصلاً، غير أن ما يراه لويس موجوداً وواضحاً هو بالفعل العالم الأسطوري للرومانسية، وما يعترض عليه لويس أن سبيرز يحاول أسطرة ما هو أسطوري وسحري سلفاً. وهكذا تتحول دراسة الرومانسية القروسطية من الجدل حول علاقة التاريخ بالأسطورة إلى علاقة الأسطورة بالأسطورة.

لم ينج هذا الجدل بالطبع من محاولات تسييس الأساطير، والطقوس، والفلكلور في العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين، فالدراسات الفلكلورية كانت دائماً شديدة الارتباط بالاتجاهات اليسارية واليمينية على حد سواء، وأحياناً كانت الدراسات الأنثروبولوجية تنحاز إلى الداروينية الاشتراكية في بدايات القرن العشرين. أما الأبحاث الرسمية النازية، فقد استخدمت الخطاب الأسطوري المسيّس لخدمة أغراضها، لدرجة أن مناصري الأسطورة الليبراليين اضطروا إلى الوقوف في موقف الدفاع، كما ثارت عدة تساؤلات في هيئة تحرير دورية «أنال Annales» الفرنسية الشهيرة، حول نشر عدد من الأبحاث المتعلقة بالثقافة الشعبية، الذي قد يُؤخذ على الدورية كنوع من العمالة والتعاون مع النازية[1].

وعموماً لم تنتعش الدراسات الأسطورية، والفلكلورية، والأنثروبولوجية بعد الحرب العالمية الثانية إلا عقب حركة تطهير شاملة لهذه المؤسسة، لتحرير الدراسات النقدية الأسطورية من عبء السياسة الثقيل.

تُعد دراسة نورثروب فراي: «تشريح النقد Anatomy of Cristicism» من أهم الدراسات حول طبيعة الأدب الرومانسي في القرن العشرين، وقد أسهمت

(1) Traian Stoianovich, French Historical Method: The Annales Paradigm.

في رفع مرتبة الأدب الرومانسي، ليصبح موازياً للرواية أو الأدب الواقعي:

«يعد الأدب الرومانسي أقرب الأشكال الأدبية للأحلام الفردية، ولذلك فإن هذا الأدب يلعب دورين متناقضين في المجتمع، ففي كل عصر تحاول الطبقة الحاكمة أو المثقفة أن تسقط أفكارها بشكل من أشكال الرومانسية، فالفرسان يمثلون الفضيلة والأفكار المثالية، بينما يمثل الأشرار المخاطر والصعوبات التي يواجهها هؤلاء الأبطال الفرسان، وتلك هي الصورة العامة للرومانسية الفروسية في القرون الوسطى، والرومانسية الأرستقراطية في عصر النهضة، والرومانسية البرجوازية منذ القرن الثامن عشر والرومانسية الثورية في روسيا المعاصرة، ومع ذلك فهناك عامل بروليتاري حقيقي في الرومانسية لم يتم تجسيده بعد، ومهما كان التغيير الحاصل في المجتمع كبيراً، فإن الرومانسية لا بد أن تُطل برأسها من جديد، باحثة عن جوانب جديدة تتغذى عليها؛ لأن الصفات الطفولية المصاحبة للرومانسية والمتمثلة في الحنين والبحث الدائم عن زمن ذهبي مُتخيل ستبقى حاضرة دائماً، وحسب علمي لم يكن هناك أي عصر محدد للأدب الإنجليزي القوطي، ومع ذلك فإن حركة إحياء القوطية امتدت فترة تاريخية طويلة منذ عصر بايولف Beowulf حتى يومنا هذا»[1].

لا يمكن لأحد أن يتهم فراي بالسذاجة أو السطحية، ومع ذلك فإن الصورة التي يرسمها للقرون الوسطى في مقاله تُظهر شيئاً منهما، إذ ينتهي فراي في

(1) Northrop Frye, Anatomy of Criticism: Four Essays (Princeton: Princeton University Press, 1957), 191.

كتابه الرائع هذا إلى تكوين صيغة عامة للرومانسية دون الاهتمام بالنماذج الخاصة داخل هذه الصبغة، وقد يكون ذلك مقبولاً في الأسلوب النقدي عموماً، لكن فراي يبدو مهتماً بتحديد رومانسية خاصة وخارقة تكون نموذجاً يحتذى لدى كتاب الرومانسية، ويظهر هذا التوجه بوضوح في أعماله اللاحقة، فبينما ينتقد فراي بشدة وهم إحياء القوطية بما فيه من حنين إلى شكل أدبي مثالي لم يوجد إلا في النصوص القوطية، يصل هو ذاته إلى بناء وهم مماثل حين يعترف بالمكونات الاجتماعية للرومانسية واعياً أبعادها، لكنه ينتقل فجأة في نقده إلى المثالية الرومانسية المتدفقة دائماً[1]. وبذلك يحاكي عمل فراي الشكل الرومانسي ذاته من ناحية الانتقال من مغامرة إلى أخرى دون تحديد واضح للعلاقة بين كلِّ تلك المغامرات.

هناك جانب إيجابي على الأقل لاحتفاء فراي بالأسطورة في كتابه «تشريح النقد»، وهو أن هذا الاحتفاء يحرر نقد الأسطورة من تداعياته السياسية والاجتماعية، وقد نجح فراي في ذلك؛ لاعتماده على الارتباط التقليدي بين الرومانسية والأسطورة، فعندما يدافع عن الرومانسية كشكل أدبي مهم، فإنه يحرر نقد الأسطورة؛ لتصبح الرومانسية وما فيها من أساطير إحدى ركائز الموضوعات النقدية في خمسينيات القرن العشرين وستينياته، بتزامن مع إعلان المفكرين والسياسيين في أمريكا الشمالية انتهاء الإيديولوجيا.

انصبت الجهود في السنوات القليلة الماضية على إعادة قروسطية القرون الوسطى، وذلك باستبدال المفهوم الرومانسي الثابت للماضي القروسطي بمفهوم أكثر ديناميكية وتعقيداً. كما تتضمن هذه الجهود تحرير الرومانسية من أسطوريتها ورومانسيتها، وقد ظهرت صورة الرومانسية القروسطية المتحررة من الأسطورة في عدد من الكتب المهمة مؤخراً مثل «الرومانسية المعزولة

(1) William Empson, Some Versions of Pastoral (London: Chatto & Windus,1935).

Insular Romance» من تأليف سوزان كرين Suzan Crane، وكتاب «الأسلوبية والسرد البنيوي في الرومانسية الإنجليزية في القرون الوسطى Stylistic and Narrative Structures in Middle English Romances»[1] للمؤلفة سوزان ويتيغ.

تضع كرين الرومانسية الإنجليزية القروسطية ضمن إطار سياسي وثقافي إنجليزي محدد، أما ويتيغ فتنظر إلى الأنماط الرومانسية التقليدية الإنجليزية في القرون الوسطى أنها جزء من شيفرة ثقافية خاصة، لكنهما لا تدافعان عن الرومانسية بوصفها شكلاً أدبياً متفوقاً كما فعل فراي أو لويس، بل إنهما تقدمان نسخة جديدة للرومانسية القروسطية في إطارها التاريخي ضمن رؤية تفكيكية أعم وأشمل.

تقول كرين في كتابها: «حتى لو كانت الطرق التي يتقاطع بها الأدب مع التاريخ مبهمة وغير واضحة، وحتى لو بدا لنا الماضي بعيد المنال، ولا نستطيع الولوج إليه إلا بصعوبة، فإن الجهود المبذولة لإعادة ربط الأدب بالتاريخ هي جهود ضرورية، وحيوية بالنسبة إلى أولئك الذين يعتقدون أن النصوص الأدبية هي نوع من التواصل الاجتماعي، الذي لعب دوراً أساسياً في حياة قراء تلك النصوص إبان ذلك الوقت»[2]. أما لي باترسون Lee Patterson فيخصص ثلاثة فصول في كتابه «محاورة الماضي Negotiating the past» للحديث عن الرومانسية، ويشير إلى «الخصوصية النقدية التأريخية لحقبة القرون الوسطى،

(1) Susan Crane, Insular Romance: Politics, Faith, and Culture in Anglo-Norman and Middle English Literature (Berkeley: University of California Press, 1986); Susan Wittig, Stylistic and Narrative Structures in the Middle English Romances (Austin: University of Texas Press, 1978).

(2) Crane, Insular Romance, 1-3.

التي تختلف عن تأريخ أي حقبة أخرى»[1].

قد يحار النقاد المتخصصون في فترات زمنية غير القرون الوسطى في هذا النوع من النقد الذاتي، إذ يرون أن الدراسات القروسطية تاريخية بطبيعتها، وهذه هي النقطة التي يناقشها باترسون بالضبط، إذ إن معظم المدافعين عن الرومانسية التقليدية سواءً كانوا باحثين، أو طلاباً، أو قراء يحملون مفهوماً ضمنياً للرومانسية والأدب القروسطي عموماً، وهو مفهوم يضع الرومانسية خارج سياق التاريخ ويجذب القراء للرومانسية بالأساس، غير أن هذا التصور الساذج للرومانسية يثير قلق القروسطين الجدد الذين يخشون أن يؤدي ذلك إلى طرح الأدب القروسطي خارج مجال الدراسات المنهجية المنظمة.

لقد أصبح من المتعذر الحديث عن «قرون وسطى موحدة» أو حتى «قرون وسطى لاحقة» في ظل ما طرحه هيغل[2] وبشكل أكبر ما طرحه بوركهات[3]، إذ عالجت الدراسات التاريخية تاريخ أوروبا الحديث بشكل مختلف، وقدمت تصوراً آخر لما نسميه القرون الوسطى وعصر النهضة. كما قدمت دراسات مجلة آنال الفرنسية التاريخية تصوراً مختلفاً للتغيير التاريخي الذي حدث بوصفه تغييراً تدريجياً وليس مفاجئاً، وحتى التغييرات المفاجئة والسريعة كانت نتيجة تفاعلات اجتماعية، وثقافية لمدة طويلة، لكن هذا التحول في المفاهيم والتصورات التاريخية يبدو شائعاً في تاريخ المجتمعات، والأشكال الثقافية المتعددة، أما التاريخ الأدبي عموماً، وتاريخ النقد الأدبي خصوصاً فقد كان للرومانسية القروسطية فيهما مكانة مميزة، ذلك أن تقديس الرومانسية

(1) Lee Patterson, Negotiating the Past the Historical Understanding of Medieval Literature (Madison,Wis.: University of Wisconsin Press, 1987).

(2) هيغل: فيلسوف ألماني ولد عام 1770 وأحد مؤسسي الفلسفة المثالية في ألمانيا. (المترجم)

(3) بوركهارت: مؤرخ سويسري معروف ولد عام 1818 في سويسرا، اهتم بشكل خاص بتأريخ عصر النهضة، ومن أهم أعماله «حضارة عصر النهضة في إيطاليا». (المترجم)

القروسطية التي تزامنت مع بدايات الأدب الرومانسي أمر لا يمكن فصله عن التوجهات النقدية للرومانسية، ومنها: تأسيس تاريخ أدبي وطني، وتكريس صورة الشاعر الرومانسي البطل والفارس، وإظهار جمالية الفترات التاريخية البدائية مقارنة بالفترات الكلاسيكية، والكلاسيكية الجديدة.

تواصل تأثير الرومانسية فيما بعد؛ ليصل إلى الرومانسية الحسية لاحقاً، بما فيها من جوانب خارقة وماورائية، وكلها جوانب تعود أصولها إلى الرومانسية القروسطية، وحتى الأدب الحديث فإنه لا يعدو أن يكون امتداداً للرومانسية، بل إن ثقافتنا ذاتها تنبع من إعجابنا بالرومانسية[1].

إن مفهوم العمل الأدبي المحاط بهالة من الجاذبية، التي تجعل منه خطاباً مختلفاً عن أنواع الكتابة الأخرى، هو جزء أساسي من تراث الرومانسية الحديثة تطور عن مفهوم السحر والفتنة في الرومانسية القروسطية. هناك بالطبع أساليب واتجاهات أخرى في الأدب الحديث لا تعود أصولها إلى الرومانسية، غير أن الرومانسية القروسطية كانت هي، الوسيلة التي تم من خلالها تشكيل كل هذه الأساليب، والاتجاهات لتكوين النسق الجمالي للأدب.

وهكذا يتضح أن محاولات تحرير الرومانسية من سحرها في الدراسات النقدية الحديثة المتعلقة بالرومانسية القروسطية اتخذت بعداً أعمق من مجرد الفهم الشامل للسياق التاريخي للرومانسية، وعلاقتها بالكتابات القروسطية الأخرى، وربما يُنظر إليها كجزء من سؤال أكبر حول فكرة الأدب ذاته، وهل يختلف الخطاب الأدبي بشكل جوهري عن أشكال الخطاب الأخرى.

يشير وجود عدد كبير من النصوص القروسطية، ومن ضمنها النصوص الرومانسية إلى أن تميز الخطاب الأدبي دون غيره لم يكن موجوداً في القرون

(1) Jean-Pierre Mileur, The Critical Romance: The Critic as Reader, Writer, Hero (Madison, WI.: University of Wisconsin Press, 1990).

الوسطى، أو أنه لم يكن قد تشكل بصورة واضحة بعد، وهنا قد نعود إلى فكرة ما قبل الأدب، ولكن من ناحية أخرى نجد أن الدراسات الثقافية الحديثة تحدد ماهية الخطاب الأدبي، وماهية النص، والسرد الضمني، وغيرها من مميزات النص الأدبي. إن هذه الهيمنة الإمبريالية على ماهية النص الأدبي تُذكرنا بالدوافع الأولى لتعريف الرومانسية القروسطية أنها نوع من أنواع الأسطورة.

وفي الوقت ذاته، عادت النظرية الغروتسكية إلى الوجود في الأدب القروسطي على وقع أعمال إم إم باختين M.M. Bakthtin، التي ترجمت إلى الإنجليزية أواخر الستينيات؛ لتنتقل بالثقافة القروسطية عموماً والأدب القروسطي خاصة من موقعهما الهامشي إلى قلب الدراسات الأكاديمية[1]، فقد لقيت الصورة الغروتسكية للأدب القروسطي، التي تُظهره بصورة همجية ووحشية رواجاً واسعاً لدى الباحثين، وهي الصورة ذاتها التي قدمها باختين، واعتبرها جانباً عاماً من جوانب الأدب القروسطي في مماثلة تاريخية أدبية لما قدمه تولكين Tolkien في بحثه حول بايولف. غير أن الاحتفاء بهذه الصورة الجديدة للأدب القروسطي لم يخل من العقبات، كإتاحة المجال إلى عودة بعض الفرضيات التي لاحقت الدراسات الأدبية القروسطية طويلاً ومنذ نشأتها، وقد كان وراءها أصحاب المدرسة الرومانسية، وتظهر هذه التناقضات بوضوح في تاريخ الأدب القروسطي من جهة، وفي العمارة القروسطية من جهة أخرى كما أسلفنا، لكنها تطفو على السطح من جديد بطريقة مختلفة لدى باختين.

لقد تتبعنا تماثلاً مختلفاً عن التصنيف المرتبط عادة بالغروتسكية، وعلى سبيل المثال نجد في دراسة كايسر Kayser أن الغروتسكية تتطابق وتتنافر في الآن ذاته مع العظمة والسمو[2]، وهذه بالطبع هي القطبية الرومانسية التي تُعرّف

(1) M.M. Bakhtin, Rabelais and His World (Cambridge, MA.: MIT Press, 1968) .

(2) Wolfgang Kayser, The Grotesque in Art and Literature (Bloomington: Indiana University Press, 1963).

القروسطية بما فيها من تناقض، فلا يكتمل الجمال إلا بوجود لمحات القبح، كما لا تكتمل الصورة المهيبة للكاتدرائية العظيمة إلا بوجود الميزاب الناتئ على سطحها. ويقدم كايسر شرحاً إيتومولوجياً لأصول مصطلح الغروتسكية، وكيف تحول من مصطلح تقني معماري يدل على الحواف المزخرفة في البناء إلى مصطلح أدبي ظهر للمرة الأولى في أعمال مونتين Montaigne، وهو أحد أهم الكتاب الفرنسيين في عصر النهضة. والتصور الذي يقدمه كايسر، هو بالضبط ما يستهدفه باختين في بحثه المعنون «رابيليه وعالمه Rabelais and his world»، الذي يعيد فيه تشكيل مفهوم الغروتسكية كما نعرفه الآن، وإليه يعود الفضل في إعادة قراءتنا الأدب القروسطي، لكنني أريد هنا أن ألقي الضوء على موضوع آخر له علاقة بالغروتسكية، تسبب في بعض التشويش حول فهمنا لها زمناً طويلاً[1].

هذا الموضوع الشائك هو القرون الوسطى عند باختين. وقد يَعجب بعضهم من طرحنا هذا الموضوع بعد أن قلنا سابقاً أن باختين له فضل كبير في فهمنا للأدب القروسطي، لكنني أقول الآن إن صورة القرون الوسطى لدى باختين تبدو ضبابية في كثير من الأحيان، ويكتنفها الغموض، وتحوي كثيراً من التناقضات التاريخية والجغرافية والثقافية.

تختلف القرون الوسطى لدى باختين في أوروبا الشرقية عنها في أوروبا الغربية فضلاً عما هي عليه في أوروبا الوسطى، وتلك نقطة سنعود إلى التعليق عليها فيما بعد، أما تعريف باختين للقرون الوسطى فلم يكن دقيقاً من الناحية التاريخية، وربما لم يكن ذلك هدف باختين بالأساس، إذ يبدو أنه وضع تعريفاً أراد من ورائه فتح حوارية جديدة للرد على التعريفات السابقة للقرون الوسطى،

(1) John M. Ganim, Chaucerian Theatricality (Princeton: Princeton University Press, 1990).

التي لم تكن تأخذ بعين الاعتبار القوى المتجاذبة الموجودة في تلك الفترة.

لم تكن القرون الوسطى بالنسبة إلى باختين فترة زمانية، بل حيزاً مكانياً يمكن التعبير عنه بأشكال معمارية أو مدنية مختلفة، فهي إذاً معرَّفة بأدلة مجسدة تربط بين ما هو ماثل الآن وما كان. ويتشابه مفهوم باختين للقرون الوسطى مع مفهومه للغة، فالأخيرة لديه تتكون بين نقاط ثابتة تمثل الأصل والمراد إيصاله، ثم تتغير بين هاتين النقطتين تبعاً لما يحدث في الفضاء الموجود بينهما، وهكذا فإن الأداء النهائي لا يقتصر على اللغة فقط، وإنما تشمله وتجسده كذلك إيماءات ورموز ودلائل.

تبدو المدينة القروسطية بالنسبة إلى باختين خلاف أي مدينة قروسطية أخرى في التاريخ، بل تبدو كأنها مدينة خيالية لم توجد على أرض الواقع، فهي مدينة تمثل جغرافية الثقافة، يصفها باختين بلغة الطبقة الاجتماعية، ولها قيمة مختلفة في كتاباته قبل «رابيليه وعالمه»[1]، ففي كتاباته الأولى يعرف باختين الميتروبوليتانية Metropotilan والكوزموبوليتانية Cosmopolitan ضمن المشهد السكندري (نسبة للإسكندر المقدوني)، أنها اختلاط الشرق والغرب؛ أي اختلاط اللغات والأعراق والثقافات.

وقد تبدو هذه الدعوة للتعددية الثقافية مثيرة للاهتمام لولا أن جذورها تغوص في قضية سياسية خالصة لمعارضة الحركة القومية السلافية، التي ظهرت في القرن التاسع عشر في أوروبا الشرقية، مؤكدة وحدة الشعوب السلافية عبر ثقافتها المشتركة. ومع أن باختين يتحدث عن القرية، والمدينة القروسطية بوصفهما مسرحاً للإنتاج الثقافي، فالحقيقة أنهما موجودتان فقط في الإنتاج الثقافي وما يتبعه من تراكم نقدي دوري، كما يحدث في المهرجانات أو

(1) The Dialogic Imagination, ed. Michael Holquist and trans. Carly Emerson and Michael Holquist (Austin: University of Texas Press, 1981).

المعارض، وعندها تتحول المدينة القروسطية إلى ما يشبه المدينة الهيلنستية (فخر الحضارة الهيلنستية التي تمثل ذروة النفوذ اليوناني في العالم القديم، وحسب المصطلحات الأنثروبولوجية في القرن التاسع عشر التي استعملها ماركس وإنجلز، فإن باختين يصور لنا القرون الوسطى أنها عاصمة التجمع الآسيوي.

شهدت فترة نهاية القرن التاسع عشر، وهي فترة الذروة الكولونيالية بالنسبة إلى دول أوروبا الغربية، تصاعد إشكالية مفهوم الفلكلور الوطني. ففي فرنسا تمت مأسسة الدراسات القروسطية ضمن برنامج وطني أواخر القرن التاسع عشر، غير أن هذا البرنامج استثنى تماماً الآثارية البريطانية والفلكلور القروسطي البريطاني، مطوراً برنامجه التاريخي المستقل، وعندما كانت الحاجة تستدعي منظوراً أنثروبولوجيا لتفسير غرابة الآخرية الناتجة عن وجود الإمبراطورية، كانت تلك الآخرية تُعْزَى إلى التقاليد المحلية للمستعمر ذاته.

وقد عززت هذه العملية نوعاً ما – وبطريقة لا منهجية– آثارية القرن الثامن عشر التي كانت مرتبطة بالشرق، وغرائبية العالم البدائي عموماً، وهنا يمكن أن نقيم الحجة بأن بيرسي Percy وهارد Hurd ووارتن Warton اخترعوا قروناً وسطى خاصة تمثل الماضي الوطني للأمة، لكنها تتمتع بالاختلاف والتنوع في الآن ذاته.

هناك أيضاً سياق آخر لأفكار باختين يتعلق بروسيا وأوروبا الشرقية، ففي نهاية القرن التاسع عشر، وبينما كانت الطبقة الأرستقراطية تحاول تقليد الرومانسية القروسطية الجديدة الممثلة في القوطية الفرنسية والألمانية والإنجليزية، كانت طبقة الإنتلجنسيا لا تضع الرومانسية القروسطية ضمن أولوياتها في المجتمع الإقطاعي الموجود حولها، بل اتخذت القروسطية شكل هوية الكنيسة الأرثوذكسية من جهة، والفلكلور السلافي المحافظ من جهة أخرى.

كانت صورة الهوية الروسية تعاني دوماً من توق لحداثة غير مكتملة، وهو شعور رافق الثقافة الروسية منذ البداية، وكان الدافع وراء البرامج السياسية المختلفة منذ عهد بطرس الأكبر حتى عهد غورباتشوف. ومع ذلك، فإن تلك الحداثة غير المكتملة هي، تجربة حداثية في حد ذاتها لها شواهدها على الأرض من خطوط السكك الحديدية التي عبرت البلاد من أقصاها إلى أقصاها، وأعمدة التلغراف التي ارتفعت في كل مكان، في مفارقة واضحة بين الماضي والحاضر. يحتفي كرنفال باختين بهذه المفارقة عبر إعادة تفكيكها بقوله: إن اكتمال الحداثة يتطلب نظاماً خاصاً، غير أن مستقبل هذا النظام تهدمه ما قبل حداثة الكرنفال، وكما يقول موريس في كتابه «أخبار من اللامكان»: إن القرون الوسطى هي المستقبل، غير أن باختين يسخر من هذه الفكرة المثالية، ويؤكد استحالة وجود حداثة مكتملة، أما الكرنفال فهو الماضي المقموع، والمستقبل الثوري ضمن القرون الوسطى من جهة، أما إذا انتزع هذا الكرنفال من سياق القرون الوسطى، فإنه يتحول إلى ممثل للقروسطية في الحاضر من جهة أخرى. وهكذا فإن الغروتسكية لدى باختين تسير ضمن التراث المعروف باعتبار القروسطية نقداً للحداثة.

يقدم مارشال بيرمان Marshall Berman وصفاً مهماً لتجربة الحداثة في كتابه «كل ما هو متماسك يتبخر في الهواء: تجربة الحداثة All that is Solid Melts Into Air: The Experience of Modernity»[1]، فهو يعد التحول الدائم الذي يتخلله التمدن، وبناء المجتمع الصناعي والاقتصاد الرأسمالي، هو النموذج الأول لتعريف تجربة الحداثة، ومع ذلك فلا يمكننا الفصل بين هذه الخطوة، وحالة الحنين المجتمعية نحو مجتمع اشتراكي مُتخيل تمثله القرون

(1) Marshall Berman, All That is Solid Melts Into Air: The Experience of Modernity (New York: Simon and Schuster, 1982).

الوسطى عادة. أما سي إس لويس، فيؤكد أن الفرق بين القرون الوسطى والعالم الحديث يتجلى بحلول الثورة الصناعية وما صاحبها من افتراض أن كل شيء مؤقت ويمكن استبداله سريعاً[1].

يتضح لنا أنه في عدد كبير من الفرضيات المتعلقة بالقرون الوسطى راديكالية كانت أو تقليدية، فإنها تطرح جميعاً قضية أزلية القرون الوسطى في مقابل التغيير المستمر في الحداثة. يمكننا أن ننظر إلى قروسطية باختين كذلك من خلال إطار الدراسات القروسطية الروسية، ولاسيما السوفيتية منها، إذ أكدت الرواية الرسمية السوفيتية حول العهد الإقطاعي منذ الثلاثينيات استبعاد التاريخ الاجتماعي، والتشديد فقط على الحالة الفلاحية[2]، غير أن الفترة التي سبقت الثورة وتبعتها مباشرة شهدت محاولات نقدية أدبية لاستخدام أدوات تاريخية للتنبؤ بالتطورات اللاحقة، فقد عمل عدد من الباحثين بطرق جديدة تستلهم منهجية مجلة أنال للدراسات التاريخية، لتعريف العقلية السائدة في تلك الفترة، غير أن هذه الطرق والمنهجيات ظلت تراوح مكانها طوال الفترة ما بين الثلاثينيات والستينيات من القرن العشرين حتى وصول خرتشوف إلى الحكم في الاتحاد السوفيتي، حين عادت تلك الطرق لتزدهر من جديد، وهنا بدأت مدرسة تارتو Tartu السيميائية بتثبيت أقدامها كذلك.

ومع أن سيميائية تارتو تختلف مع باختين في بعض كتاباته حول اللغويات، فإنها واصلت ما بدأه باختين في أبحاثه، وانضم إليها كذلك أعظم الباحثين القروسطيين الروس آرون غورفيتش Aron Gurevich على الرغم من أن أفكار

(1) C.S. Lewis, «De Descriptione Temporum,» in They Asked for a Paper: Papers and Addresses (London: G. Bles, 1962), 11.

(2) Fate of Medieval Studies in the Soviet Era,» American Historical Review (1992): 803-16.

آرون حول القروسطية كانت أقل صداماً من أفكار باختين[1].

في النهاية، لا بد أن نعترف بأن خير استفادة من أفكار باختين، لا تتأتى بالضرورة من تطبيقها تطبيقاً مباشراً على النصوص الأدبية، وإنما من استلهام نظرياته وتطبيقاتها في مجالات التاريخ والأنثروبولوجيا والدراسات الكولونيالية وما بعدها، لكننا نأمل أن يكون التحليل الذي عرضناه مفيداً في بعض جوانبه؛ لإلقاء بعض الضوء على صورة القرون الوسطى لدى باختين وموقفه النظري منها، الذي يفتح آفاقاً جديدة ربما لم تكن مستكشفة بعد في هذا المجال.

(1) Aron Gurevich, Categories of Medieval Culture (London: Routledge & Kegan Paul, 1985); Gurevich, Historical Anthropology of the Middle Ages; Gurevich, Medieval Popular Culture.

الفصل الثاني

القرون الوسطى: الأصول والأنساب، أو الشرق الأبيض

ماذا أرى؟ البريطاني والساكسوني والروماني والنورماندي، ينصهرون جميعاً في أتون واحد، أمة واحدة هي الأمة الإنجليزية، حيث يتوحد الكنعانيون والعبرانيون –بعد تفرقهم وتشتتهم في أثنتي عشرة قبيلة– مع المصريين، تذروهم الرياح من جهات الكون الأربع.

وليام بليك، قصيدة القدس.

يتعرض هذا الفصل إلى منحى خاص في الخطاب القروسطي المرتبط بالشرق، فمع بزوغ العلوم الإنسانية بدأت الشكوك تثار حول أسطورة طروادة، وعلاقتها بأصول الأمة البريطانية كما سجلها جيفري مونماوث Geoffrey of Monmouth. ومع قيام البرلمانات وما يثار فيها من جدل حول أمور الحكم، بدأ الجدل يتصاعد حول ربط الفروسية بأصول طروادية، بالإضافة إلى تقصي أصول السلالات الملكية الحاكمة في بريطانيا، وأوروبا عموماً، وكانت النتيجة إعادة النظر في أسطورة البطل الطروادي بروت Brut، الذي كان أول حاكم لبريطانيا، وربط تلك الأسطورة بأصول دينية إنجيلية. ومع ذلك، فإن الارتباط بين أصول الثقافة البريطانية، والمصادر الشرقية يبقى قوياً حتى ضمن هذا السياق التاريخي، فقد كانت جميع جوانب القروسطية السياسية، والدينية، والفنية محل جدل كبير، وتحولت القرون الوسطى في هذه النسخة الجديدة من التاريخ البريطاني الحديث المتقدم إلى مجرد وعاء يحوي معتقدات، وأفكاراً بدائية تم استيرادها من مكان آخر.

تظهر نظريات الأصول الشرقية في الكتابات القروسطية ذاتها، أما أهم النظريات حول الأصول البريطانية في الأدب الرومانسي الآرثري مثل نظريات جيفري، حول الأصول الطروادية للثقافة البريطانية والأرستقراطية، فقد ظهرت في الحضارة القروسطية كترجمة جغرافية، حيث مَشرقت القرون الوسطى ماضيها بنفسها.

يلعب التأثير الشرقي والإفريقي دوراً مهماً في مؤلفات جيفري مونماوث، التي تعد المصدر الأول للأسطورة الآرثرية، وما تلتها من مراحل التاريخ البريطاني، فعلى سبيل المثال نجد في تاريخ جيفري (HistoriaVIII:10−21) أن عمالقةً هم من نقل صخور ستونهنج من إفريقيا إلى بريطانيا، وتوقفوا في طريقهم في إيرلندا[1]، ولذلك فإن هذه الصخور وتجمعها معاً تحمل قوى سحرية مستمدة من الجنوب والشرق. وتمهد هذه الفرضيات الطريق لظهور علاقة بين بريطانيا القديمة، والأسرار المصرية الغامضة في بريطانيا لاحقاً، وكثيراً ما نجد لدى جيفري أن معظم القوى السحرية في كتاباته (ما عدا تلك التي يسيطر عليها ساحر الملك آرثر ماريلان) تعود أصولها إلى مسلمي إسبانيا وإفريقيا، وعندما يقاتل الملك آرثر روما يبرر جيفري ذلك، بأن أباطرة الرومان قد تحالفوا مع أربعة عشر أميراً مسلماً من إفريقيا والشرق، جاؤوا من بلاد إسبانيا، وليبيا، ومصر، وسوريا وغيرها، وحتى طروادة ذاتها كانت في مرتبة متوسطة بين الشرق والغرب، ومن طروادة قدم بروتس إلى بريطانيا، ليقدم فن الفروسية. وفي المقابل، يصف جيفري نهاية النفوذ البريطاني، بأنها جاءت نتيجة للغزو الساكسوني لبريطانيا حيث كان الجيش الساكسوني معززاً بفرق من الجنود الأفارقة، وهكذا هزم البريطانيون إزاء تحالف الشمال والجنوب، وفضلاً عن

(1) Geoffrey, Monmouth The Historia Regum Britanniae of Geoffrey of Monmouth, ed. Acton Griscom (London: Longmans, Green and Co., 1929).

ذلك نجد في روايات تاريخية أخرى ذكراً أوضح لقوة الشرق ومكانته.

هناك نظرية أخرى حول أصول الثقافة الغربية وبخاصة البريطانية منها، شكلت ما يشبه نظرية المؤامرة في الفكر الغربي الحديث المتقدم، وهي نظرية الأصول الفينيقية التي عززتها النظريات الأنثروبولوجية الدينية.

ادعى نيبيوس[1]، وهو مصدر معظم فرضيات جيفري الجغرافية، أن المصريين القدماء قد استقروا في إحدى الفترات في إيرلندا، وقدم كذلك فرضية تُرجع الثقافة البريطانية إلى أصول شرقية، مما كان له أثر كبير في تشكيل فكرة القرون الوسطى. وبالإضافة إلى ذلك، لم تنظر هذه الفرضية إلى الأصول الشرقية للثقافة الغربية على أنها عامل هجين يلوث الهوية الغربية، بل نظرت إلى الهوية الأوروبية الحقيقية أنها امتداد طبيعي للإبداع الإنساني منذ بداياته، ولقد شكلت هذه النظرية وغيرها من النظريات حول أصول الثقافة الغربية، دعامة مهمة من دعائم التاريخ السياسي الحديث في أوروبا والعالم.

ظهرت روايتان مختلفتان حول أصول الثقافة البريطانية نتيجة لهذه الأساطير المختلفة، على الرغم من الاعتراف بأحقية الرواية الدينية. وقد ظهرت صورة دينية متشائمة للتاريخ في كتاب جيمس دين James Dean «العالم يشيخ في الأدب القروسطي The World Grown Old in Medieval Literature» حيث صوَّر دين المجتمع الإنساني الحالي، بأنه يمثل تدهور الجنس البشري وضعفه بعد أن أنهكه الزمن، ولازمته لعنة الخطيئة الأولى[2]، وقد انسحبت هذه الصورة على معظم شعوب العالم المتحضر القديم، أما شعوب العالم الجديد فقد صُنفت، بأنها بقايا القبائل التي حلّت عليها اللعنة أيضاً.

(1) (المترجم) نينيوس راهب إنجليزي عاش في ويلز في القرن الثامن الميلادي، وقام بتنقيح كتاب جيفري «تاريخ البريطانيين». Nennius

(2) James M. Dean, The World Grown Old in Later Medieval Literature, Medieval Academy Books (Cambridge, MA.: Medieval Academy of America, 1997).

وفضلاً عن تلك الصورة القائمة للتاريخ، تطورت أيضاً صورة أخرى مختلفة متزامنة مع الصورة الأولى ولكن بطريقة خفية نوعاً ما، وهي تظهر في سفر التكوين بالإشارة إلى جنس بشري آخر وُجد وعاش قبل وجود آدم، وقبل فكرة الشتات اليهودي، وهنا تلعب أسطورة الأصول الفينيقية التي تربط المسيحية بالمعرفة المقدسة الأزلية، بما فيها هيرميس، وزرادشت، وكهنة الدرويد، دوراً مهماً وأساسياً.

يشير روبرت هاننغ Robert Hanning في كتابه «صورة التاريخ في بريطانيا المتقدمة The Vision of History in Early Britain» إلى أن القصص والأساطير الموجودة حول أصول الثقافة البريطانية تحمل الكثير من الإيحاءات السياسية[1]، ويضيف بأنه لا توجد أي قصص حول هذه الأصول لدى غيلداس Gildas[2] أو بيد Bede[3]، أما في كتاب «تاريخ ملوك بريطانيا Historia regum Britannia» فهناك ادعاءات تربط بين الثقافة البريطانية، والرومانية على خلفية إمبريالية، في روايات متضاربة بحسب النسخة المحققة من «تاريخ ملوك بريطانيا»، ففي النسخة الموجودة ضمن إم إس هارليان MS Harleian نجد أن بروتوس يُطرد من روما؛ ليأتي لاحقاً إلى بريطانيا، حيث كان البريطانيون جماعة مختلفة في ذلك الوقت[4]. ويشير هاننغ أيضاً إلى سلالة نسب أخرى تؤكد الفكرة التقليدية، التي تعيد نسب الأوروبيين الغربيين إلى يافث بن نوح، وهي فكرة تخلو من الأهداف السياسية المتعلقة بتشارك قومية واحدة، أو أصول ملكية ممتدة، ومع

(1) Robert W Hanning, The Vision of History in Early Britain from Gildas to Geoffrey of Monmouth (New York: Columbia University Press, .1966).

(2) غيلداس: ناسك وقديس بريطاني عاش في القرن السادس وله مراجع تاريخية مهمة حول تاريخ الكنيسة المسيحية. (المترجم)

(3) بيد: قديس عاش في القرن السابع، هو مؤرخ ومؤلف معروف، أهم مؤلفاته «تاريخ الأمة الإنجليزية». (المترجم)

(4) Hanning, The Vision of History, 105.

ذلك فهناك سلاسل أخرى غير موجودة في بعض الوثائق والمخطوطات، لكنها توفق بين الرؤية الدينية الإنجيلية، والرؤية الرومانية ضمن إطار تاريخي جديد يمثل تحدياً للمسيحية التقليدية المحافظة[1].

هناك صورة أخرى للتاريخ البريطاني ما قبل طروادة تظهر في مخطوطة أكسنليك Auchinleck ضمن «موسوعة الشعر المجهول Anonymous Riming Chronicle»[2]، وذلك من خلال مغامرات ألبينا Albina وأخواتها، وهي إحدى أهم الأساطير المتعلقة بنشأة بريطانيا. تقول الأسطورة أن بنات أحد ملوك الإغريق تآمرن على أزواجهن لقتلهم، وعندما كُشفت المؤامرة طردن من البلاد عبر البحر، وفي أثناء تجوالهن في البحر عثرن على جزيرة جديدة، سمتها الأخت الكبرى ألبينا باسمها، ولقد هبطن للاستقرار فيها. وهناك يتحالفن مع الشيطان، ويتزوجنه؛ لينجبن منه جيلاً من العمالقة الذين سكنوا بريطانيا حتى وصول بروتوس. أما في «نثر بروت Prose Brut» فنجد أن الأخوات ينسبن إلى ملك سوري لا إغريقي، وبذلك تتحول أصولهن من النسل الإغريقي الكلاسيكي إلى الأصول الشرقية[3]، وهي رواية تُرجع التاريخ

(1) Hanning, The Vision of History, 106.

(2) An Anonymous Short English Metrical Chronicle, ed. Ewald Zettl, Early , English Text Society. (Series) (London: Pub. for the Early English Text Society by H. Milford, Oxford University Press, 1935. Lesley Johnson, «Return to Albion,» in Arthurian Literature XIII (Woodbridge: D.S. Brewer, 1981), 19-40; James P Carley and Julia Crick, «Constructing Albion's Past: An Annotated Edition of De Origine Gigantum,» in Arthurian Literature XIII (Woodbridge: D.S. Brewer, 1981), 31-114; Ruth Evans, «Gigantic Origins: An Annotated Translation of De Origine Gigantum,» in Arthurian Literature XVI (Woodbridge: D.S. Brewer), 197-211.

(3) Ewald Zettl, An Anonymous Short English Metrical· Chronicle. See Jeffrey Jerome Cohen, Of Giants Sex, Monsters, and the Middle Ages, Medieval Cultures (Minneapolis, MN: University of Minnesota Press, 1999. Tamar Drukker, «Thirty-Three Murderous Sisters: A Pre-Trojan Foundation Myth in the English Prose Brut

البريطاني إلى أصول نسوية شرقية، غير أن هذه الرواية لا تظهر في الصورة العامة للسرد في قصة بروت.

تُعد الرواية الإسكتلندية لأسطورة قدوم بروت إلى بريطانيا من أكثر الروايات إثارة للاهتمام، إذ ينقح التراث الاسكتلندي رواية الراهب نينوس حول استيطان إسكتلندا وإيرلندا، ويعيد أصول هذا الاستيطان إلى مصر القديمة. وتأتي رواية الأصول المصرية لسكان إسكتلندا بالتوازي مع الأسطورة المعروفة لاستيطان المليسيين– وهم سكان إيرلندا الأصليون– في إيرلندا، إذ جاء المليسيون – الذين ترجع تسميتهم إلى المستوطن الأول ميل سبين– من سيتيا في آسيا الوسطى، واستقروا في مصر حيث تقاطع مصيرهم مع مصير موسى في الفترة ذاتها. يتزوج أحد السيتيين وهو نيال ابنة الفرعون سكوتا، وفي النهاية يجدان طريقهما عبر البحر إلى إسبانيا ومن ثم إلى إيرلندا. وفي رواية هكتور بويس Hector Boece (1465–1536)، وهو أحد مؤسسي جامعة أبردين في إسكتلندا، وصديق حميم لإيراسموس، أن إغريقياً يدعى غاثيلوس خدم في جيش الفرعون تحت قيادة موسى، ثم خلفه بعد ذلك في قيادة الجيش[1]، وتزوج لاحقاً من ابنة الفرعون سكوتا، وهكذا يكون اسما سكوتا غاثيلوس هما مصدر تسمية شعوب الغال والإسكتلنديين.

هاجر سكوتا وغاثيلوس من مصر بعد وباء ألم بأهلها، وأبحرا بمحاذاة الساحل الشمالي لإفريقيا، واستقرا في إسبانيا. وعندما توسعت مستعمرتهما، استقل

Chronicle,» Review of English Studies 54, no. 216 (September 2003): 449-63.

(1) Hector Boece, A Description of Scotland, John Bellenden (London, 1587. R. James Goldstein, The Matter of Scotland: Historical Narrative in Medieval Scotland, Regents Studies in Medieval Culture (Lincoln: University of Nebraska Press, 1993. William Matthews, «The Egyptians in Scotland: The Political History of a -Myth,» Viator 1 (1970): 289-306.

ابنهما أيبير عنهما (ومن هنا جاءت تسمية أيبيريا)، وأسس مستعمرة جديدة هي الآن إسكتلندا. وتتضمن هذه الأسطورة حكاية العرش الرخامي الذي جلبه أحد أحفاد أيبير، وهو سيمون بريك غاليسيا من إسبانيا إلى إسكتلندا، ليصبح رمزاً للعرش الإسكتلندي حيث يتم تتويج ملوك إسكتلندا، ويدعى الآن حجر سكون Stone of scone. وهنا، تظهر ثانية نظرية الأصول الشرقية القديمة؛ لتعزيز شرعية الهوية الإسكتلندية المتفردة وتراثها المستقل في الحكم، وهو هدف سعى إليه بويس في كتاباته، بالإضافة إلى بعض السجلات التاريخية والقصائد التي استعملها كمصادر في أبحاثه؛ لإعادة سرد التاريخ الآرثري الرسمي بمزيد من التعاطف مع شخصية موردريد Mordred (الخائن الذي حارب الملك آرثر في معركة كاملان)، وتحويله إلى أحد أبناء إسكتلندا الذين حاربوا إمبريالية آرثر التوسعية. غير أن هذه الصورة البديلة لتاريخ الأصول البريطانية قوبلت بسيل من الازدراء والتشكيك في مصداقية بويس، مما اضطر اتحاد الملكيات في إنجلترا وإسكتلندا إلى محاولة التوفيق بين التراثين في نسب تاريخي واحد، وحاول هولنشيد Holinshed إدراج فرضية بويس ضمن روايته التاريخية للأصول البريطانية، حيث وجد شكسبير قصة ماكبث الشهيرة، أما بالنسبة إلى الروايات القروسطية الأخرى، أو تلك الأكثر حداثة، فقد أعاد بعضها إحياء أسطورة الأصول الفينيقية، أو المصرية لسكان بريطانيا الأوائل؛ للتوصل إلى صيغة دينية إنجيلية حول الهوية العرقية الأصلية للبريطانيين، متتبعاً مصدر حجر سكون وصولاً إلى صخرة يعقوب أو أبعد من ذلك.

لقد لعبت نظريات مماثلة لنظرية بويس دوراً مهماً في الجدل المتقدم حول التاريخ السياسي لإسكتلندا، وقد استخدم الملك إدوارد الأول أسطورة بروت حول الأصول البريطانية في نزاعه للسيطرة على إسكتلندا عام 1301، وتدخل البابا بونيغاتش الثامن للتوسط في هذا النزاع، وقد تفطن الملك إدوارد للأهمية

الرمزية لحجر التتويج، ومكانته الأسطورية بالنسبة إلى الإسكتلنديين، فقام بنقله إلى لندن، ووضعه في كنيسة ويستمنستر عام 1296، لكنه وعن غير قصد أسبغ هالة إضافية حول هذا الحجر لدى الإسكتلنديين؛ ليصبح الحاضر الغائب، مثله كمثل فلك نوح.

هناك مبشر آخر بنظرية بويس المناوئة لأسطورة بروت ظهر في القرون الوسطى، وهو جون فوردان John of Fordun صاحب كتاب «تاريخ الشعب الإسكتلندي Chronica Gentis Scotorum» الذي بدأ كتابته عام 1363، واستمر في تغذيته حتى وفاته عام 1385 [1]، حيث جال البلاد طولاً وعرضاً في بحث متواصل عن مصادر الأساطير، والأدلة التاريخية عليها، ولم تكن تلك بالمهمة السهلة بعد أن حاول الملك إدوارد محو الكثير من الآثار التاريخية، ونقل العديد من الوثائق التي تؤرخ للتاريخ الإسكتلندي المستقل، وقد استطاع بالتأكيد تأسيس نموذج مهم للتاريخ الطبوغرافي لإسكتلندا في رد على الموسوعة التاريخية بوليكرونيكون Polychronicon، التي وضعها رانولف هايدون Ranulf Higdon، ويدعي فيها هاديدون أن سرد بروت يبرز أحقية السيادة الإنجليزية على إسكتلندا[2].

ينبثق سرد فوردان من حوار تناصي مع روايات إنجليزية سابقة، ويتزامن هذا السرد مع اكتساح الادعاءات القومية المختلفة، مما يجعله سرداً مختلفاً يستحق الاهتمام. وفي هذا السياق يعلق آر جيمس غولدستاين على استخدام

(1) Skene, John Fordun, John of Fordun's Chronicle of the Scottish Nation, ed. William Forbes Skene (Edinburgh: Edmonston and Douglas, 1872) and John Fordun, Johannis de Fordun Chronica Gentis Scotorum, ed. William F Skene, Historians of Scotland (Edinburgh: Edmonston & Douglas, 1871).

(2) Ranulf Higden, Polychronicon Ranulphi Higden Monachi Cestrensis Together with the English Translations of John Trevisa and of an Unknown Writer of the Fifteenth Century, Rerum Britannicarum Medii Aevi Scriptores (London: Longman, 1865).

فوردان للأساطير الأولى حول أصول الشعب الإسكتلندي بقوله: إن فوردان قد ورث عدة وجوه من شخصية غاثيلوس، فهو رجل محب للسلام لكنه مقاتل قوي الشكيمة أيضاً، وهي صفات -فضلاً عن عدة أسباب أخرى- كانت السبب وراء نفيه من اليونان، ومصر سواءً كان ذلك باختياره الخاص، أو بسبب الصراعات التي ولدتها هذه الجوانب من شخصيته، وكأن هذا السرد الإسكتلندي كان محكوماً ومنذ بداياته الأسطورية الأولى بالتناقضات والصراعات التي استمرت عبر التاريخ، والتي يبرزها فوردان بتأكيده معاناة غاثيلوس وسكوتا المريرة في رحلتهما، للاستئثار بعباءة القدر الذي نُسب إلى بروت في أسطورته[1].

يبدأ تاريخ سلالة ثيودور باعتماد التاريخ البريطاني كما سجله جيفري مونماوث، وهو يؤسس للأمة البريطانية، ومنذ عام 1592 كان أشخاص مثل جون ستو John Stowe يرددون أسطورة بروتوس وآرثر باعتبارها حقائق تاريخية[2].

أما موسوعة هولنشيد التاريخية، المعروفة بأنها أحد المصادر التاريخية التي كان يعتمدها شكسبير؛ لاستقاء معلومات تاريخية في رواياته، فإنها تؤرخ استيطان بريطانيا للمرة الأولى من جانب أبناء يافث بعد الطوفان، ثم يتبعهم في استيطان البلاد العملاق أليبون Albion الذي يأسره هرقل حتى يصل بروتوس إلى البلاد ويحتل الجزيرة[3].

غير أن عدداً من التساؤلات بدأت تظهر مع بروز الحاجة للتوثيق والحصول

(1) See Hanning, The Vision of History, 107.

(2) John Stow and Edmund Howes, The Annales, or, Generall Chronicle of England (Londini: Impensis Thomae Adams, 1615).

(3) Raphael Holinshed, Holinshed's Chronicles-England, Scotland, and Ireland; with a New Introd. by Vernon F. Snow (New York: AMS Press, 1976).

على أدلة مادية توثق لتلك الحكايات والأساطير، وهنا استُهل التشكيك في مصداقية جيفري وثبات روايته التاريخية، وظهر عالم الإنسانيات بوليدور Polydore Vergil 1470–1555؛ ليدحض رواية جيفري في موسوعته أنجليكا هستوريا، رغم ما كانت تلقاه أسطورة طروادة وألبيون من دعم ديني[1]. وفضلاً عن ذلك، كانت هناك عدة قوى تعمل على مراجعة التاريخ الأسطوري لبريطانيا منها أشخاص ينادون بإعادة النظر في حرفية الكتاب المقدس والقصص الموجودة فيه، وأهمها استيطان أبناء نوح للعالم المعروف الآن بعد الطوفان الكبير. وهناك أيضاً الدعوة للكنيسة الإنجليزية بأن يكون لها تاريخها الخاص بعيداً عن تاريخ الكنيسة المسيحية المعروف.

أخذت الدعوة لتمييز الكنيسة البريطانية عن الكنيسة المسيحية في أوروبا تتوسع بدافع تعزيز التاريخ البريطاني، وإعادة الاعتبار للسلالة الكنسية البريطانية، حتى وصلت إلى حد إعلان المطران بيل Bale 1595–1563 أن الكنيسة البريطانية تستمد تاريخها العقائدي من القدس لا من روما[2].

وقبل قرون عدة عُمد الملك لوشيس Lucius من جانب تيموثي أحد أتباع القديس بول، مؤسساً بذلك تاريخاً موازياً، ومنافساً لتاريخ الكنيسة الرومانية الكاثوليكية[3]. وأخيراً هناك جانب آخر لهذا الاستشراق الإيجابي الذي يربط

(1) Polydore Vergil, Historia Anglica, 1555 (Menston: Scolar Press, 1972); and Polydore Vergil, Polydore Vergil's English History, ed. Henry Ellis -(London: J.B. Nichols, 1846).

(2) John Bale, The Vocacyon of Johan Bate, ed. Peter. Happe (Binghamton, N.Y: Medieval & Renaissance Texts & Studies in conjunction with Renaissance English Text Society, 1990), XII, 14.

(3) May McKisack, Medieval History in the Tudor Age (Oxford: Clarendon Press, 1971), 22; Graham Parry, The Trophies of Time: English Antiquarians of the Seventeenth Century (Oxford: Oxford University Press, 1995); and, for a slightly longer Joseph M. Levine, Humanism and History: Origins of Modern English Historiography

إنجلترا بمركز الديانة المسيحية، إذ نجد في موسوعة تاريخ هولندشيد أسطورة متكررة في القرون الوسطى، وهي أن توماس بيكيت رئيس أساقفة كانتربري منذ عام 1162 حتى وفاته عام 1170، كان ينحدر من أم شرقية سورية[1].

طور المطران بيل رواية بديلة مفصلة حول أصول التاريخ البريطاني، تربط بريطانيا بالتاريخ الديني حول وجود الإنسان على الأرض، وانتشار أبناء نوح بعد الطوفان؛ لإعمار العالم[2]، أما الشخصية الرئيسية في رواية المطران فهي، ساموث بن يافث وحفيد نوح وهو شخصية غير مذكورة في الإنجيل، لكن روايات عدة تقول إنه كان فينيقياً. ولقد كان ساموث هذا قائداً للسلتيين في القارة الأوروبية والجزر البريطانية، أما ابنه مجوس فيجلب علم البناء والعمارة إلى البريطانيين، ويعلمهم بناء المدن وإعمارها، كما علمهم فنون السحر أيضاً، أما ابن مجوس ويدعى سارون فيقدم علم الفلسفة للجزيرة، وتمتد السلالة إلى باردوس الذي يعلم البريطانيين الشعر والموسيقى. وفي الآن ذاته ينتشر الجزء الآخر من عائلة نوح المتمثل في أبناء حام بمن فيهم إيزيس وأوزوريس، الذين يقدمون للعالم علم الزراعة، ويحضرون إلى بريطانيا ويعلمونهم زراعة الشعير وصناعة الجعة، أما أليبون فهو أحد أحفاد إيزيس وأوزوريس وقد دمغ اسمه البريطانيون، فهو من علمهم علوم البحار، غير أن الحال تدهورت في العصر الحديدي؛ ليعيش البريطانيون 500 عام من التعاسة والبلاء حتى يأتيهم بروتوس المتنور من طروادة؛ ليهزم العمالقة ويقود البلاد.

تستند رواية بيل على الأوهام التاريخية التي صاغها الراهب الإيطالي جوناس أنيوس فيترب Koannes Annius Vterb عام 1498، الذي كتب رواياته التاريخية بناء على وثائق مزعومة أعدها مؤرخو الإسكندر الأكبر وأكملها

(Ithaca: Cornell University Press, 1987).

(1) Holinshed, Chronicles II. 136-37.

(2) T .D. Kendrick, British Antiquity (London: Methuen, 1950), 69-73.

المؤرخ المصري مانيثو، غير أن عدداً من المؤرخين قام لاحقاً بتنقيح رواية بيل، وبخاصة فيما يتعلق بحقيقة الوجود التاريخي لألبيون.

بقيت الحقيقة الأهم والأوضح في التاريخ البريطاني أن بريطانيا كانت يوماً مقاطعة من مقاطعات الإمبراطورية الرومانية، وقد ظلت هذه الحقيقة قائمة وموجودة حتى في موسوعة وليام كامدين William Camden (1623–1551) «بريطانيا – Britannia»، إذ طغت الحالة الأيقونية للحضارة الرومانية والإغريقية وتأثيرها في عصر النهضة على دور الوجود الجرماني، وأثره في التاريخ البريطاني، لذلك أصبح التفسير التاريخي الذي أورده جيفري مونماوث حول علاقة نبلاء بريطانيا بالمستوطنين الأوائل للجزيرة ممن قدموا من طروادة ونظريته السلتية، تفسيراً محرجاً إن لم يكن خيالياً في تلك الفترة، ومع ذلك فقد ظلت هذه الرؤية التاريخية لجيفري قائمة، ومسيطرة على المخيلة الإنجليزية حتى القرن السابع عشر، حتى إن إنجلترا حاربت رواية بوليدور فيرجل Polydore Vergil التاريخية والقائمة على مصادر موثقة؛ لأنها رفضت رواية جيفري. أما موسوعة كامدين «بريطانيا»، التي تدين لفيرجل بالفضل في منهجيتها وحسن تنظيمها فقد حاولت تفادي النزاع باقتباس رواية جيفري الأسطورية، مع الإشارة إلى عدم وجود أدلة كافية على تلك الرواية[1]. يقترح كامدين أن البريطانيين الأوائل هم فرع من شعوب الغال، وهناك كثير من الأدلة الموثقة حول وجودها، فمن الممكن أنها قد استوطنت الجزر البريطانية في أحد الأيام، ثم إنه يربط هذه الفكرة بالتاريخ الديني الإنجيلي القديم، قائلاً إن شعوب الغال هم أحفاد جومر بن نوح، وقد استقروا في أوروبا عبر فترات تاريخية لاحقة، وقد أعطى علم الآثار Archeology القديمة في مرحلة ما بعد الإصلاح أهمية

(1) William Camden, Camden's Britannia, 1695, ed. Edmund Gibson (New York: Johnson Reprint Corp., 1971).

متزايدة للشعوب الجرمانية والسكسونية، ومن ثمّ للتاريخ القروسطي.

يمكننا القول: إن بحث كامدين التاريخي وبحث ليلاند Leland لا يعدوان عن كونهما ملامسة طفيفة لهذا التاريخ المركب واللامحدود، الذي لا بد أن يُراجع، ويصنف بطرق تتلائم والهوية الوطنية البريطانية الجديدة. لقد كان هناك أيضاً دافع ديني مؤسساتي وراء هذه الرؤية الآثارية الجديدة للتاريخ، إذ كانت الدراسات اليعقوبية المتمثلة في مكتبة السير روبرت كوتون Sir Robert Cotton تسعى وراء تأسيس نسب مستقل لكنيسة إنجلترا الجديدة، وهو نسب يصل بالضرورة إلى التاريخ الأنجلوساكسوني والنورماندي في إنجلترا. وكما يحدث عادة في التاريخ القروسطي، فإن الأجندة السياسية لفريق ما، أو جيل تؤدي في النهاية إلى نتائج يستخدمها فريق آخر أو جيل مختلف، وهذا الإغراء الذي لا يقاوم لدراسة الأصول والتراث يسهم عادةً في زيادة الاضطراب، والتناقضات حول السلالات التاريخية وأصولها.

يقول آرثر بي فيرغسون Arthur B. Ferguson أثناء عرضه للجدل الذي كان دائراً حول العصور الوسطى البريطانية إبان القرنين السادس عشر والسابع عشر في كتابه «الآثارية المطلقة: معرفة ما قبل التاريخ في بريطانيا عصر النهضة»: إن مشكلة وجود آرثر ليست هي النقد الوحيد الموجه لرؤية جيفري التاريخية، فالأهم هو طبيعة الدليل التاريخي المقدم على وجود مثل هذه الشخصية[1]. وقد أدرك معارضو فرضية جيفري التاريخية هشاشة الأدلة التاريخية الداعمة لتلك الفرضية، بَيْدَ أنهم كانوا يعون أيضاً ندرة الأدلة التي قد تدعم أي فرضية تاريخية بديلة حول المستوطنين الأوائل للجزر البريطانية.

ولذلك وجد الطرفان نفسيهما في موقف غامض، حين كانت المصادر

(1) Arthur B. Ferguson, Utter Antiquity: Perceptions of Prehistory in Renaissance England (Durham: Duke University Press, 1993).

الأدبية والروائية تتنافس على تقديم الأدلة التاريخية مع الحقائق الموثقة، بالإضافة إلى الأدلة المادية المختلفة، وقد وصل الأمر إلى التشكيك بكل شيء حتى إن بعضاً من مؤيدي أسطورة بروت أنفسهم تأثروا بالطرق المنهجية الجديدة في البحوث الآثارية، وأخذوا يتشككون في أصول تلك الأسطورة القديمة التي، تجمع بروت وآرثر أساساً، وبدا كأن ظهور الحركة الإنسانية لا بد أن يكون على حساب بقاء أسطورة بروت، وكما يقول فيرغسون فإن وجود الحركة الإنسانية كان شرطاً لتفنيد التاريخ البريطاني وتعريته من أوهامه.

إذا كان عصر النهضة يمثل فجر الحداثة الأول عند معظم الناس، وإذا كانت إعادة اكتشاف الآثار الرومانية والإغريقية قد وفر النموذج، والمصدر الأساسي لهذه النهضة، فإن الدافع الأساسي للآثارية الحديثة المتقدمة كان اكتشاف سلالة جديدة تؤكد الهوية البريطانية، والكنيسة الإنجليزية والتاج والقانون البريطانيين. أما سبب استمرارية هذا الدافع فيما بعد، فهو اتصاله بالتاريخ والأصول القديمة، وقد قدم الآثاريون هذا التاريخ في النصوص التي وجدوها، والأدوات التي عرضوها، والأماكن والبلاد التي وصفوها، وكل ذلك بالطبع كان موجوداً في القرون الوسطى.

لقد نُقلت هذه التاريخية القروسطية الإنجليزية بالأساس -ثم الأوروبية- إلى القرون اللاحقة كصورة متفردة تمثل الماضي القروسطي، حيث تتباين المجتمعات الشرقية مع الحاضر والماضي الغربي، وهي مجتمعات صُورت أنها ثابتة وخاملة وغير جديرة بآثاريتها المجيدة، التي أخفقت في استعادة قوتها ومجدها، ومن هذا المنطلق كانت أوروبا جديرة بميراثها الآثاري العظيم الذي، ظهر عبر عدة قرون، وظهرت معه -لاحقاً- المعادلة المعقدة التي تحكم وجود السلالات الأصلية والأجنبية. أما بالنسبة إلى الآثاريين، فقد كان همهم الأساسي هو الكشف عن الزمن والفضاء الإنجليزيين اللذين امتدا في الماضي

بوضوح أحياناً وغموض أحياناً أخرى؛ ليصل إلى أبعد نقطة في الماضي يمكن الوصول إليها.

وعلى الرغم من تحيز المؤرخين الغربيين عموماً والإنجليز على وجه الخصوص لدراسة التاريخ المحلي المصغر Microhistory في أعمال الآثاريين، فإنهم أظهرو اهتماماً واضحاً باللغات الشرقية بعيداً عن الأسطورة المتوارثة حول الأصول السلتية وعلاقتها ببرج بابل، إذ شجعت الدراسات الدينية التعرف إلى اللغة العبرية، والسريانية، والآرامية، للتقرب أكثر من النصوص الأصلية للكتاب المقدس من جهة، وخدمة مشروع ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة الإنجليزية من جهة أخرى. وفضلاً عن ذلك، كان هناك أسباب استراتيجية كنسية أخرى؛ للتعرف على الفلسفة والعلوم الإغريقية القديمة من خلال ترجمتها العربية، فقد قدم التاريخ الإغريقي بديلاً مناسباً لهيمنة الكنيسة الرومانية، وبذا تطورت علاقة مختلفة تجمع بين الكنيسة الأنجليكانية وتعاليم الأرثوذكسية الشرقية. أما أحد أبرز معالم دراسة اللغات الشرقية –وبخاصة العبرية– فقد كان لانسيلوت أندروز وتلميذه وليم بيدويل الذي قدم دراسة وافية حول اللغة العربية في إنجلترا عصر النهضة[1].

وصلت المسيحية إلى بريطانيا عن طريق يوسف الآرامي، وذلك حسب الرواية التاريخية للراهب غيلداس، ومن هنا أصبحت كنيسة غلاستوبري مكاناً مقدساً؛ لأن يوسف الآرامي هو الذي بناها. وارتبطت الكنيسة –فيما بعد–

(1) اشتهر بيدويل بهجومه على القرآن، وللمزيد حول الموضوع راجع:

William Bedwell, Mohammedis Imposturae That is, a Discovery of the Manifold Forgeries, Falshoads, and Horrible Impieties of the Blasphemous Seducer Mohammed: With a Demonstration of the Insufficiencie of His Law, Contained in the Cursed Alkoran, Delivered in a Conference Had Betweene Two Mohametans, in Their Returne from Mecha (London: Imprinted by Richard Field, 1615.

بأسطورة آرثر وبحثه عن الكأس المقدسة، وهكذا أصبحت أسطورة يوسف الآرامي -وهي أهم دعائم أسطورة الكأس المقدسة التي أسهمت في تطورها- أسطورة شعبية يتبناها الجميع؛ لأنها قدمت نظرية تأسيس المسيحية في بريطانيا دون أي تدخل من روما، مما يدعم الادعاءات الأنجليكانية بوجود سلالة مسيحية في بريطانيا يسبق وجودها وجود الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، مثمنة دور القديس بيتر في تأسيسها، وقد كان لأصل يوسف الآرامي الذي يعود إلى منطقة الشرق المتوسط المقدسة دور مهم في تعزيز هذه الصورة.

كانت قضية استقلال الكنيسة الأنجليكانية في جذورها عن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية الدافع الأول وراء العديد من الأبحاث والدراسات الآثارية في القرن السادس عشر، وقد كان مركز التوثيق الرئيسي لهذه الأبحاث مكتبة السير روبرت كوتون الشهيرة (1631-1571)، التي اتخذت طابعها المعروف بوجود تماثيل نصفية لأباطرة الرومان بعد انتقال السير روبرت إلى ويستمنستر، أما قبل ذلك، فقد تنقلت المكتبة في عدة أماكن، بما تحويه من مراجع مهمة مثل مخطوطة بيرل Pearl الأدبية.

كان لروبرت اتصالات مع باحثين كثر في أوروبا، وقد اشترك مع الآثاريين في هدفهم الأساسي حول البحث عن أصول مستقلة للكنيسة الأنجليكانية، لكنه سعى -بالإضافة إلى ذلك- باهتمام نحو تأسيس هوية وتراث وطنيين خاصّين ببريطانيا.

أثار مقال كوتون الذي نشره عام 1628 بعنوان «المخاطر المحدقة بالمملكة The Danger Where in the Kingdom Now Standeth» حفيظة محكمة كارولين، حين رأت أن المقال يهاجم نفوذ دوق باكنجهام الذي اغتيل في العام ذاته[1]؛ ولذلك أمرت المحكمة بإغلاق مكتبة كوتون عام 1929 وحبس

(1) Robert Cotton, The Danger Wherein the Kingdome Now Standeth, The English

كوتون واستجوابه، ولم يستطع العودة إلى مكتبته حتى وفاته عام 1931، ويبدو أن علاقة كوتون بالبرلمانيين كانت السبب الرئيس في إبعاده لا عداءه للملكية، إذ يقول كوتون في أحد تصريحاته: لو أن الملك كان يتلقى المشورة الصادقة من مستشاريه ورجال البلاط، لاستطاع السير بالبلاد في الاتجاه الصحيح.

درس الأسقف جيمس آشر James Ussher (1581–1656) والأسقف لود Laud؛ أسقف كانتربري، والقاضي سيلدن Selden اللغات السامية، وجمعوا العديد من المخطوطات الشرقية، وقد أصبحت مؤلفات آشر التاريخية من أهم أعمال تلك الفترة[1]، فلقد قام بتوثيق الآثارية الإغريقية والرومانية بطريقة منهجية منظمة.

عمل آشر مثله كمثل سيلدن مع وليام بيدويل (1563–1632، الذي يعد أهم المستعربين في القرن السابع عشر، وفي الوقت ذاته كان آشر مهتماً بالتاريخ الديني، وفهم اللغة الأصلية للإنجيل، وهكذا فقد واظب على تعلم اللغة العبرية؛ للوصول إلى تلك الغاية. وفي هذا السياق، تورد إيفلين هذا الحوار: « لقد أمضيت وقتاً مهماً في تعلم اللغات الشرقية بما فيها العبرية، أما العربية فلم تكن جديرة بالاعتبار»[2]، أما التاريخ البريطاني فقد كان محط اهتمامه، فقد كان يعرف اللغة الأنجلوساكسونية وجمع العديد من المخطوطات الإنجليزية، كما شجع تعليم اللغة الأنجلوساكسونية في الجامعات، وساند إبراهام ويلوك الذي كان يقوم بتعليم تلك اللغة في كامبردج، كما أسهم آشر في التنقيب عن

Experience (Amsterdam: Theatrum Orbis Terrarum, 1975).

(1) James Ussher, The Annals of the World. Deduced from the Origin of Time (London: Printed by E. Tyler 1658); James Ussher, Britannicarum Ecclesiarvm Antiqvitates. (Dublinii: Ex Officina Typographica Societatis Bibliopolarum, 1639. On Ussher in general, see Parry, Vie Trophies of Time 130-56.

(2) John Evelyn, Diary. Now First Printed in Full from the Mss. Belonging to John Evelyn (Oxford: Clarendon Press, 1955), 21 August 1655.

التاريخ الديني للكنيسة الإيرلندية في أثناء محاولاته؛ لتأسيس سلالة دينية مستقلة للكنيسة المسيحية في بريطانيا، ومع ذلك فقد كان معارضاً لترجمة الإنجيل إلى اللغة الإيرلندية، وأصر على إقامة الطقوس الكنسية والعظات بالإنجليزية فقط.

لقد كان موقف الأسقف هذا متوافقاً مع السياسة الإنجليزية السائدة منذ القرن الرابع عشر، غير أن موقفه من الإفنجيلية البروتستنتينية كان غريباً بعض الشيء، إذ إن آشر أسهم في كتابة تاريخ الكنيسة الإيرلندية، وحاول إثبات استقلاليتها عن الكنيسة الرومانية، كما وقف آشر ضد البلاجية[1] (Pelagianism) التي كان يرى أنها نوع من الهرطقة ابتدعها مسيحي بريطاني في القرن الرابع، وطورها في روما، لكنها عادت في ثوب جديد في القرن السادس عشر تحت مسمى الأرمينية Arminianism نسبة إلى جاكوبس أرمينوس، وقد حاول آشر التحذير من مخاطرها ولكن بحذر شديد، ذلك أن الملك شارلز كان أحد مؤيديها.

وفيما يتعلق بجون سيلدن، فقد شكلت كتاباته القانونية الدعامة السياسية للدراسات الآثارية المتقدمة[2]، إذ إن معظم الدراسات القانونية، بما فيها أبحاث سيلدن كانت تروي تاريخاً طويلاً من التسويات التي تصب في صالح البرلمانيين، غير أن كتابات سيلدن كانت تضمن، وإن لم يكن بشكل صريح، بأدلة تشير إلى عكس ما كان يدعيه الملك جيمس الأول من أحقية الملكية في بريطانيا، فقد كان يقدم فرضيات قانونية تؤكد استمرارية المؤسسة السياسية والقانونية الساكسونية مع التشديد على أدلة تاريخية تشير إلى وجود حكومة مشتركة

(1) البلاجية: نظرية لاهوتية يعود اسمها إلى الراهب بيلاجيوس (354–420م) وتقوم على أن الخطيئة الأولى لم تؤثر على الطبيعة البشرية، وأن إرادة الإنسان لا تزال قادرة على الاختيار بين الخير والشر. (المترجم)

(2) Nathaniel Bacon and John Selden, An Historical and Political Discourse of the Laws & Government of England from the First Times to the End of the Reign of Queen Elizabeth; John Selden, Esq. (London: Printed for J. Starkey, 1689).

في ذلك الوقت، لكنه استطاع إرجاع بدايات تأسيس القانون الإنجليزي إلى فترة ما قبل الغزو. وقد قدم سيلدن في روايته التاريخية عرضاً مفصلاً للأساطير السابقة حول نشأة بريطانيا، بما فيها الأصول الطروادية للشعب البريطاني، لكنه مع ذلك يقول: إن كل هذه القصص والأساطير تفتقر إلى الدليل الموثق، وهو يقدم بالمقابل صورة مغايرة للبدايات التشريعية في بريطانيا اعتماداً على روايات المؤرخ الروماني تاسيتس بأن القوانين العامة والتشريعات كان تُسن من خلال مجالس تشريعية تضم نخبة المجتمع في ذلك الوقت.

تعارضت هذه الرواية مع رؤية الملك جيمس للتاريخ البريطاني، فقبل توليه عرش بريطانيا، كان الملك جيمس يروج صورة مختلفة تظهر فيها إسكتلندا بلاداً همجية تم ترويضها وحكمها على يدي الملك الإيرلندي فيرغس، الذي فرض دولة القانون. وهكذا يبدو المجتمع البريطاني مستبِداً منذ البداية حسب رأي الملك جيمس.

يورد سيلدن في تعليقه على كتاب فورتيسك Fortescue «دراسات في القانون الإنجليزي De Laudibus Legum Anglica»[1]، أن القانون المدني البريطاني تطور عن القوانين الطبيعية، ثم تم تعديله؛ ليناسب الظروف الموضوعية في تغيرها، وهو يبدو كأنه يفترض أن الحكومة –حسب اتفاق عدد من المصادر– هي النظام الطبيعي للحكم.

نرى مما سبق أن معظم المشاريع الآثارية المتقدمة كانت تصب في قالب المحافظة، بمعنى أنها كانت تقف على الأغلب في موقف الدفاع عن الكنيسة الأنجليكانية والعرش، ورغم ذلك ظل كلاهما دائماً في حالة ترقب وتوجس خوفاً من ارتباط الدراسات الآثارية بالإيديولوجيا البرلمانية، وفزعاً من خلق

(1) John Fortescue, John Selden, and Ralph de Hengham, De Laudibus Legum Angliae, ed. John Selden, illus. John Selden, trans. John Selden (London: Printed by E. and R. Nutt, and R. Gosling for R. Gosling, 1737).

حالة من الحنين إلى الماضي قد تمهد الطريق إلى عودة الكاثوليكية الرومانية.

ومثلما هو متوقع، فإن العلاقة بين الآثاريين والبيوريتانيين Puritan شابها الحذر وعدم الثقة، وكما هي الحال مع معظم القروسطيين اللاحقين كان هناك انقسام إلى عدة معسكرات مختلفة الولاء، فقد كان دغديل وأوبري Dugdale، Aubrey منحازين إلى الملكية، بينما كان سيلدن يؤمن بحكومة مستقلة بعيداً عن حق الملك المقدس في الحكم، وبالنسبة إلى كوتون Cotton، فقد مال نحو البرلمانيين أيضاً، وكان لهؤلاء الآثاريين، المهتمين بالتاريخ الدستوري للبلاد والذين يهفون نحو البرلمانية في أبحاثهم، النفوذ السياسي الأقوى في البلاد، مما أدى في النهاية إلى صدامهم مع الملك جيمس، فقد حلت جمعية الآثاريين نفسها، وقام الملك جيمس بمصادرة مكتبة السير روبرت كوتون.

كان التعاطف مع الكنيسة الأنجليكانية أحد الجوانب الرئيسية في الدراسات الآثارية، بيد أننا نجد صلة واضحة بين القروسطية والكاثوليكية المضطهدة –وهي صلة معروفة في الأوساط القروسطية اللاحقة– وبخاصة في أعمال (ريتشارد فيرستيغان 1548–1636 Richard Verstegan. وإذا اعتبرنا أن الدافع الرئيسي وراء أبحاث جون فوكس John Foxe وماثيو باركر Matthew Parker وجون بيل John Bale هو دراسة الأنجلوساكسونية للكشف عن الأصول المستقلة للكنيسة الإنجليزية، فإن دافع فيرستيغان كان مختلفاً تماماً، إذ قام بكتابة روايات تاريخية عديدة حول اضطهاد الكنيسة البروتستنتية للكاثوليكيين في بريطانيا والقارة الأوروبية، مما تسبب في اعتقاله. ومع ذلك، فإن أبحاثه في الآثارية تحمل أهمية خاصة، ذلك أنه يُرجع الأصول البريطانية إلى القبائل الجرمانية لا السلتية[1]، ويعتقد أن نقطة التحول في الهوية الوطنية واللغة

(1) Richard Verstegan, A Restitution of Decayed Intelligence, English Recusant Literature, 1558-1640 (Ilkley UK: Scolar Press, 1976).

القومية كانت في برج بابل، وأن الهمجية التي يتصف بها القوط كانت الحالة الأولى لتشكيل الهوية الوطنية، ويضيف بأن الثقافة لم تكن في يوم من الأيام حكراً على أمة دون غيرها، لكنها يمكن أن تتطور أو تتدهور تبعاً لحال الأمة، أما فرضية أرسطو بارتباط الثقافة بشعوب معينة ضمن مناخات خاصة فكان يعتبرها أسطورة لا أكثر[1].

كان أحد أسباب شهرة فيرستيغان تقديمه لوصف مفصل حول حكومة أنجلوساكسونية يتم انتخاب الملك فيها ويكون عرضة للمسائلة والمحاسبة، وهو تصور مهم ضمن الجدل الذي كان قائماً أواخر القرن السابع عشر حول الحكم البرلماني، الذي يعد الملكية المطلقة عائقاً أمام الحريات البريطانية مثلها كمثل «النير النورماندي».

بحلول عام 1650، أخذ الملكيون المهمشون في ذلك الوقت يشغلون أنفسهم في دراسات، وأبحاث تهدف إلى تحصين مواقفهم وتدعيمها، وكانت هذه الأبحاث في العادة آثارية الطابع، ومن بين هؤلاء كان السير هنري سبيلمان Sir Henry Spelman (1564—1641)، الذي رسم صورة أكثر سلاسة للملكية البريطانية، فمن وجهة نظره يفتقر القانون الإنجليزي إلى الخلفية التاريخية الآثارية، إذ كانت الطبقة الحاكمة أو نخبة المجتمع هي، التي تصوغ القوانين وتطورها، وهو يقترح تطوراً تدريجياً في المؤسسات الحكومية، فالأصول البرلمانية في بريطانيا تبدأ في القرن الثالث عشر وليس في الفترة الساكسونية أو النورماندية.

وهكذا، كان معظم الآثاريين في أواخر القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر يهتم بشكل أساس بتأسيس سلالة تاريخية لبريطانيا مدفوعين بتيارات سياسية أو دينية تحاول اكتشاف أدلة على وجود مؤسسات برلمانية سابقة أو

(1) Parry Trophies of Time, 49-69.

تاريخ مستقل للكنيسة بعيداً عن سلطة روما، لذلك فقد اتجه الآثاريون نحو السجلات والوثائق والنقوش القديمة التي أثارت كلها الشكوك حول النظريات القديمة مثل الأصول الطروادية التي تبناها جيفري مونماوث، أو نظرية استيطان بريطانيا من قبل أحفاد نوح بعد انهيار برج بابل. وكان هناك أيضاً اهتمام كبير في تلك الدراسات بالأدلة الأنجلوساكسونية بالإضافة إلى الحضارة البريطانية في فترة الإمبراطورية الرومانية. ومع ذلك، فقد احتفظت الروايات التاريخية الدينية وشبه الدينية الغريبة بجاذبيتها لدى عدد من الآثاريين الذين خرجوا بالنظرية الآسيوية التي تُرجع أصول المستوطنين الأوائل لبريطانيا إلى أصول فينيقية سورية. أما المرجع الأساسي لهذه النظرية فقد كان كتابات الجغرافي والمؤرخ اليوناني القديم سترابو Strabo، الذي أرخ له فيما بعد إيزاك كوزبون Isaac Causabon[1]. ويصف سترابو في كتاباته انتشار الفينيقيين حول العالم واستيطانهم العديد من البلاد في أثناء ترحالهم، ومنها الجزر البريطانية.

تمتد جذور هذه النظرية الغامضة إلى القرنين السادس عشر والسابع عشر، فقد كتب جون توين John Twyne (1581) محاضرة يستنتج منها أن الفينيقيين قد استقروا في الجزر البريطانية في الفترة الوسيطة ما بين استيطان العمالقة لهذه الجزر، والغزو الطروادي لها[2]. ساهم أيضاً الفرنسي صامويل بوشار Samuel Bochart (1599–1667) في نشر هذه النظرية، إذ عرف الفينيقيين بأنهم الكنعانيون المذكورون في الإنجيل[3]، وقدم أدلة على اكتشاف الكنعانيين لجميع

(1) Strabo, Strabonis Revm Geographicarvm Libri XVII (Lutetiae: Parisiorum: Typis regus, 1620).

(2) John Twyne, De Rebvs Albianicis, Britannicis Atqve Anglicis, Cammentariorum Libri Duo..., ed. Thomas Twyne (Londini: Excudebat E. Bollifantus, pro R. Watkins, 1590).

(3) Samuel Bochart, Samuelis Bocharti Geographia Sacra (Excusum Francofurti ad Moenum: Impensis Johannis Davidis Zunneri, typis Balthasaris Christophori Wustii.,

أرجاء العالم المعروف آنذاك بما فيها العالم الجديد في العصر ما قبل الكولومبي. ساند بوشار في هذه الفرضية بشكل من الأشكال صديقه وزميل دراسته بيير دانيال هويت، الذي تناولناه سابقاً في حديثنا حول الرومانسية القروسطية، على الرغم من وجود اختلافات دينية بينهما، إذ كان هويت كاثوليكياً مخلصاً، وأصبح أسقفاً فيما بعد، أما بوشار فقد كان بروتستنتياً، إلا أنهما عملا على إحدى مخطوطات الراهب أوريغانوس في ستوكهولم بعد اكتشافها، وكان تحقيق هذه المخطوطة سبباً في شهرة هويت الذي سارع بعد ذلك إلى دراسة العربية والسريانية والعبرية، وصار يعد من أهم المستشرقين في القرن السابع عشر.

لقد كان مفهوم هويت حول الأصول الشرقية للرومانسية عموماً، وللرواية على وجه الخصوص، يلتقي حتماً مع وجهة نظر بوشار حول الاستيطان الآسيوي الفينيقي لأوروبا الغربية الذي جلب معه البدايات الثقافية الأولى للجزر البريطانية.

وهناك دراسة بحثية أخرى ساندت نظرية بوشار هي التي قدمها سيلدن بعنوان «دي ديس سيريس De Diis Syriis»[1]، وتعتبر أحد أهم أعماله وأكثرها إثارة للجدل، إذ قدم فيها دراسة مفصلة للطوائف الدينية في منطقة شرق المتوسط، غيرت التصور الذي قدمه عصر النهضة للماضي، وقد استخدم ميلتون Milton هذه الدراسة في كتابه الشهير «الفردوس المفقود Paradise

---

1674); Samuel Bochart, Samuelis Bocharti Opera Omnia (Lugduni Batavorum Trajecti ad Rhenum: Apud Cornelium Boutesteyn, & Samuelem Luchtmans. Apud Guilielmum vande Water, 1712).

(1) John Selden, De Dis Syris Syntagmata II (Lipsiae: Impensis J. Brendeli, 1662); a partial English translation was published as John Selden and W.A. Hauser, The Fabulous Gods Denounced in the Bible (Philadelphia: J.B. Lippincott & Co., 1880).

Lost» لوصف ممارسات الملائكة على الأرض، ويصف سيلدن في دراسته هذه مختلف المذاهب الدينية، والأساطير الموجودة ذات الأصول المتباينة، سواء كانت مصرية أو يونانية أو فارسية، وهو يدمجها مع التقاليد والأساطير المحلية، مما أهل دراسته هذه؛ لتكون أرضاً خصبة استقى منها فريزر بعد ذلك عدة جوانب في كتابه «الغصن الذهبي Golden Bough» الذي صنف فيه دراسة سيلدن بأنها دراسة أنثروبولوجية فكتورية.

ما يهمنا في بحث سيلدن على وجه الخصوص رغم اتساعه، أنه يصنف الشرق ضمن فئة تندرج تحتها صفات الأسطورية واللاعقلانية والوثنية بل حتى الشيطانية في مقابل تصنيفه للتاريخ البريطاني بأنه قانوني، وموثق، وعقلاني، وعملي حتى خلال الفترة القروسطية، ومن هذا المنطلق يبدو امتياز الملكية البريطانية نوعاً من الطغيان والاستبداد الشرقي الذي يتناقض مع التطور الاجتماعي البريطاني.

لقد ألهمت دراسة سيلدن هذه عدداً من الآثاريين المعاصرين واللاحقين مثل وليام بيرتون William Burton الذي يشير في كتابه «ملاحظات حول رحلة أنطونيو Commentary on Antoninus his Itenerary (1658)» إلى وصف سيلدن للطوائف الدينية غير الموحِدة، أنها موجودة في جميع أرجاء أوروبا، ومن سوريا وصولاً إلى بريطانيا[1].

وبالعودة إلى ميلتون، فعلى الرغم من استخدامه دراسة سيلدن في تصوير الشرق الوثني في «الفردوس المفقود»، فإنه يرفض تماماً نظرية الأصول الفينيقية لبريطانيا في كتابه «تاريخ إنجلترا History of England»[2].

لقد تقبل الجيل الأول من الآثاريين مع بعض الاستثناءات، الرواية التاريخية

(1) William Burton, A Commentary on Antoninus (London: Printed by T Roycroft, 1658).

(2) John Milton, Complete Prose Works (New Haven:Yale University Press, 1953).

الدينية التي تؤكد استيطان أبناء نوح وأحفاده في أوروبا الغربية بعد الطوفان[1]، وهي رواية قد لا تكون وهمية بالكامل، فأصحاب نظرية الانتشار الثقافي وحتى الماديون منهم مثل غوردون شيلدي Gordon Childe يؤمنون بأن الحضارات الشرقية وجدت طريقها بشكل، أو آخر إلى الثقافة الأوروبية في عصور ما قبل التاريخ[2]، وقد عزز وجود الأدلة التاريخية للعصر البرونزي في بريطانيا هذه الفكرة، فمن المعروف أن الحضارات الشرقية هي المكتشف الأول للأدوات البرونزية، وقد كانت الفرضية تقول بأن الشرقيين كانوا يجوبون البلاد بحثاً عن مادة القصدير اللازمة لصناعة المواد النحاسية، وأدت هذه الفرضية إلى نظرية اقترحها للمرة الأولى جون توين John Twyne في كتابه «De Rebus Albionicis (1590)»، التي تعزز فرضية استيطان الفينيقيين في بريطانيا.

تطورت هذه النظرية لاحقاً على يدي بوشار، ثم اتخذت موقعها في التاريخ البريطاني على يدي أيلات سامز Aylett Sammes، ويقول سامز وآخرون أن أحفاد جومر هم شعب «كامبري» الذي استقر في النهاية في شمال أوروبا، وهم يظهرون في إحدى اللوحات الخشبية عام 1676 مترحلين من شمال تركيا إلى بريطانيا[3]؛ ليصبحوا أول من أدخل الحضارة إلى بريطانيا في أثناء رحلاتهم؛ للبحث عن القصدير، بقيادة بطلهم العظيم هرقل الذي أتى من مدينة صور حسب رأي سامز.

اتخذت النظرية الفينيقية منحىً مغايراً تماماً لنظرية جيفري في رواية توين،

(1) Stuart Piggott, Ancient Britons and the Antiquarian Imagination: Ideas from the Renaissance to the Regency (London:Thames and Hudson, 1989).

(2) Gordon Childe, What Happened in History, Pelican Books (Harmondsworth: Penguin Books, 1942) and V Gordon Childe, Man Makes Himself, The Library of Science and Culture (London: Watts & Co., 1936).

(3) Stephanie Moser, Ancestral Images: The Iconography of Human Origins (Ithaca, N.Y: Cornell University Press, 1998).

فقد توسعت الإمبراطورية القرطاجية التي أسسها الفينيقيون في كل مكان بحثاً عن مادة القصدير، والمواد الأولية الأخرى، ولا بد أنها عثرت على بغيتها في جنوب بريطانيا. ويقدم توين أدلة مادية من الآثار المتبقية في بريطانيا، التي تعود إلى الاستعمار الفينيقي للمنطقة من أشكال المنازل، والملابس، والرموز المنقوشة الدالة على أماكن بعينها، ومثل اللباس التقليدي الويلزي المتفرد الذي قدمه توين كدليل على الأصول الفينيقية.

وفضلاً عن ذلك، فقد جلب الفينيقيون معهم فنون السحر الشرقية إلى الجزر البريطانية، وهنا يقع توين في فخ التنميط السلبي حول الشرق، إذ يقدم الفينيقيين وفق أنهم «فاسدون» و«محتالون»، وأن حياتهم المترفة أدت في النهاية إلى تدهور حضارتهم وزوالها، ويضيف توين أنهم كانوا في الأصل داكني البشرة في إشارة خفية إلى نظرية ارتباط الحضارة بالمناخ، ويفترض أنهم لا بد قد اكتسبوا البشرة الفاتحة بعد عدة سنوات في الجزر البريطانية الباردة، لكنهم كانوا يصبغون وجوههم بألوان نبتة الوسمة الزرقاء؛ ليحافظوا على لون بشرتهم الأصلي.

تطور اهتمام الآثاريين بالتاريخ القروسطي الإنجليزي في منتصف القرن السابع عشر، ومع هذا التطور زادت الشكوك والتساؤلات حول نظريات الأصول الخارجية للثقافة البريطانية مثل النظرية الطروادية، ومع ذلك ظلت نظرية تلاقي الأصول البريطانية والشرقية قائمة ومحط اهتمام الآثاريين، ومن أهمهم إيلات سامز الذي بدأنا به سابقاً، فقد تتبع أصول الثقافة البريطانية وصولاً إلى الفينيقيين، وعزا اختلاف لون بشرة السلتيين والويلزيين إلى التأثير السوري الفينيقي[1]، كما أقام نظريته على أسس لغوية تُظهر تشابهاً واضحاً بين أسماء بعض الأماكن في بريطانيا، وكلمات مشابهة في اللغة القرطاجية.

(1) Sammes, Britannia Antiqua.

ويضيف سامز بأن أصول السلتيين قد ترجع إلى منطقة البحر الأسود، وبما أن الأغريق كانوا يلحقون بالفينيقيين أينما ذهبوا، فلا بد أن الإغريق وصلوا إلى بريطانيا في فترة ما قبل التاريخ. وتبعاً لهذا التحليل الجغرافي، فإن كهنة الدرويد كانوا يخدمون آلهة الفينيقيين، أما شعراء البارد Bards فقد كانوا فينيقيين أيضاً، وهم من نقل المعرفة الإغريقية إلى الكهنة.

وجدت افتراضات سامز طريقها إلى الثقافة الشعبية بسرعة بعد أن ظهر كتابه، وعلى غلافه رسم كبير لرجل الخيزران تأكله النيران وبداخله عدد من الأضاحي البشرية، ويقترح سامز بأن أصول أداة التعذيب هذه قد تعود إلى الفينيقيين، إذ يرمز رجل الخيزران الضخم إلى الفينيقيين أنفسهم الذين كان يُعتقد بأنهم ضخام الحجم وأقوياء البنية، ومنهم هرقل الجبار بالطبع الذي يقول سامز: إنه كان يقيم معبداً له في ستونهينج، مورداً أدلة أنثروبولوجية أخرى على وجود الفينيقيين في الجزر البريطانية، مثل صناعة تخمير الشعير التي وُجدت لدى الفينيقيين والبريطانيين منذ أقدم العصور، بالإضافة إلى استعمال العجلة الحربية لدى الطرفين، وهي عربة على عجلتين يجرها حصان، وكانت تستعمل في الحروب، ويعود أصلها إلى الفراعنة والفينيقيين. وبالنسبة إلى سامز وآخرين، فإن وجود هذه العجلة دليل واضح على الجذور الآسيوية للثقافة البريطانية.

أضفى بعد ذلك شارلز ليج Charles Leigh (1662–1701) صبغة محلية على نظرية سامز في بحثه حول لانكشاير[1] مستخدماً أدلة إيتمولوجية عديدة لرسم صورة لمدينة لانكشاير عندما سكنها الفينيقيون، بالإضافة إلى شعوب آسيوية أخرى بمن فيها الفرس، أما روبرت شرينغهام Robert Sheringham فقد

(1) Charles Leigh, The Natural History of Lancashire, Cheshire, and the Peak, in Derbyshire with an Account of the British, Phoenician, Armenian, Gr. and Rom. Antiquities in Those Parts (Oxford: Printed for the author, etc., 1700).

أضاف إلى مستوطني بريطانيا شعوب أرمينيا أيضاً[1].

قدم ليج، بعد ذلك، بعض التفاصيل الإضافية حول استيطان الفينيقيين الجزر البريطانية، وعزا هذا الاستيطان إلى نهب الإسرائيليين مدينة صور، واضطرار الفينيقيين إلى مغادرتها حسب الرواية التاريخية الدينية، لكنه يعترف أيضاً باستقرار أحفاد نوح في هذه الجزر، بَيْدَ أنه يُرجع كل الأدوات الذهبية التي وُجدت في لانكشاير إلى الفينيقيين، إذ لم تعرف الثقافات السابقة أو اللاحقة المشغولات الذهبية.

استمرت النظرية الفينيقية قائمة بصور مختلفة خلال القرن السابع عشر حتى بدايات القرن الثامن عشر، ولقد قام ريتشارد كمبرلاند Richard Cumberland (1632–1718) بنشر ترجمة للتاريخ الفينيقي أعدها المؤرخ الفينيقي سانكونياثن، تتضمن أعمال يوسابيوس بالإغريقية[2]، وقد عرف ريتشارد الفينيقيين بأنهم من سلالة قابيل، بينما ينحدر الإسرائيليون من سلالة شيث؛ الابن الثالث لآدم وحواء، كما قدم فرضية مختلفة عمن سبقوه إذ قال: إن الآلهة الوثنية القديمة لم تكن في الحقيقة خالدة مع أنها آلهة.

ظهر الشرق في الروايات التاريخية في القرن السابع عشر أنه جالب الحضارة للسكان البدائيين في الجزر البريطانية، بينما اختلفت الصورة في روايات القرن الثامن عشر؛ ليصبح البريطانيون مثالاً للوحشية النبيلة التي نجت من الطوفان، وهكذا أصبح الطوفان حالة خاصة بالشرق الأوسط، وليس كارثة عالمية قضت على كل الكائنات الحية الموجودة.

كان على أفكار عصر النهضة حول الآخرية أن تتشبث بتقاليد الأنثروبولوجيا

(1) Robert Sheringham, De Anglorum Gentis (Cantabrigiae: Excudebat J. Hayes, impensis E. Story, 1670).

(2) Richard Cumberland, Sanchoniatho's Phoenician History (London: Printed by WB. far R.Wilkin, 1720).

في القرون الوسطى، التي كان لها شكلها الاستشراقي الخاص حتى قبل الحروب الصليبية، فقد عبرت عنه بمزيج من الخوف، والإعجاب بالأعراق الأخرى الموجودة في العالم. وحسب رأي دي بروين De Bruyne في كتابه «الفن القروسطي Eslhetique Medievale»، فإن العالم القروسطي ورث حالة الاستقطاب تجاه الآخر من الحضارة الإغريقية، التي كانت تحتقر كل ما هو غير إغريقي؛ أي بالأحرى آسيوي، ويبدو ذلك واضحاً من خلال الأدب والفلسفة الإغريقية، فلقد حكم على كل ما هو مختلف بالغروتسكية[1].

هذه «الأعراق الوحشية» كما يسميها جون بلوك فريدمان John Block Fnedman لم تكن شعوباً بدائية تنعم بنعم الطبيعة، ولم تكن شعوباً متخلفة عن حركة التاريخ كما سيراها مفكرو القرن التاسع عشر، بل كانت شعوباً مذكورة في الكتاب المقدس بصورة غريبة وغامضة لم يستطع الغربيون فهمها بالكامل، فقد تكون هذه الشعوب من أحفاد نوح، الذين نجوا بعد الفيضان، وظلت تحمل معها دماء الشعوب الباغية، التي كان من المفترض أن يمحوها الفيضان عن وجه البسيطة، أو ربما تكون هذه الشعوب قد وُجدت قبل وجود آدم؛ أي من سلالة الملائكة التي هبطت إلى الأرض بعد أن عصت الخالق؛ لتتخذ الهيئة الحيوانية البشرية بعد أن تخلت عن حالتها الملائكية. كل تلك الفرضيات ظلت موضع جدل كبير في القرن السابع عشر ولوقت طويل جداً.

ظهر مفهوم السلالة البشرية التي وجدت على الأرض قبل آدم بصورة ضمنية في أعمال جان بودين Jean Bodin (1530–96) في أواخر القرن السادس عشر، لكنه تطور بعد ذلك بالكامل في أعمال إيساك دي لا بيرير Isac de la Peyrer (1676–1586)[2]، أما السير والتر ريلج Sir Walter Raleigh فقد

(1) Edgar de Bruyne, Etudes d'Esthetique Medievale, Werken Uitgegeven Door de Faculteit Van de Letteren en Wijsbegeerte (Brugge: De Tempel, 1946).

(2) Isaac de La Peyrere, Men Before Adam. Or, A Discourse Upon the Twelfth,

شكك في حرفية الرواية التاريخية للإنجيل حول هذا الموضوع في كتابه «تاريخ العالم History of the world»[1]، غير أن بيرير ذهب أبعد من ذلك بكثير، إذ شكك في كتابة موسى للتوراة، وأضاف بأن الحضارة الفينيقية والمصرية قد سبقتا الحضارة العبرية بكثير، وأن طوفان نوح كان كارثة محلية خاصة بمنطقة الشرق الأوسط فقط حيث قطن اليهود (نوح وأبناؤه؛ لأن عقاب الطوفان كان موجهاً لهم فقط، وأن كتاب التوراة كان عبارة عن سجل تاريخي لما حدث. ويضيف بيرير تعليقاً على الغموض التاريخي الموجود في سفر التكوين أنه يعود إلى وجود سلالة بشرية وُجدت قبل آدم من غير اليهود، أما ثقافة سفر التكوين في مرحلة ما بعد هبوط آدم إلى الأرض فهي ثقافة الأدوات والملابس والزراعة التي طورتها الحضارة السابقة لوجود آدم، والتي استنفعت منها ذرية آدم وتكاثرت من خلالها.

قدم بودين أفكاراً أكثر مرونة وحنكة، إذ طرح قضية تأثير البيئة والتأقلم معها في تغيير طبيعة المجتمعات البشرية، وهكذا فإن طبيعة هذه المجتمعات ليست مقدرة سلفاً، بل تخضع للظروف المحلية، فالبيئة تخلق شخصية المجتمع وما تمتلكه من فضائل، أو رذائل تطورت نتيجة تأقلم هذه المجتمعات مع بيئتها. ومن هنا نجد أن أهل الشمال شجعان وأقوياء، لكنهم لا يتمتعون بالخيال الكافي أو الجموح، أما أهل الجنوب والشرق فهم متقلبو المزاج وذوو خيال خصب، لكن لا يمكن الاعتماد عليهم، وهو افتراض لعب دوراً مهماً في بعض النظريات حول الثقافة القروسطية في أواخر القرن الثامن عشر، وأوائل القرن

Thirteenth, and Fourteenth Verses of the Fifth Chapter of the Epistle of the Apostle Paul to the Romans; A Theological Systeme Upon That Presupposition, That Men Were Before Adam. London: [s.n.] 1656).

(1) Walter Raleigh, The History of the World, ed. C.A: Patrides (London: Macmillan, 1971).

التاسع عشر، حين كان السحر والخيال الشرقي ضرورياً، لإلهام عجلة الصناعة في الشمال، وإنتاج الأدب الرومانسي، وإبراز شموخ الأبنية القوطية.

أدى اكتشاف العالم الجديد بما فيه من شعوب القبائل الهندية الأمريكية إلى تعديل في نموذج الاستيطان الذي كان معروفاً سابقاً سواء كان الاستيطان قبل وجود آدم أو ما بعد الطوفان، إذ كان مكتشفو البرازيل يعتقدون أن سكان أمريكا الجنوبية يرجعون إلى ذرية نوح[1]، بينما قال آخرون إن ثقافة سكان أمريكا الأصليين تعكس أصولاً مختلفة. وكما حدث بالنسبة إلى النظريات التي تعاطت مع مستوطني بريطانيا الأصليين، أخذ المستكشفون والجغرافيون يتتبعون جذور شعوب أمريكا الجنوبية بطرق مختلفة تؤدي إلى أنساب مختلفة، وهنا تقول مارغريت هودجين: «لهذه الشعوب جذور مختلفة يعود بعضها إلى ويلز، و يرجع بعضها إلى الرومان والإغريق والقرطاجيين والسيثيين والمصريين واليهود، أو بالأحرى إلى قبائل بني إسرائيل العشر التي تفرقت في الأرض، ويرجع بعضهم الآخر إلى إفريقيا وأثيوبيا والفينيقيين»[2].

أما جوزيف دي أكوستا Joseph de Acosta (1588–89) فقد ربط الهنود الأمريكيين بجذور يهودية؛ لأن ملابسهم تشبه ملابس شمشون، وهو أحد أبطال اليهود الخارقين، ومذكور في العهد القديم[3]، وفي المقابل قدم هيوغو

(1) Don Cameron Allen, The Legend of Noah: Renaissance Rationalism in Art, Science, and Letters, Illinois Studies in Language and Literature (Urbana: University of Illinois Press, 1949); Norman Cohn, Noah's Flood: The Genesis Story in Western Thought (New Haven: Yale University Press, 1996); Paolo Rossi, The Dark Abyss of Time: The History of the Earth & the History of Nations from Hooke to Vico (Chicago: University of Chicago Press, 1984).

(2) Margaret Trabue Hodgen, Early Anthropology in the Sixteenth and Seventeenth Centuries (Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 1964), 312.

(3) Hodgen, Early Anthropology, 313-14.

غروتوس Hugo Grotius أدلة مادية ولغوية تثبت صلة القبائل الهندية الأمريكية بالنرويجيين، وقال إن المكسيكيين يغسلون أبناءهم بالماء البارد عقب ولادتهم مباشرة[1].

من أكثر الفرضيات إثارة للجدل، وقد عاشت طويلاً في التاريخ الديني لأمريكا، فرضية أن القبائل الهندية تنحدر من نسل القبائل اليهودية العشر، ويقدم مناسيح بن إسرائيل Manassah ben Israel قصة نشرها في أمستردام عام 1650 عن مستكشف يهودي يقوده الهنود الأمريكيون إلى مستعمرة غامضة يقولون إن أفرادها يعلمون الدين اليهودي[2].

يضيف مناسيح بأن اليهود قد وصلوا إلى أمريكا الجنوبية في رحلة طويلة عبر آسيا في أثناء رحلة الشتات اليهودي، وما الأبنية الرائعة الموجودة في البيرو إلا كُنس يهودية أقامها المستوطنون الأوائل في المنطقة.

تدعمت فرضيات مناسيح لاحقاً بفرضيات أخرى مشابهة قدمها توماس ثوروغود Thomas Thorowgood، وعرضها في كتابه «اليهود في أمريكا Jewes in America»، الذي نُشر عام 1650[3]، ثم أكدها بعد ذلك كلّ من روجر وليمز Roger William وكوتون ماذر Cotton Mather ووليم بين William Penn، وكانت هناك بالطبع آراء معارضة لهذه الفرضيات شككت في الأدلة التي عرضها مناسيح وعرضت فرضيات أخرى تتعلق بالاستيطان

(1) John Ogilby, America: Being the Latest, and Most Accurate Description of the New World (London: Printed by the author, 1671), 29-32. See Hodgen, Early Anthropology, 314-15.

(2) A recent edition is available as Manasseh ben Israel, The Hope of Israel, ed. Henry Mechoulan, trans. Henry Mechoulan (Oxford: Published for the Littman Library by Oxford University Press, 1987).

(3) Thomas Thorowgood, Ievves in America, or, Probabilities That the Americans Are of That Race (London: Printed by W[illiam]. H[unt]).

الأول للأمريكتين.

ظهرت عام 1644 نظرية أخرى؛ لتفسير أصول المستوطنين الأوائل للقارتين الأمريكيتين تتضمن البعد الشرقي، إذ طرح روبرتوس كونتيوس نورتمانوس Robertus Conteous Nortmannus فرضية أن أصول القبائل الهندية الأمريكية ترجع إلى الفينيقيين من قرطاج أو صور، وهو تصور ظهر في كتاب جورجيس هورنيس Giorgius Hornius «De Orignibus Americanis libri quattor»، الذي ناقش فيه أصول السكان الأصليين لأمريكا، داحضاً النظريات التي سبقته، ومصنفاً الأدلة التي تعتمد عليها هذه النظريات بأنها محض مصادفات، وأنها تعتمد على مقارنات غير كافية[1].

قسّم هورنيس القبائل الهندية إلى ثلاث فئات من جانب أصولها، فأرجع بعضها إلى أصول سيثية من الشمال، وصينية من الشرق، وفينيقية من الغرب، وقام بتعديل الفرضية الفينيقية القديمة بإضافة ثلاث هجرات استيطانية للمنطقة. أما التعاليم المسيحية، فقد وصلت حسب رأيه إلى أمريكا عبر الهجرات الصينية، حين قدِم الصينيون ومعهم الديانة المسيحية التي تلقوها من المسيحيين السوريين بفضل المبشرين المسيحيين في الهند والصين.

بدأ هذا النوع من الآثارية يتعرض لانتقادات لاذعة وساخرة مع بدايات القرن الثامن عشر، ورغم ذلك فقد كانت أعمال وليام ستوكلي William Stukeley تناقش على نطاق واسع وبخاصة تقديمه لفكرة الدرويدية[2] التي

(1) Georg Horn, De Originibus Americanis Libri Quatuor (Hagae Comitis: Sumptibus Adriani Vlacq, 1652).

(2) William Stukeley, Stonehenge, a Temple Restor'd to the British Druids; Abury, a Temple of the British Druids, Myth & Romanticism (New York: Garland, 1984); and William Stukeley, Abury, a Temple of the British Druids, with Some Others, Described; Piggott, William Stukeley: An Eighteenth-Century Antiquary (Oxford: Clarendon Press, 1950); Sam Smiles, The Image of Antiquity: Ancient Britain and

نشأت في أحضان الدراسات الإنسانية استناداً إلى الأفلاطونية الجديدة، وحملت معها أسرار المعرفة الفيثاغورية وألغاز السحر الفرعوني. ومع ذلك فقد كانت منزلة كهنة الدرويد في تدهور تام أواخر القرن السابع عشر، فقد صورهم سامز أنهم يقدمون الأضاحي البشرية، لكن هذا الوضع تغير في القرن الثامن عشر بعد فرضيات وليام ستوكلي William Stukeley .

قدم ستوكلي الدرويد على أنهم جزء من المستعمرة الشرقية التي وصلت إلى بريطانيا بقيادة هرقل، وكانت تؤمن بدين إبراهيم الذي تماشى وتعاليم المسيحية مع أنهم كانوا ينتظرون قدوم المسيح. كما أضاف ستوكلي أن الفينيقيين كانوا أول من أدخل الزراعة إلى بريطانيا، وأن كهنة الدرويد كانوا من سلالة أولئك المستعمرين الشرقيين.

لقد كان ستوكلي طبيباً مميزاً، وأحد أهم علماء الآثار في إنجلترا أيضاً، لكنه انضم إلى كنيسة إنجلترا عام 1729 على الرغم مما أثاره انضمامه إلى الكنيسة من علامات استفهام، إذ اعتقد ستوكلي أن الديانة الدرودية أضافت معرفة جديدة بالثالوث المقدس، وبعض الجوانب الأخرى في العقيدة المسيحية.

كما اعتقد ستوكلي بأن كهنة الدرويد وصلوا إلى بريطانيا كجزء من مجموعة فينيقية استعمارية قدمت من الشرق بعد طوفان نوح بقليل، وكانوا على دين إبراهيم، وسرعان ما بدأوا ببناء مؤسساتهم الدينية الخاصة، التي كانت بمثابة مقدمة طبيعية للمسيحية، أما قائد هذه المجموعة فقد كان هرقل القادم من مدينة صور كما وصفه سامز، لكن سامز قدم الدرويد على أنهم كهنة وثنيون، يقدمون الأضاحي البشرية في طقوس وثنية غريبة على النقيض من ستوكلي، الذي اعتبرهم نذراء ومبشرين بالمسيحية التي أتت لاحقاً.

the Romantic Imagination (New Haven: Published for the Paul Mellon Centre for Studies in British Art by Yale University Press, 1994).

لم يتوقف تأثير سامز عند ستوكلي، ففي عام 1723 نشر الكاهن هنري رولاند Henry Rowland كتابه «استعادة إنجلترا القديمة Mona Antiqua Restaurata»[1] وهو خطاب آثاري حول تاريخ الجزر البريطانية؛ مهد كهنة الدرويد. يقول رولاند في كتابه: إن اللغة الويلزية هي إحدى لهجات اللغة العبرية، وقد حفظت هذه اللغة الأصلية عبر القرون، ويؤكد أيضاً في كتابه على الشتات اليهودي لأبناء نوح بعد الطوفان، قائلاً: إنهم حملوا الدين الحق معهم إلى الجزر البريطانية، لكن عقيدتهم فسدت بعد ذلك بفعل الكهنة، وهو بذلك يعارض ستوكلي الذي يؤكد الدور البطولي الذي لعبه كهنة الدرويد في حفظهم، ونشرهم الحكمة القديمة، والدين الحق، بالإضافة إلى دورهم في مقاومة الإمبريالية الرومانية والتمسك بالأصالة البريطانية الأولى.

عُرف ستوكلي باحتضانه للقوطية أيضاً فضلاً عن تقديمه نظرية الأصول الفينيقية للثقافة البريطانية، وبذا ينتقل من العلم المحض إلى العاطفة الذاتية، ومن الكلاسيكية إلى القوطية، لكن نظرية الدرويدية، والقوطية تلتقيان في دافع واحد وهو محاولته دحض الفكر الإلحادي كما يسميه في النظريات العلمية واللاهوتية على حد سواء، وبالفعل لم تكن حتى أبحاثه الأولى وتنقيبه عن الآثار القديمة حائلاً دون تمسكه بمبادئه الدينية الأرثوذكسية (مع أن المؤرخ بيغوت Piggott الذي أرخ حياة ستوكلي وجد أن بعض الشكوك الدينية أخذت تساوره عندما بدأ يخوض في تفاصيل نظريته الدرويدية وعلاقتها بالفينيقيين، وهو من هذا المنطلق يشبه السير إسحاق نيوتن الذي كان يقوم بأبحاثه في المعادلات الرياضية المعقدة، بالإضافة إلى انغماسه في التساؤلات الدينية دون أن يرى أي تعارض بينهما، بل إنه كان يعد كليهما جزءاً من المشروع ذاته.

(1) Henry Rowlands, Mona Antiqua Restaurata (Dublin: Printed by Aaron Rhames, for Robert Owen, 1723).

نشر شارلز فالينسي Charles Vellancey عام 1772 مقاله الشهير «مقال حول آثارية اللغة الإيرلندية An Essay on Antiquity of the Irish Language» مؤكداً فيه أن اللغة الإيرلندية تنحدر مباشرة من اللغة القرطاجية[1]، وأن الأبراج الموجودة في إيرلندا ما هي في الأصل إلا مراصد فكلية كان يستخدمها الفينيقيون، الذين عرفوا بمهاراتهم الفلكية في ذلك الوقت، وأن اللغة الإيرلندية كانت إحدى اللغات المحكية في جنة عدن.

يظهر موقع اليهود واللغة العبرية بصورة خاصة في جميع الفرضيات المتعلقة بالأصول البريطانية، إذ حاولت الرومانسية بالإضافة إلى دراسات فقه اللغة في القرن التاسع عشر تمييز اللغات السامية بعيداً عن عائلة اللغات الهندية - الأوروبية، وقد أدى هذا الفصل إلى ظهور فرضيات مختلفة مثل فرضية انتماء الفينيقيين إلى العرق الآري وليس السامي، لذلك وجدت نظريات سامز، وآخرين حول الفينيقيين مكاناً لها في نظريات الأساطير البيضاء (White mythologies)، التي ظهرت أواخر القرن العشرين، غير أن فرضيات سامز الأولى كانت تطرح علاقة قوية بين الفينيقيين والعبرانيين من جانب اللغة والثقافة، كما أن الدراسات الدينية الإنجيلية في عصر النهضة عززت فرضية الأصول الشرقية للقبائل الجرمانية، واعتبرت أن أبناء نوح هم أول من استوطن العالم بعد الطوفان، وأن يافث بن نوح هو الجد الأكبر لشعوب الشمال، وقد وجدت هذه الفرضيات التاريخية مكانها منذ البداية في الثقافة الإنجليزية، وصولاً إلى الكاتب واللغوي إيلفريك Aelfric[2]. لعب جومر بن يافث دوراً

(1) Charles Vallancey, An Essay on the Antiquity of the Irish Language (Dublin: Printed by and for S. Powell, 1772).

(2) Aelfric, The Old English Version of the Heptateuch Aelfric's Treatise on the Old and New Testament, and His Preface to Genesis, ed. Aelfric (London: Published for Early English Text Society by the Oxford University Press, 1969), 27.

خاصاً في نشأة القبائل الجرمانية حسب الرواية التاريخية للسير والتر راليج في كتابه «تاريخ العالم» حيث يقول: إن «جومر وتوجورما استقرا بالقرب من مأجوج وتوبال على الحدود السورية والصقلية، وتقدما لاحقاً إلى داخل آسيا ثم باتجاه ألمانيا، وفرنسا، وبريطانيا»[1]، وقد اتخذ الكمبريون؛ سكان ويلز، اسمهم من اسم جومر.

لم تنته الفرضية الفينيقية بعد القرن الثامن عشر، بل عادت بأشكال مختلفة في القرن العشرين، إذ عاد إل. أي وادل L.A. Waddell ليقول: إن الفينيقيين هم الذين أسسوا أعمدة الثقافة البريطانية[2]، وأن هناك حالة آرية للفينيقيين يختلفون فيها عمن سبقهم، وتلاهم من الشعوب السامية، ويضيف وادل بأن فرضيته تحيي في الحقيقة الذاكرة الثقافية الجمعية البريطانية كما نقشت في الروايات التاريخية المختلفة مثل رواية جيفري مونماوث مثلاً، إذ يعتقد أن الاستيطان الطروادي للجزر البريطانية جاء بعد انهيار الاستعمار الفينيقي لهذه الجزر، ويقدم أدلة معظمها لغوية على هذه الفرضية بالإضافة إلى بعض المعالم الأثرية، والأدوات التي تربط الفينيقيين بالجزر البريطانية. كما يضيف بأن كل ما عرفته بريطانيا من حضارة يعود إلى الفينيقيين الذين جلبوا معهم حضارتهم قبل ميلاد المسيح بألفي عام[3].

اختلط هؤلاء الفينيقيون الآريون عبر القرون فيما بعد مع غير الآريين؛ ليكونوا الشعوب الآرية الموجودة اليوم في الجزر البريطانية، التي وإن كانت تتماهى مع الشعوب الآرية في اللغة والطباع، فإنها مازالت تحتفظ بخصوصية

(1) Raleigh, History of the World.

(2) L.A. Waddell, The Phoenician Origin of Britons, Sots & Anglo-Saxons Discovered by Phoenician & Sumerian Inscription in Britain, by Pre-Roman Briton Coins & a Mass of New History (London: Williams and Norgate, 1924).

(3) Waddell, Phoenician Origins, 363.

الشعوب الأيبيرية غير الآرية، ولا تنتمي عرقياً للأنجلوساكسون ولا الإنجليز ولا الإسكتلنديين[1].

تبدو فرضية وادل مقلقة نوعاً ما، إذ تشير نتائج بحثه إلى أن الأمة البريطانية لا تنتمي بالكامل إلى العرق الآري مع أنها تمتلك الثقافة الآرية، ومع ذلك فهي أمة آرية بدرجة أكبر من معظم دول القارة الأوروبية، التي أسست هويتها القومية بناءً على أرضية عرقية آرية[2]، بما فيها ألمانيا النازية.

يلاحظ وادل، أيضاً، أن العنصر الآري يوجد عادة في أعلى السلم الاجتماعي، وأن الحركات والصراعات المضادة للرأسمالية، والأشكال المؤسساتية الأخرى التي تظهر في المجتمعات هي بقايا الصراعات العرقية القديمة بين الآريين وسكان البلاد الأصليين، ويحذر من أن ذوبان المجموعات الآرية القديمة في المجتمع البريطاني، والأمريكي قد يكون عقبةً أمام دعاة النقاء العرقي[3].

يستلهم روبرت ليست Robert List أفكار وادل، لكنه يسير بها باتجاه سياسي معاكس[4]، مستعيناً بنموذج مارتن بيرنال Martin Bernal في كتابه «أثينا السوداء Black Athena» إذ يقول إن الثقافة البريطانية تحتوي على عنصر مكبوت تعود جذوره إلى إفريقيا والشرق الأدنى، لدرجة أن عدداً من الأنواع العرقية السلتية في الجزر البريطانية تحمل جينات إفريقية، وهي حقيقة تظهر في

(1) Waddell, Phoenician Origin, 364.

(2) Waddell, Phoenician Origin, 371.

(3) Waddell, Phoenician Origin, 376. Waddell is still cited as an expert on Tibetan Buddhism. For an account of his place in Tibetan Religous Studies, see Curators of the Buddha: The Study of Buddhism Under Colonialism, ed. Donald S. Lopez (Chicago, Il: University of Chicago Press, 1995).

(4) Robert N. List, Merlin's Secret: The African and Near Eastern Presence in the Ancient British Isles (Lanham, Md.: University Press of America, 1999).

شعارات مملكة إسكتلندا التي تحمل رؤساً للموريسكيين الأفارقة[1].

هناك أيضاً بعض التفاصيل الفلكلورية في الثقافة البريطانية تشبه إلى حد كبير بعض الممارسات الموجودة لدى بعض الطوائف غير المسيحية في الشرق الأدنى، أما أسطورة الملك آرثر والكأس المقدسة فتحوي الكثير من التفاصيل التي تعكس تواصلاً بين بريطانيا، والشرق في مرحلة ما قبل التاريخ، بالإضافة إلى قصص أخرى يظهر فيها التأثير الإسلامي الشرقي على أوروبا عموماً في فترة الحروب الصليبية.

وفي اعتراض جذري على كل ما سبق حول الأسطورة الآرثرية، يقدم سي سكوت ليتلتون وليندا ميلكور C.S Scott Litteton, Linda Melcor في كتابهما «من سيثيا إلى كاميلوت From Scythia to Camelot» فرضية جديدة مفادها أن أصول الأسطورة الآرثرية ليست سلتية على الإطلاق، بل قدمت إلى بريطانيا من بلاد القوقاز مع بدو ألانو أجداد شعب أوسيتيا الموجود حالياً في آسيا الوسطى، فقد كان هؤلاء البدو جنوداً ضمن فيالق الجيش الروماني[2]، غير أن هذه الفرضية لم تلق رواجاً يذكر بين الباحثين في السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين، وعادت فرضية الأصول السيثية للأسطورة الآرثرية؛ لترقد بسلام إلى جانب مثيلاتها في القرون الوسطى وعصر النهضة، التي كان بعضها

(1) Martin Bernal, Black Athena: The Afroasiatic Roots of Classical Civilization (New Brunswick, N. J.: Rutgers University Press, 1987. Mary R. Lefkowitz, Black Athena Revisited, ed. Mary R. Lefkowitz (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1996); and Martin Bernal, Black Athena Writes Back: Martin Bernal Responds to His Critics, ed. David Chioni Moore (Durham: Duke University Press, 2001).

(2) C. Scott Littleton and Linda A. Malcor, From Scythia to Camelot: A Radical Reassessment of the Legends of King Arthur, the knights of the Round Table, and the Holy Grail, Garland Reference Library of the Humanities (New York: Garland, 1994).

يطرح فكرة الجذور السيئية للثقافة البريطانية.

يقول موريس أوليندر Maurice Olender في كتابه «لغة الفردوس The Language of Paradise»: إن طريق الإنسانية للبحث عن اللغة الأصلية والجذور الأولى كان دوماً محفوفاً بالمصاعب والعقبات، وقد أدى إنشاء فرضية أولوية اللغات الأوروبية الهندية إلى عملية إزاحةٍ من الجغرافيا واللغويات؛ لينتقل أصل الحضارة من نقطة الأصل السامي والعبراني إلى الحضارة الإنسانية كما وردت في الكتاب المقدس إلى نقطة الأصل الآري والأوروبي الهندي، وفق ما قررت الدراسات اللغوية الجديدة، والدراسات العرقية والقومية في القرن التاسع عشر. وبناءً عليه يقول الفيلسوف الألماني هيردر Herder: إن نهر الغانج المقدس في الهند قد يكون هو ذاته «نهر الفردوس»[1].

لقد استخدمت القومية الألمانية في بداية تكوينها حالة الاستشراق؛ لتأكيد استقلالية الماضي الألماني وتحرره من السلطة الرومانية إلى الأبد، فالعرق المتخفي في صورة اللغة يتفوق على الثقافة بالتأكيد.

نشأت النظريات التاريخية التي تعرضنا لها في هذا الفصل تحت تأثير عدة عوامل ومتغيرات غيرت من حالتها مع مرور الزمن، إذ إن ما قام بها الآثاريون الأوائل من محاولات؛ لتعديل وتغيير النظريات الخيالية حول أصول الثقافة البريطانية، الذي كان قائماً في روايات القرون الوسطى مثل رواية جيفري مونماوث، كان بهدف تقريب الصورة القروسطية من مقاييس الحداثة، وفي الوقت ذاته كانت أبحاثهم ونتائجها تهدف إلى دعم تحالفات مؤسساتية مختلفة ومتعارضة في بعض الأحيان مثل الكنيسة الإنجليزية والإصلاح البرلماني. وفي أثناء بحثهم الموسع عن المعلومات التاريخية التي وُجدت بذورها الأساسية

(1) Maurice Olender, The Languages of Paradise: Aryans and Semites, a Match Made in Heaven (New York: Other Press, 2002), 3.

في الرواية الدينية الإنجيلية التي أُخضعت فيما بعد للتحليل العلمي، أسهموا في إنتاج مصطلحات سردية خاصة استخدمتها الإمبريالية والكولونيالية في خطابها، ومن هذه المصطلحات تلك المتعلقة بفصم العلاقة بين الشرق والقرون الوسطى، مما أسهم في إثراء التساؤلات النقدية حول الثقافة القروسطية فيما يخص الرومانسية كجنس أدبي والعمارة القوطية، وهو موضوع فصلنا السابق في هذا الكتاب.

وهكذا استبدلت الصورة النمطية للقرون الوسطى الاستشراقية؛ لتمثيلها التدهور والوحشية في الثقافية الغربية بصورة مختلفة يظهر فيها الشرق مصدراً للعلوم والفنون والأساطير؛ استقى منه الغرب أصول ثقافته، وبذلك يمكن لمستقبل هذا الشرق أن يكون تجسيداً للسيطرة الأوروبية وهيمنتها.

الفصل الثالث

القرون الوسطى: وسيلة عرض

توسعت دراسات الأدب القروسطي بصورة مطّردة مع نهايات القرن التاسع عشر، وبالتزامن مع تطور الأنثروبولوجيا، التي أبدت اهتماماً خاصاً في تلك الفترة بما كان يعد ثقافة المجتمعات، وطقوسها البدائية، وبطريقة ما فإن الأدب القروسطي، والثقافات الإثنية كانت تنضوي تحت التصور ذاته.

وفضلاً عن ذلك، كانت الدراسات الأدبية المفصلة في ذلك الوقت تعيد تأسيس النتاج المادي للدراما القروسطية، في حين انشغلت الدراسات الأنثروبولوجية بإعادة تأسيس الثقافات وعرضها، حيث ظهر توجه جديد في الأنثروبولوجيا أواخر القرن التاسع عشر يُعنى بالعروض الجماهيرية.

ومن الموضوعات التي يتناولها هذا الفصل، طريقة إعادة تعريف مفهوم القروسطية أواخر القرن التاسع عشر، في ضوء صعود الدراسات الأنثروبولوجية التي ارتبطت، وإن كان بصورة غير مباشرة بأفكار نيتشه وداروين المتعلقة بالأعراف والتطور. ولذلك فنحن نقترح بأن بعض تلك المقاربات كانت تُقدم بصورة مرئية، وفي اللحظة التي بدأت فيها مأسسة الدراسات الأدبية القروسطية عادت إلى الوجود صورة القرون الوسطى المتناقضة المتمثلة في أنها أجنبية ومحلية في الوقت ذاته.

ابتدعت القوى الأوروبية الكبرى، منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى بدايات القرن العشرين، فكرة المعارض الدولية الضخمة التي كانت تعرض فيها قوتها الاقتصادية، وتقدمها التكنولوجي ومكتسباتها الكولونيالية الجديدة[1].

(1) John Allwood, The Great Exhibitions (London: Studio Vista, 1977); and Wolfgang

تطورت الأبحاث والأدبيات التي تناولت موضوع المعارض الدولية خلال العقدين الماضيين، وبخاصة تلك المتعلقة بالمعارض التي ظهرت في القرن التاسع عشر. وبدا أن هناك اهتماماً خاصاً بالجانب الرمزي التمثيلي للتاريخ الاجتماعي لأوروبا عبر محاكاة البيئة، التي تعكس ثقافتنا كما فهمها مجتمع القرن التاسع عشر. وفي الوقت ذاته، حوّل المؤرخون والمفكرون اهتمامهم إلى جانب آخر من جوانب القرن التاسع عشر، ألا وهو الهوس بكل ما يتعلق بالقرون الوسطى[1].

Friebe, Buildings of the World- Exhibitions ([Leipzig, East Germany]: Edition Leipzig, 1985. Paul Greenhalgh, Ephemeral Vistas: The Expositions Universelles, Great Exhibitions, and World's Fairs, 1851-1939 (Manchester: Manchester University Press, 1988. Robert W. Rydell, All the World's a Fair: Visions of Empire at American International Expositions, 1876-1916 (Chicago: University of Chicago Press, 1984. Robert W. Rydell, The Books of the Fairs: Materials About World's Fairs, 1834-1916, in the Smithsonian Institution Libraries (Chicago: American Library Association, 1992. PA. Morton, Hybrid Modernities: Architecture and Representation at the 1931 Colonial Exposition, Paris (Cambridge, MA.: MIT Press, 2000).

(1) R. Howard Bloch and Stephen G. Nichols, Medievalism and the Modernist Temper, ed. R. Howard Bloch and Stephen G. Nichols (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1996); Umberto Eco, Travels in Hyper Reality: Essays (San Diego: Harcourt Brace Jovanovich, 1986); Laura Morowitz and Elizabeth Emery Consuming the Past: The Medieval Revival in Fin-de-Siede France (Aldershot: Ashgate, 2003); Angela Jane Weisl, The Persistence of Medievalism: Narrative Adventures in Contemporary Culture, New Middle Ages (New York: Palgrave, 2003); Janine Rosalind «Dakyns, The Middle Ages in French Literature 1851-1900 (London: Oxford University Press, 1973); Alice Chandler, A Dream of Order: The Medieval Ideal in Nineteenth Century English Literature (Lincoln: University of Nebraska Press, 1970); Kathleen Biddick, The Shock of Medievalism (Durham London: Duke University Press, 1998); and Kathleen Biddick, The Typological Imaginary: Circumcision, Technology, History (Philadelphia: University of Pennsylvania.

لكن هذا الاهتمام كانت له دعامة أخرى في التاريخ المعاصر أيضاً، إذ ظهرت القرون الوسطى في عدد كبير من الأعمال الأدبية، وفي الخطاب الأكاديمي كذلك؛ لتمثل اللحظة الأخيرة قبل الحداثة في الحضارة الغربية.

قد يظهر تناقض بين اهتمام المؤرخين والمفكرين بالمعارض الدولية والقرون الوسطى في ثقافة القرن التاسع عشر، للوهلة الأولى، بَيْدَ أن الرابط موجود بالتأكيد، إذ إن معارض القرن التاسع عشر لم تكن تحتفي بأوروبا الحديثة وإنجازاتها فقط، وإنما كانت تعرض أيضاً جوانب الماضي القروسطي لأوروبا. ومنذ إقامة المعرض الكبير عام 1851 فصاعداً، شهدت المعروضات القروسطية رواجاً عظيماً في المعارض الدولية[1].

بالنسبة إلى معظمنا، فقد عرفنا فكرة العلاقة بين تلك المعارض والقرون الوسطى من هنري آدمز Henry Adams (1838–1918)، الذي خلف عدداً من الكتب يصف فيها موجودات تلك المعارض، وما فيها من أعاجيب[2]، ولاسيما تلك المعارض التي أُقيمت في باريس عام 1900، وحَوَت أجنحة خاصة لكل ما يتعلق بالقرون الوسطى من أبنية أُعيد تمثيلها، وملابس، وتراث أدبي[3] تعود

Press, 2003).

(1) Rydell, The Books of the Fairs.

(2) Henry Adams, The Education of Henry Adams: An Autobiography, ed. Henry Cabot Lodge (Boston: Houghton Mifflin Co., 1918); Henry Adams, Mont-Saint-Michel and Chartres (Boston: Houghton Mifflin Company Riverside Press, 1913); Henry Adams, The Letters of Henry Adams, ed. J. C: Levenson (Cambridge, MA.: Belknap Press of Harvard University Press, 1982); Henry Adams, Supplement to the Letters of Henry Adams: Letters Omitted from the Harvard University Press Edition of the Letters of Henry Adams, ed. J.C. Levenson (Boston: Massachusetts Historical Society, 1989).

(3) Richard D. Mandell, Paris 1900: The Great World's Fair (Toronto: University of Toronto Press, 1967. Barrett Eastman, Paris, 1900: The American Guide to City and Exposition (New York: Baldwin & Eastman, 1899). Marius Bar, The Parisian

كلها إلى فترة القرون الوسطى.

لا يقتصر هدفنا في هذا الفصل على وصف بعض الأمثلة من المعروضات القروسطية في المعارض العالمية، وإنما إماطة اللثام عن بعض النماذج، والمعاني الخفية من وراء عرضها في تلك المعارض أيضاً، وسنرى لاحقاً أن النماذج القروسطية لعبت دوراً معقداً، وغير متوقع في التخطيط؛ لإقامة المعارض العالمية.

تزايدت أعداد تلك المعارض في النصف الثاني من القرن التاسع عشر لتصل إلى إقامة معرض كل خمس سنوات تقريباً، تُظهر فيه الدول المشاركة تقدمها الصناعي والتكنولوجي، بالإضافة إلى توسعها الإمبريالي باتجاه الشرق، وتوغلها في إفريقيا، ولذلك فقد احتوت تلك المعارض على المواد الأولية، والصناعات اليدوية، والثروات الطبيعية الموجودة في المستعمرات، فضلاً عن ثروات دول الشرق المستقلة عن الإمبراطورية.

غير أن الطابع الإمبريالي لهذه المعارض شكل عقبة أمام عرض الماضي الأوروبي القروسطي الخاص قبل مرحلة الإمبريالية، فقد كانت القرون الوسطى والشرق يُشكلان ثنائياً ثقافياً في جوانب عدة مثل الأساليب الفنية، والأصول اللغوية بالإضافة إلى مراحل التطور الثقافي.

كانت النماذج القروسطية المعروضة في المعارض الدولية تُظهر القرون الوسطى بأنها محلية، وأجنبية في الوقت ذاته، وترجع هذه الازدواجية في التقديم إلى تاريخ تداخل فيه مفهوم الاستشراق بالقرون الوسطى في العمارة واللغويات والأدب، ولذلك فقد عكست تلك النماذج نظريات سابقة حول أصول الاستشراق في الأدب القروسطي، والعمارة القروسطية التي تعرضنا

Dream City:A Portfolio of Photographic Views of the World's Exposition at Paris (St. Louis, MO.: N.D. Thompson Publishing Co., 1900).

لها في الفصول السابقة.

ساهمت الدراسات الآثارية والرومانسية في القرن الثامن عشر، بالإضافة إلى المعرفة المباشرة بالثقافة الشرقية، في تغيير الأفكار السلبية المتعلقة بالقرون الوسطى والشرق، فأخذ مصممو الحدائق يستقون المواضيع الشرقية والقروسطية، لتصبح جانباً أساسياً من المشهد الجمالي في تصاميمهم، أما التاريخ الثقافي فقد اكتشف الشرق مثلما اكتشف عصر النهضة الآثارية الكلاسيكية حسب رأي رايموند شواب في كتابه النهضة الشرقية The Oriental Renaissance، كما كان الباحثون يتنقلون بين الدراسات الشرقية والقروسطية دون صعوبات تُذكر. لقد مثلت القرون الوسطى زمن «الآخر» بالنسبة إلى واقع الحضارة الغربية، أما مكان هذا «الآخر» فقد مثله الشرق. وما فعله السير وليام جونز من إعادة تقديم للغة السنسكريتية، لم يكن إلا توحيداً لحضارات العالم من خلال الدراسات اللغوية التي أضفت هالة جديدة على لغويي القرون الوسطى بربطهم باللغة السنسكريتية القديمة[1].

أدى اكتشاف اللغة السنسكريتية إلى استنباط نظام مواز للأصول، غير النظام الموجود في الرواية التاريخية الدينية للإنجيل، مما نتج عنه بصورة حتمية تشكيك، وتشويه لتلك الرواية، واستبدال لنظرية الاستشراق الديني الذي تعرضنا له في الفصول السابقة بنظرية الاستشراق الأنثروبولوجي الذي تطور بالتزامن مع تطور الرومانسية، ومنح التراث القديم مكانة مهمة توازي أهميتها أهمية التراث الكلاسيكي من حيث الأولوية والتعقيد.

ظهر الحماس الشديد للأساطير السلتية في الرواج الذي لقيته ترجمة قصائد أوسين Ossian المستندة إلى الأساطير الإيرلندية، وتزامن ذلك مع ظهور

(1) George J. Metcaif «The Indo-European Hypothesis in the Sixteenth and Seventeenth Centuries,» in Studies in the History of Linguistics: Traditions and Paradigms, Dell Hymes (Bloomington: Indiana University Press, 1974), 233-57.

الجمعية الآسيوية، وكانت الظاهرتان تعبران معاً عن توق وحماس شديدين للعالم القديم، فقد كان معظم الباحثين أعضاء في الجمعية السلتية والجمعية الآسيوية في الوقت ذاته، لما بينهما من قواسم مشتركة[1]، حتى إن السير وليم جونز William Jones يقارن في ترجمته لأسطورة شاكونتالا Shakuntala الهندية، المكتوبة أصلاً بالسنسكريتية، بين القصيدة السنسكريتية وقصائد أوسين السلتية[2]. ظهرت كذلك مقارنات أخرى بين القصائد السنسكريتية والملاحم الأوروبية مثل ملحمة نايبلانغنلايد Neibelungenleid الألمانية، التي تدور أحداثها في فترة ما قبل المسيحية في أوروبا، غير أن هاينريش هاينه Heinrich Hein (1797–1856) انتقد هذه المقارنة رغم اعترافه بانتشار الملحمة، الذي يعزوه إلى كاثوليكية شليغل Schlegel، ويأخذ هاينه على الأخير محاولاته إيجاد ارتباط بين الكاثوليكية والهندوسية في الأعمال التي أسهم في ترجمتها، مثل ملحمة الماهابهاراتا، والرامايانا وكلتاهما من الملاحم الهندية[3].

يستشهد شواب Schwab بآراء فيكتور هوغو (1802–85) Victor Hugo حول إحلال القرون الوسطى على قمة هرم الثقافة العالمية إلى جانب الثقافة الفارسية والهندية من جهة، والثقافة الإغريقية من جهة أخرى، وقد تأثر هوغو بأفكار المستشرق الألماني إوكستين، الذي كان يعمل في الدراسات الاستشراقية في فرنسا، وقد حاول استبدال تأثير الثقافة الفرنسية بالثقافة الشرقية؛ لإثراء الثقافة الألمانية، وهو رأي غريب بالنسبة إلى شخص عاش ودرس في فرنسا؛ أي في أحضان الثقافة الفرنسية، غير أن إوكستين كان يدين بمحاولاته تلك

(1) Schwab, Oriental Renaissance, 83. Schwab here is paraphrasing Francois Joseph Picavet, Les Ideologues: Essai sur l'Histoire Des Idees (Paris: F. Alcan, 1891).

(2) Kalidasa, Sacontala, or, The Fatal Ring, trans. William Jones (Calcutta, 1789).

(3) Schwab, Oriental Renaissance, 75; Heinrich Heine, The Romantic School and Other Essays, ed. Jost Hermand, The German Library (New York: Continuum, 1985).

لهيردير Herder، الذي كان يسعى لاستبدال عصر النهضة الإيطالي بالقرون الوسطى الألمانية، كنقطة تحول جوهرية في تاريخ الثقافة العالمية.

يقول شواب إن القرون الوسطى الألمانية تمثل استمراراً للآثارية الهندية وصولاً إلى القرن التاسع عشر، ويتتبع شواب الثقافة الشرقية في رؤية فاغنر Waghner للقرون الوسطى[1]، الذي يرى أن الشرق هو مصدر الحضارة الألمانية في اللغويات والعراقة الآرية، وقد بلغ أوج مجده في القرون الوسطى المسيحية، أو على الأقل في القرون الوسطى ضمن رؤية فاغنر الخاصة.

كان الباحثون في أواخر القرن التاسع عشر ينتقلون من الدراسات الشرقية إلى الدراسات القروسطية بالسهولة ذاتها، التي انتقل بها من سبقوهم من الدراسات القروسطية إلى الشرقية، وقد كان لهذا التنقل أثره الواضح على ما يُعرف الآن بدراسات الأدب المقارن، إذ كانت الدراسات الأدبية في القرن التاسع عشر تهتم بمقارنة المواضيع، والحبكات، والشخصيات ضمن الأعمال الأدبية الأوروبية والشرقية.

من الواضح أن الرومانسية ساوت بين القرون الوسطى والشرق، لكنهما بقيا يسيران في خطين متوازيين باستثناء الهوية التاريخية الألمانية، التي رأت في القرون الوسطى تعبيراً عن التطور الذي بدأ في الشرق. وبالنسبة إلى معظم المفكرين، فإن أهمية القرون الوسطى وجاذبيتها تكمنان في «آخريتها»، وبخاصة؛ لأنها أزاحت النموذج الكلاسيكي الجديد، الذي يرجع كل الاكتشافات إلى الإغريق والرومان.

يؤكد فيكتور هوغو في مجموعته الشعرية الأولى «الشرق» على جمالية الشعر الشرقي وروعته، بقوله: «كل القصائد رائعة وثرية وتحمل الكثير من

(1) Schwab, Oriental Renaissance, 438-52.

المعاني، تماماً كالقرون الوسطى، إنها بحر آخر من الشعر»[1]. فبالنسبة إلى هوغو، كمنت قوة الشرق والقرون الوسطى في مراجعتهما للتاريخ في الماضي والحاضر: «ألن نحصل على رؤية أوسع لهذا الزمن الحديث عبر دراستنا للقرون الوسطى، وكذلك رؤية أوسع للزمن القديم بدراستنا للشرق؟»، وتتضمن ملاحظات هوغو هذه مجموعة من الافتراضات التي ترددت خلال القرن التاسع عشر، أن الشرق والقرون الوسطى كونان متوازيان، وليسا جزءاً من توليفة الاستعمار والتأثيرات الناتجة عنه، وأن المساهمة الأهم لتلك الحضارات الغابرة هو أنها استطاعت محاكاة مخيلتنا. لكنّ أكثر الفرضيات إثارة للاهتمام، هي افتراض علاقة مباشرة بين القرون الوسطى والحداثة، تفسر أصول الهوية المدنية والقومية، في الوقت الذي عُدَّ فيه الشرق متحفاً حياً للماضي ينفصل تماماً عن التطور الحديث وهو مستبعد تماماً عن إمكانيات التطور.

على الرغم من المكانة المرموقة للأصول الشرقية في تاريخ الرومانسية، فقد ظهر خطاب جديد في القرن التاسع عشر باتجاه تعزيز التفوق الغربي، حيث أصبح الغرب هو الوارث الحقيقي للغة السنسكريتية والحضارات القديمة عموماً، وأخذت الدراسات المقارنة تؤكد الطاقة الإبداعية القوطية مقارنة بحالة الثبات في العمارة الشرقية، وقد لاقت هذه الفرضية هوى في نفوس علماء اللغة الفكتوريين في القرن التاسع عشر، الذين كانوا يرون تناسقاً وإبداعاً في بناء الجمل في اللغات الهندية الأوروبية مقارنة بالتراكيب العشوائية المضافة في اللغات السامية، ويؤكد سعيد ذلك في عرضه لفرضيات رينان Renan في فقه اللغة، فهناك فصل بين الشرق والغرب في اللغة كما في القوة والسلطة[2]. ويحاول رينان في مشروعه أن ينزع عن اللغات الأصلية لسفر

(1) Victor Hugo, Les Orientales, Collection Poesie ([Paris]: Gallimard, 1964).

(2) Said, Orientalism, 139--43. Hans Aarsleff, The Study of Language in England, 1780-1860 (Princeton, NJ.: Princeton University Press, 1967); Hans Aarsleff,

التكوين قدسيتها، التي منحتها القوة من قبل؛ لتتحول هذه القوة إلى علماء اللغة وتصبح جزءاً من المعرفة الغربية. وهكذا أصبحت اللغة –بالإضافة إلى فن العمارة– شكلاً من أشكال التعبير عن الاختلاف العرقي والثقافي، وظهرت فئة اللغات «السامية» التي كانت تعرف قبل القرن الثامن عشر باللغات «الشرقية» نسبةً إلى سام بن نوح. وفي القرن التاسع عشر تحولت الفرضيات اللغوية إلى فرضيات تاريخية وسياسية صنفت الآراميين إلى شعوب مهاجرة، وحركية، ومتحولة، والساميين –وبخاصة العبرانيون منهم– إلى شعوب ساكنة منكفئة على ذاتها، تحمي ثقافتها وعقيدتها من التغيير. وضمن منظومة الكلاسيكية الجديدة، بدأت صورة الآريين تتخذ شكل الإغريقيين الجدد، باعثي الثقافة وناشريها.

يكشف تاريخ العمارة، الذي تطور إلى شكله الحديث في الفترة ذاتها التي تطور فيها تاريخ اللغة والأدب، عن تناقضات خاصة بين القرون الوسطى والشرق، وهي تناقضات قديمة وحديثة كذلك. يشير مارك كرينسون Mark Crinson إلى وجود العديد من المحاولات لفهم العمارة الكلاسيكية منذ منتصف القرن السابع عشر، بالإضافة إلى محاولات جادة أخرى لدراسة العمارة القوطية منذ أواخر القرن الثامن عشر. أما دراسات العمارة الإسلامية، فقد كانت نادرة قبل منتصف القرن التاسع عشر:

> «سعى الرحالة الذين قصدوا الشرق الأدنى لأسباب ثقافية أو تجارية أو دبلوماسية، في الغالب، لدراسة جغرافية المنطقة وحضارتها كما جاءت في الكتاب المقدس، أو استكشاف الحضارة المصرية التي تحمل آثار الجذور الأوروبية. ومن هذا

From Locke to Saussure: Essays on the Study of Language and Intellectual History (Minneapolis: University of Minnesota Press, 1982).

المنطلق يصبح الترحال في المكان ترحالاً في الزمان أيضاً، ويتحول الوصف من ترجمة للتاريخ الطبيعي إلى ملاحظة للتاريخ الثقافي»[1]، ويربط كرنسون Crinson ذلك النوع من الدراسات بتصاعد السيطرة الأوروبية على الإمبراطورية العثمانية، وتدخلها في شؤونها، بالإضافة إلى ظهور فروع الدراسات الإثنية المختلفة. أما علماء المصريات أمثال إدوارد لين Edward lane (1801–76)، فقد انجذبوا إلى العمارة الإسلامية في القاهرة مثلما انجذبوا إلى معالمها الأثرية القديمة، واعتبروا أن العمارة الإسلامية جزء من القروسطية، ويرى لين في كتابه «العادات والتقاليد في مصر الحديثة Manners and Customs of the Modern Egyptians» أن الحياة المصرية الحديثة هي امتداد لحياة القاهرة في القرون الوسطى دون تغيير يُذكر[2]. ولذلك فهو ينتقد جهود محمد علي في محاولة فرض صناعة حديثة في مصر؛ لأن ذلك يتناقض مع طبيعة المجتمع المصري الزراعي بالأساس، أما محمد علي الذي وصل إلى السلطة في مصر عام 1836 فقد كان يرى –كما رأى أتاتورك من بعده– أن مهمته هي تحديث مصر القروسطية الشرقية، والوصول بها إلى مصاف الدول الأوروبية. ولم تكن تلك

(1) Crinson, Empire Building. Patrick Conner, Oriental Architecture in the West (London: Thames and Hudson, 1979. Patrick Conner, The Inspiration of Egypt: Its Influence on British Artists, Travellers, and Designers, 1700-1900, ed. Patrick Conner (Brighton: Brighton Borough Council, 1983).

(2) Edward William Lane, An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians (London: C. Knight and Co., 1837).

المحاولات لتلقى إعجاب الأوروبيين، الذين كانوا يرون في الشرق ماضي أوروبا القروسطي، الذي يجب أن يبقى كما هو، فالمعماريون الذين زاروا إسطنبول والهند كانوا يُؤخذون بتفاصيل العمارة المتقنة التي تذكرهم بالعمارة القروسطية في أوروبا، أما وليم بورجيس William Burges فقد أعجب جداً بالمناطق الشمالية من إسطنبول، وبخاصة غالاتا والمدينة القديمة، وقارنها بمدينة بومبي في القرون الوسطى، وهي المدينة الإيطالية التي دمرها بركان فيزوف[1].

لو كانت هناك نقلة نوعية في فهم الشرق من مجرد وصف للمشاهد الجمالية إلى محاولة فهم جوهره، فإننا سنجدها في «وصف مصر Description de l'Egypt 1809–28» وهو الكتاب الذي يصف الثقافة المصرية وفنون العمارة فيها في فترة ما بعد غزو نابليون لمصر[2]. ويشير سعيد في تعليقه على هذا الوصف بأنه يتبع إيديولوجية خاصة تربط الثورة الفرنسية بالإمبراطوريات الآثارية القديمة، ومنها الحضارة المصرية القديمة، وليس الحاضر المصري الهمجي[3].

(1) Crinson, Empire Building, 154-55.

(2) Gilles Neret, Description de l'Egypte (Koln: Benedikt Taschen, 1994. Charles Coulston Gillispie, ed. Monuments of Egypt The Napoleonic Edition: The Complete Archaeological Plates from la Description de l'Egypte (Princeton, NJ: Princeton Architectural Press in association with the Architectural League of New York, the J. Paul Getty Trust, 1987).

(3) John M. MacKenzie, Orientalism: History, Theory, and the Arts (New York: St. Martin's Press, 1995. Julie E Codell and Dianne Sachko Macleod, eds, Orientalism Transposed: The Impact of the Colonies on British Culture (Aldershot: Ashgate, 1998); Jill Beaulieu and Mary Roberts, eds. Orientalism's Interlocutors: Painting, Architecture, Photography, Objects/Histories (Durham: Duke University Press, 2002).

يرى مارك كرنيسون Mark Crinson بأن الحاضر المصري هو قروسطي بالفعل، ولكن بالمعنى السلبي للكلمة، ويقول في ملاحظاته:

«إن دراسة الإسلام في مصر لا بد أن تغطي صورة مصر القديمة، والقروسطية، والحديثة، فمصر الحديثة ماتزال قروسطية بالفعل في طرائق الحياة فيها، ولكن لا بد أيضاً من جمع المعلومات الواقعية عن هذا البلد لغايات التحديث. إن الحضارة المصرية القديمة لاتزال تحمل حقائق خالدة وفاعلة، غير أن ثقافة أبناء تلك الحضارة الموجودين الآن تبدو قاصرة وفاسدة، ولذلك فإن عقلنة تلك الثقافة القروسطية، ومحاولة السيطرة عليها يبدوان أمراً لا مفر منه، ومع ذلك فإن محاولة السيطرة على ماضي مصر لا بد أن يمر عبر السيطرة على حاضرها»[1].

يستطيع الباحث أن يتتبع بعض المفاهيم الإيجابية حول التعبير عن الروحانيات في العمارة الإسلامية والقوطية منذ العام 1835، وقد عبر أوين جونز Owen Jones (1809–74) عن هذه المفاهيم في كتابه «تأثير الدين على الفن On the Influence of Religion upon Art»، حيث رأى أن العمارة الدينية تعبر عن ذكريات عرقية، ولقد قارن بين العمارة الإسلامية، والقوطية، والوضع الحالي للعمارة الدينية في بريطانيا:

«من يقف بقرب نافورة مسجد السلطان حسن في القاهرة، أو يعبر قاعات قصر الحمراء الخيالية، يشعر بالترجمة الحسية لتعاليم القرآن، ومن يعبر أروقة الكاتدرائية القوطية لا بد ان يترك خلفه مادية العالم الخارجي، ليذوب في غموض ذلك

(1) Crinson, Empire Building, 26.

المبنى، الذي يصلح لأن يكون بيت الله بحق، حيث تعبده الأرواح الطاهرة»[1].

وبالطبع، يقارب خطاب جونز هنا بين روحانية العمارة القوطية وحسية العمارة الإسلامية، إذ تفرض العمارة القوطية حالة من الخشوع والورع، بينما يعكس المسجد حسية تعاليم القرآن، ويستخدم أيضاً اللغة الدينية لوصف الكاتدرائية القوطية، والكنيسة الغربية استتباعاً، في حين يؤنث العمارة الإسلامية بوصفها بالحسية في ربط غير مباشر بالرومانسية، والجنسانية في وصف قصر الحمراء الخيالي، ومع ذلك فإن جونز يضفي قوة خاصة على العمارة الإسلامية بربطها، ولو أفقياً بنظيرتها الغربية وهي العمارة القوطية. وبالتأكيد، فإن القصر البلوري الذي كان جونز أحد مصمميه، يعكس هذا التناقض بين التصميم الخارجي للقصر، الذي يعكس الوقار والهيبة، وتصميمه الداخلي الذي يبرز مظاهر الحسية والصخب إلى أبعد الحدود[2].

ظهر كُتّاب في منتصف القرن التاسع عشر يُقدرون العمارة الإسلامية مثل جيمس فيرغسون James Fergusson (1808–86) في كتابه «فن العمارة المصور Illustrated Handbook of Architecture»، لكن هذا التقرير كان يشبه في بعض جوانبه الملاحظات التي ظهرت عن العمارة القوطية في القرن الثامن عشر، لكن في القرن التاسع عشر كانت العمارة القوطية تلقى الدعم من معماريين، ومؤرخين كبار أمثال بوغين وراسكن الذين كانوا ينظرون إلى العمارة القوطية

(1) Owen Jones, Lectures on Architecture and the Decorative Arts ([S.1.]: Printed for private circulation, 1863).

(2) Owen Jones, The Grammar of Ornament (London: Day and son, 1856. Owen Jones, The Alhambra Court in the Crystal Palace., Guides. and Hand books, Crystal Palace (London, 1854); Owen Jones, The Complete «Chinese Ornament»: 100 Plates, Dover Pictorial Archive Series (New York: Dover, 1990.

أنها تشبه في بعض الجوانب العمارة الكلاسيكية في بدايات تقدمها في القرنين السادس عشر والسابع عشر، أما الآن فالعمارة الإسلامية هي التي تمثل الجموح في قمة سطوعها: «لقد كانت الأمة المحمدية مدفوعة بالخيال وحرية التعبير لتجربة كل الأشكال المعمارية واستغلال كل الأفكار المتاحة سواءً في الطبيعة أو الفن»[1].

ويضيف فيرغسون في مكان آخر «لقد عشت ضمن أناس آخرين مازالوا يمارسون فنهم التقليدي، متبعين المبادئ ذاتها التي اتبعها معماريو القرون الوسطى؛ لإنتاج أعمال أكثر جمالاً وأصالة»[2]، ويُصر فيرغسون على أهمية المباني والصناعات التقليدية كأدلة حية على الثقافة المفقودة ويقول: «في الوقت الحاضر يستطيع تسعة أعشار السكان القراءة والكتابة، ويمكن لأي شخص أن يعبر عن رأيه بالكتابة، وسيكون هذا الرأي منشوراً في الأسواق في اليوم التالي، ولذلك فإن كل ما يتعلق بآراء الناس ومشاعرهم يمكن إيجاده في الكتب، غير أن ذلك لم يكن متاحاً في القرون الوسطى، أو في التاريخ الروماني أو الإغريقي، وبالطبع لم يكن متاحاً في التاريخ المصري أيضاً أو الهندي، فمن الخطأ تطبيق نظريات القرن التاسع عشر على تاريخ تلك الأمم»[3]. وفي سياق آخر يُظهر فيرغسون احتراماً خاصاً للإسلام وإنجازاته ما بعد الهجرة، لكنه مع ذلك يوظف الأفكار الغربية التقليدية في إرجاع جزء من النجاح الإسلامي إلى

(1) James Fergusson, The Illustrated Handbook of Architecture Being a Concise and Popular Account of the Different Styles of Architecture Prevailing in All Ages and All Countries (London: J. Murray, 1855), 469-70. See also James Rergusson, A History of Architecture in All Countries from the Earliest Times to the Present Day (London: J. Murray, 1862); James Fergusson, History of Indian and Eastern Architecture (NewYork: Dodd, Mead & Company, 1891).

(2) Fergusson, Illustrated Handbook, I: ii.

(3) Fergusson, Illustrated Handbook, I: xii xiii.

فساد الكنيسة الأرثوذكسية، وانحرافها وبخاصة في مصر وسوريا.

تثير كتابات فيرغسون الدهشة في عدد من المجالات ولاسيما تلك المتعلقة بالقوطية، إذ لا يرى فيرغسون في العمارة القوطية مقياساً للحكم على أشكال العمارة في العالم، ويقول: إنه لا يستطيع فهم العمارة القوطية أو رؤية جمالية خاصة فيها[1]، لكنه يقول أيضاً: «لقد فقدت حماسي للقوطية وعمارتها، لكن ذلك لم يكن موقفي في بداية حياتي المهنية عندما كنت طالباً في الفن والعمارة، فقد كنت أؤمن بشدة بالفنون القروسطية، غير أن هذا الايمان تزعزع بشدة بعد مواجهتي للعمارة المغولية في الهند، عندما عرفت فقط كم من جماليات تفتقدها العمارة القروسطية حتى في أسلوب السقوف المدببة التي ميزت العمارة القوطية»[2].

يناقش فيرغسون في الفصول الأولى من كتابه وجود تصور واحد خالد للجمال لا يتغير عبر الزمن، غير أنه يعود في فصل آخر من الكتاب؛ ليؤكد أن مبادئ هذا التصور قد وُظفت بطرق مختلفة من قبل الشعوب السامية والآرية والسلتية على وجه الخصوص، ويرى أن تحليل عوامل هذا التصور الجمالي مشروع علمي ثابت، بينما يصبح التحليل الإثني الجغرافي للتصور الجمالي حالة تاريخية متحولة ومتغيرة؛ تحكي قصة الأشخاص الذين كانوا وراء هذا الفن المعماري. وبذلك يتنبأ فيرغسون بأحد مذاهب الحداثة التي ظهرت فيما بعد، والتي تدعو المعماريين إلى تصميم أبنية وظيفية تخدم الهدف، والوظيفة اللذين يؤديهما هذا المبنى. وما المباني التي كان فيرغسون يمدحها ويستشهد بها في كتاباته مثل القصر البلوري، إلا شاهد على ميله نحو الحداثة الوظيفية في الفن المعماري.

(1) Fergusson, Illustrated Handbook, I: xiii.

(2) Fergusson, Illustrated Handbook, I: xiii-xiv.

يرفض فيرغسون مفهوم تقدم الحضارة كما يعرضه كوميت Comet، من طفولة لاهوتية إلى الماورائية في مرحلة المراهقة، وأخيراً المرحلة الفلسفية عند البلوغ، وفي المقابل يطرح فيرغسون فكرة أن أشكال الحضارة المختلفة والمرتبطة بصفات عرقية مختلفة توجد مع بعضها بالتزامن، ولكن لكل منها لحظة تاريخية خاصة، لكنه يشير أحياناً إلى التفوق الآري في مجالات محدودة، وهو ما اتفق مع الدعوات الفاشية في القرن العشرين. ومع ذلك، فإن تصنيفات فيرغسون تتفق مع التحليل العلمي للعمارة الذي قدمه في فصوله الأولى. وعلى الرغم من انتقاد فيرغسون للقوطية، فإن أكثر من ثلث كتابه المكون من أربعة أجزاء كان مخصصاً للعمارة القروسطية، التي تستند في تحليلها إلى منهج تقني وجمالي. ومع ذلك، فإن إطار ذلك التحليل يعكس افتراضات إثنية جغرافية، ويظهر ذلك في هذه الفقرة التي يحاول فيها التمييز بين القوطية الألمانية والفرنسية:

> «كما هو متوقع من الاختلافات العرقية، فإن تاريخ العمارة الألمانية يختلف بقدر كبير عن تاريخ العمارة الفرنسية، ولو كان الألمان ينتمون بالكامل إلى العرق الآري؛ لاستطاعوا في ظروف معينة تكوين تجمعات قروية تنضوي تحت سلطة عليا تحميهم»[1].

إلاّ أن السبب الأساسي لبقاء المعمار الألماني كان الوجود السلتي على الحدود الغربية، أما الاختلاف في الأشكال الجمالية في شمالي ألمانيا، فيرجع إلى تأثير الاختلاط بالدماء السلافية، الأمر الذي أدى إلى تراجع العمارة القروسطية الألمانية. كانت نظريات الانتقائية Eclecticism والإحيائية Revivalism تشكل قاعدة للنقاش الإيديولوجي في القرن التاسع عشر في بريطانيا الفكتورية وعدد آخر من الدول الأوروبية، ففي ألمانيا كان السؤال الأهم في ذلك الوقت، أي

(1) Fergusson, Illustrated Handbook, II: 1-2.

طراز في البناء نتخذ؟

يعلق مارك كرنيسون Mark Crinson على مثل هذه التساؤلات في دراسته حول الاستشراق والعمارة الفكتورية بقوله: «كان البناء في بريطانيا الفيكتورية يعني خلق معنىً جديد، إذ كانت العمارة «لفظية» بصورة أو بأخرى، ولها شخصية تعبيرية تعكس أفكاراً سياسية أو أخلاقية، ولذلك فإن اختيار طراز معماري دون غيره كان يعني اختيار معانٍ محددة»[1].

تطور الجدل بعد ذلك حول ملائمة الطراز القوطي للمناطق الشرقية بعد توسع الإمبراطورية، وطالبت جمعية كامدين للمعماريين بتصدير طراز الكنائس القوطية إلى كل مكان، لكن اتضح فيما بعد أن بعض خصائص ذلك الطراز لا تناسب أبداً مناخات بعض المستعمرات؛ لذلك تطورت لاحقاً بعض الأساليب المعمارية الانتقائية التي تعكس الثقافة المحلية والظروف المناخية القائمة. وعادة ما تضمنت هذه الانتقائية مواضيع شرقية تفاعل معها سكان المستعمرات الأصليون، وعمال البناء المحليون، وهكذا استبدلت المعالم القوطية المتجهمة بمعالم محلية أكثر ملاءمة للمحيط، رمزت إلى تغير واضح في توجهات الإمبراطورية من التبشير، والاستقطاب للمسيحية إلى الاهتمام بالتجارة والعلاقات الدبلوماسية، وتغذية الآلة العسكرية. لقيت هذه الانتقائية انتقادات شديدة من بعض الأوساط مثل دورية «إكلكسيولجست» التي رأت أن الكنيسة القوطية هي روح المسيحية الأصيلة في الداخل والخارج، ممثلة الثقافة الغربية الحقة، ولا يجوز استبدالها بنماذج محلية[2]. وبالتأكيد تجوهلت الانتقائية القوطية في عمارة المستعمرات البريطانية، كما حدث في الكنيسة البريطانية في الإسكندرية التي صممها جيمس وايلد James Wild 1845،

(1) Crinson, Empire Building, 9.

(2) E J. Hobsbawm and T.O. Ranger, The Invention of Tradition, ed. E J. Hobsbawm (Cambridge: Cambridge University Press, 1983).

وذلك لإرساء مزيد من التفاهم مع السكان غير المسيحيين أو غير الغربيين في البلاد.

بالنسبة إلى كنيسة كرايمين Crimean في إسطنبول، كان الطراز القوطي شرطاً من شروط التصميم لكن مع اقتراح بأن القوطية الجنوبية قد تكون أكثر ملاءمة للمكان، مع استبعاد أي إشارات إسلامية أو بيزنطية في البناء. ولكن، مراعاة للحساسيات الإسلامية لم يُسمح بإضافة أي تماثيل بشرية للزخرفة الخارجية للكنيسة، كما أسهمت الأقواس، وهي خاصية معمارية إسلامية، بألوانها المختلفة، في إضفاء صبغة شرقية على الكنيسة الغربية.

فاز بمسابقة تصميم هذه الكنيسة وليام برغس William Burges، ثم أضيفت لاحقاً عدة تعديلات على تصميمه، لكن بحلول عام 1863 تم اختيار جي إي ستريت G.E. Street –وهو الفائز الثاني في المسابقة–؛ ليكون المعماري المسؤول عن بناء الكنيسة[1]. ويحمل تصميم ستريت أهمية خاصة بالنسبة إلينا؛ لأن وليام موريس وفيليب ويب كانا من تلاميذه، وعلى عكس برغس الذي كان منفتحاً حيال عمله مع البنائين من إسطنبول، أصر ستريت على المقاييس البريطانية في البناء، على الرغم من أنه حاول تصميم النماذج الحجرية بطريقة بسيطة؛ لتناسب المهارات البدائية للعمال الشرقيين حسب اعتقاده، وكانت النتيجة بناءً ذا هوية وطنية ودينية، بدلاً من أن يكون متفاعلاً مع المشهد البيزنطي، والإسلامي للمنطقة. وتشير بعض الأدلة إلى أن العمارة الإسلامية والقوطية كانتا تُعدان بمثابة أساليب معمارية خاصة تناسب بعض الأماكن دون غيرها، وذلك في النصف الأخير من القرن التاسع عشر، وفي هذا المجال يصف لنا كرينسون تأثير المؤرخ والمستشرق أوستن هنري ليارد Austen Henry Layard على أسلوب المعمار الذي بنيت به قنصلية الإسكندرية

(1) Crinson, Empire Building, 139.

عام 1860[1]، إذ حمل ليارد تقديراً خاصاً للعمارة القروسطية، والشرق أوسطية القديمة، لكنه كان مسؤولاً أيضاً عن بعض المشاريع المعمارية القوطية في لندن، وقد عينه غلادستون المفوض الحكومي المسؤول عن تلك المشاريع، محاولاً دعم المزيد من التصاميم القوطية في المباني العامة في لندن. أما بالنسبة إلى قنصلية الإسكندرية فقد حاول ليارد أن يدعم مشروعاً يناسب الثقافة المحلية، وشجع المصمم الكلاسيكي الإيطالي تي إل دونالدسون T.L. Donaldson على مراجعة تصميمه الأصلي؛ لإضافة واجهة إسلامية للمبنى، غير أن النتيجة النهائية كانت أقرب إلى القوطية الإيطالية منها إلى العمارة الإسلامية.

ظهر افتراض شائع آخر في الفترة ذاتها، وهو أن العمارة الإسلامية ما هي إلا مرحلة من مراحل التطور في تاريخ العمارة نحو القوطية، وبخاصة فيما يتعلق بتوظيف الأقواس المدببة. ويشير إدوارد فريمان Edward Freeman في كتابه «تاريخ العمارة History of Architecture» الذي صدر عام 1849، أن العمارة الإسلامية تجمدت عند نقطة محددة في الزمن ولم تتطور؛ لتساهم في العمارة الغربية، بينما تطورت العمارة القوطية، مثلها كمثل كل ما هو غربي، وتحولت عبر عدة مراحل، ولكن فريمان يعود إلى وصف الخيال الشرقي مؤكداً روعته وسحره[2]، مع الإشارة إلى التحرر من الضوابط والحدود «هذا الخيال الجامع الخصب إلى أبعد الحدود، الذي لا يخضع لضوابط الذوق أو الاتساق العام». ثم يواصل فريمان تعليقه على العمارة الإسلامية عبر وصفه للقصر الملكي في صقلية، فيقول: «يعبق هذا القصر بالروح العربية ويستدعي كل مفاهيم الرومانسية والخيال الشرقي، التي عُرفت عن قاطني إسبانيا من العرب»[3].

(1) Crinson, Empire Building, 185-86.

(2) Edward Augustus Freeman, A History of Architecture (London: J. Masters, 1849), 271-72.

(3) Freeman, History of Architecture, 291.

تلقي كاثلين بيديك Kathleen Biddick الضوء على الجدل الدائر حول الزخرفة القروسطية في القرن التاسع عشر، وترى أن هناك انقساماً في فهم الأسلوب القوطي بين الأسلوب الطبيعي والعضوي في أواخر القرن الثامن عشر وبدايات التاسع عشر، كما حدث للمباني القوطية التي قام بتجديدها السير جيمس هول Sir James Hall في ويكر، وتوجهه نحو تصنيف الزخارف القوطية من وجهة نظر مرئية، وعرضها في لوحات مفهرسة، ناقلاً بذلك مفهوم القوطية من «التاريخي» إلى «العصري»[1]، ومحولاً الصورة القوطية إلى سلعة؛ مما سمح باكتساح استعمار داخلي جديد في بريطانيا تمثل بكنائس القوطية الجديدة ومبانٍ أخرى من الطراز ذاته. ويبدو أن بيديك تقدم لنا مخططاً مزدوجاً، فمن جهة يتم مسح الماضي كصورة بانورامية مرئية تشبه في فحواها النظرة الإمبريالية للأراضي الأجنبية التي لم تستعمر بعد، ومن جهة أخرى يُقصى العامل التاريخي من الصورة القوطية؛ لدمجها في الهوية الإنجليزية، وهو ما اكتشفته في أعمال فريمن، الذي يحاول في دفاعه عن القوطية تطهيرها من الارتباط بالزخارف الخارجية المتعلقة بالعمارة الإسلامية.

يعود ما لحظناه من تطور في اللغة المعمارية بين فيرغسون وفريمان إلى الدراسات الأنثروبولوجية المرتبطة بالفن المعماري، التي تأخذ في عين الاعتبار الأعراق والمناخ والجغرافيا، وبهذا تمثل طلاب الأدب القروسطي الفيكتوريين، إذ ورثت الدراسات الفيكتورية المحترفة تراث القروسطيين الهواة، الذي تطور عن الدراسات الآثارية والفلكلورية، وبقي الاهتمام بالفلكلور والتقاليد موجوداً بعد ذلك في الدراسات الفيكتورية، ثم انتقل عقب ذلك إلى القرن العشرين. ومع نهاية القرن التاسع عشر بدأ منظور التراث الفلكلوري يتحول

(1) Kathleen Biddick, The Shock of Medievalism (Durham: Duke University Press, 1998).

تحت تأثير التجربة الكولونيالية، ورافقه تطور أنثروبولوجي لدراسة ثقافة الشعوب المستعمرة وفهمها، غير أن هذا المنظور استخدم في النهاية لدراسة التقاليد المحلية للمستعمِر وثقافته. لقد حدثت عملية مماثلة في القرن الثامن عشر، إلاّ أنها لم تكن تستند إلى الشرعية الأكاديمية. فكما رأينا في الفصل الأول، أن القرون الوسطى التي تأسست في دراسات القرن الثامن عشر كانت مرتبطة بالشرق المدهش والماضي البدائي، وبالأصول والاختلاف، وبذلك كانت تلك الدراسات تتلاعب بالتصنيفات التي استخدمت في رفض المنجزات القروسطية في الأدب، والعمارة، ودورها في خطاب عصر النهضة والكلاسيكية الجديدة.

تلقى تاريخ الأدب الفيكتوري نقداً موسعاً حول اعتماده على نماذج تطورية فقط، ومن أبرز هذه الانتقادات كانت دراسة أو، بي هارديسون O.B. Hardison، الذي قوض الأسس التي قامت عليها دراسات مثل دراسة إي كي شامبرز O.B. Chambers «المرحلة القروسطية The Mediaeval Stage»[1]، التي يقول فيها: إن أجزاء من قداس الفصح تهجر الكنيسة؛ لتنطلق إلى شوارع المدن ملوثة بالعلمانية، والخصائص الواقعية. وهناك تزهر هذه الأجزاء من جديد، لكنها تفقد شيئاً فشيئاً جمهورها، وقوتها الدرامية؛ لتصبح أكثر تعقيداً وواقعية واصلةً إلى مرحلة عصر النهضة. غير أن هارديسون يعتبر أن حجة شامبرز تستند إلى الأفكار الداروينية، وتتجاهل الأدلة الموثقة والتطور الموازي في التراث الدرامي، بالإضافة إلى التركيبة الدرامية للطقوس الدينية ذاتها.

لم يقتصر التاريخ الأدبي الفيكتوري على النماذج التطورية فقط، وإنما كانت

(1) O.B. Hardison, Christian Rite and Christian Drama in the Middle Ages: Essays in the Origin and Early History of Modern Drama (Baltimore: Johns Hopkins Press, 1965); E.K. Chambers, The Mediaeval Stage (London: Oxford University Press, 1903).

هناك أيضاً نماذج علمية نافست النماذج التطورية، واقترحت نموذج الثقافة التراكمية التي لا تتغير إلا ببطء شديد، أو عند حدوث تغيرات كارثية تقلب كل شيء. ومن أقوى هذه النماذج كان نموذج التغيير الجيولوجي. وبالنسبة إلى مفكري العصر الفيكتوري، ارتبط علم الجيولوجيا حتمياً بمغامرات الاستكشاف وتوسع الإمبراطورية. لقد سمحت الجيولوجيا بخلق مشاهد خيالية، ثم قامت الأنثروبولوجيا بتعبئة فراغ المشهد بالشعوب المختلفة؛ لتخلق صورة مناقضة للتجربة الفعلية للعالم الحديث المتجه نحو التصنيع والمدنية، وهكذا قدم العلم صورة لعالم مايزال يحبو خلف العالم الحديث، الذي دخل مرحلة تحولات جذرية في جميع المجالات. وكما أعادت نظرية النشوء والتطور كتابة التاريخ الإنساني، فإن الجيولوجيا أعادت كتابة المشهد المادي لهذا التاريخ[1].

كانت هناك عملية بناء أخرى مماثلة للأدلة المادية التي أسست ماضي الإنسانية، وقد مثلت حملات التنقيب عن طروادة، التي قام بها شيلمان Schlieman نموذجاً جديداً في علم الآثار، الذي يسعى إلى إعادة تكوين سياق المشهد الأثري، لا تعداد ما فيه من معالم أثرية وحسب.

بدأ الاهتمام بالبحث والتنقيب عن الآثار القديمة في اليونان ذاتها بعد قيام الجمهورية مباشرة، غير أن أعمال التنقيب الرئيسية لم تحدث إلا في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين. أما إيطاليا، فقد ظهر فيها الاهتمام بالآثارية بعد توحيدها في القرن التاسع عشر؛ ليتم التنقيب عن المنتدى الروماني القديم وفتحه للجمهور، بالإضافة إلى اكتشاف بقايا المدينة الإيطالية بومبي التي دمرها بركان فيزوف.

قام الألمان بعد ذلك بتسيير حملات استكشافية إلى مدينة أولمبيا التاريخية في اليونان إبان الفترة ما بين عامي 1880 و1890، أما الفرنسيون فقد نقبوا عن

(1) Chambers, Mediaeval Stage, I, vi.

مدينة دلفي في الفترة ذاتها تقريباً، غير أن معظم هذه الحملات التنقيبية عن الآثار كان لها طابع رومانسي جمالي لا أكثر. لكن، مع نهاية العصر الفيكتوري، بدأت هذه الحملات تتأطر بوضوح، وأخذت عمليات التنقيب عن الآثار تؤسس علماً خاصاً بها؛ ليظهر علم الآثار، الذي كانت مهمته إلقاء الضوء على الماضي، وكشف النقاب عن العلاقة بين العمارة والمجتمع والدين.

أسس توماس رايت Thomas Wright؛ محرر النصوص القروسطية المعروف الجمعية البريطانية للآثار في بدايات العام 1840، وكانت مهمته في البداية تنحصر في الآثار القروسطية فقط. وبحلول عام 1880، انخرطت الجمعية على نطاق واسع في البحث عن آثار مرحلة ما قبل التاريخ، وهكذا تحولت القروسطية من كونها عصراً ذهبياً لا يمكن تجاوز أسره وفتنته إلى مجرد مرحلة من مراحل التطور التاريخي.

تعقدت العلاقة بين علم الأنثروبولوجيا والتاريخ في فترة الثمانينيات من العام 1800، وذلك بتأثير الأفكار الداروينية الاجتماعية[1]، إذ تحولت الأنثروبولوجيا إلى ناطق باسم الكولونيالية ومبرر لغاياتها التوسعية تحت شعار حماية البلاد الأقل تطوراً. أما الأنثروبولوجيا، التي تُعد الآن علماً قائماً بذاته، فقد انطلقت بالأساس من تلك الرؤية المتعلقة بالكولونيالية واهتمامها الشديد بموضوع التطور، حتى لو روج لتلك الأفكار أنثروبولوجيون لهم وزنهم مثل سبنسر Spencer ومورغان Morgan. تتقاطع كل من الدراسات الأنثروبولوجية والنماذج العرقية السائدة في إشكالية واحدة، ألا وهي وسائل العرض. فعلم فراسة الدماغ[2]، والمتاحف، وتطور التصوير الفوتوغرافي، والمعارض الدولية،

(1) Henrika Kuklick, The Savage Within: The Social History of British Anthropology, 1885-1945 (Cambridge: Cambridge University Press, 1991).

(2) علم فراسة الدماغ Phrenology: معرفة قوى الإنسان العقلية من شكل دماغه، وهو علم شاع في القرن التاسع عشر. (المترجم).

تُعرف كلها الآخر والسابق بأنه يمثل ثقافة العرض، أما نقطة التحول في تطور الدراسات الأنثروبولوجية التي تجمع بين النظر إلى الماضي والحاضر، فكانت كتاب فريزر «الغصن الذهبي» بتركيزه على ما هو سحري. وقد قدم فريزر في كتابه أسس البدائية الحديثة عبر اقتباسها في أدب القرن العشرين، كما أنه أسس شروط تمثيل الآخر المختلف عرقياً، الذي يمثل لدى بعضهم نقيض العقلانية والعلم - كما كان يقال عن القرون الوسطى سابقاً- إلاّ أنّ هذا العقل البدائي المختلف كان عملياً كذلك في اهتمامه بتطبيق السحر في مجالات حياته اليومية؛ مثل تأثيره على خصوبة الأرض؛ لتوفير احتياجاته. وفي الواقع، لقد حاولت المعارض العالمية إظهار النشاط البحثي الواقعي للأنثروبولوجيا كردة فعل على مؤلفات فريزر الأنثروبولوجية المؤلفة دون الاستناد إلى أدلة مادية، غير أن ما حدث كان على النقيض تماماً، إذ أكدت المعروضات جميع فرضيات فريزر وادعاءاته.

لقد استبدلت فرضية الشتات الآري القديمة بالنظريات الداروينية الاجتماعية الثورية منذ منتصف القرن التاسع عشر فصاعداً، كما أن الفرضيات السياسية والإمبريالية لتفوق العرق الآري كانت تمثل مشكلة بالنسبة إلى صورة القرون الوسطى، فضلاً عن أن صعود الدراسات الأنثروبولوجية، وعلاقتها الإيديولوجية بالكولونيالية كان لها كذلك أثر كبير على الدراسات القروسطية، ففي بدايات القرن التاسع عشر قامت الهوية الوطنية الرومانسية بإعادة تعريف الماضي القروسطي أنه مشهد يضم الأصول وجوهر المحلية. ولكن مع نهايات القرن، أخذ هذا المشهد يتزعزع وتتسرب الشكوك إليه. وعندما بدأت الأنثروبولوجيا تتطور في فهم شعوب المستعمرات الجديدة للإمبراطورية، طفقت في تطبيق تقنياتها الجديدة؛ لفهم عوامل الاختلاف في ماضينا الخاص، وعادات المستعمرين في مرحلة متقدمة من تطورها.

يتجلى تطور الأنثروبولوجيا وما لعبته من دور مزدوج في العلم والإيديولوجيا بصورة واضحة في المعارض العالمية، التي كانت تقام في القرن التاسع عشر، والتي كانت تستند في وجودها على صلتها التاريخية بالمهرجانات التجارية المقامة في أوروبا القرون الوسطى، وقد اشتهرت هذه المعارض في نهاية القرن التاسع عشر بما تعرضه اكتشافات الأنثروبولوجيا، وما أكثرها في تلك الفترة. بالإضافة إلى ذلك، لعبت المعروضات القروسطية دوراً هامشياً لكنه ذو علاقة وثيقة بتطور الأنثروبولوجيا، وهو تطور انتهى إلى تهميش رمزية القرون الوسطى مع نهاية القرن التاسع عشر.

عززت الدعاية الإعلامية التي أحاطت معرض القصر البلوري عام 1851 الجذور القروسطية للمعرض الضخم، فضلاً عن تأكيد الصورة الآرثرية للأمير ألبرت، التي كان قد رسمها لنفسه. أما ما حدث في السنة السابقة للمعرض، من إظهار للفنون القديمة والقروسطية في واجهة القصر بهدف إلهام المصنعين، والمنتجين نحو مزيد من الحرفية والدقة في منتجاتهم، فلم يكن إلا اختباراً؛ لافتتاح المعرض الضخم في السنة اللاحقة[1].

كان الجناح الهندي في المعرض واحداً من أكثر الأجنحة شعبية، فقد لقي رواجاً عظيماً بين الزوار، الذين حضروا تحت تأثير مفهوم الأصول الآرية المشتركة، مع أن الهند لم تكن بعد في تلك الفترة جزءاً من الإمبراطورية البريطانية بصورة رسمية.

لقد كان الغرض من المعروضات الهندية إظهار روعة الشرق ومهابته، وإبهارنا –نحن البريطانيين– بقدرة الثقافة البريطانية على استيعاب هذه الحضارة العظيمة. ويشرح فهرس المعرض الموجودات بفخر عظيم «هنا نجد القاعة الهندية، إفريقيا، ... جزر الهند الغربية، ثم هناك قاعة المعروضات

(1) Ffrench, The Great Exhibition, 1851.

القروسطية، أما البهو الكبير في نهاية المبنى فمخصص للأجهزة والمعدات من جميع الأنواع»[1]. قد يمثل هذا الاهتمام نوعاً من إعادة إحياء الآثارية القروسطية بعد أن فقدت بريقها لدى العامة، إذ كانت تُعد فترة تاريخية هزلية وخطيرة[2].

لقد أسهمت صورة الأمير ألبرت الآرثرية، بالإضافة إلى العمارة القروسطية للبرلمان الإنجليزي، في زيادة شعبية المواضيع القروسطية في منتصف القرن التاسع عشر، كما ساهمت أيضاً شعبية بوغين الواسعة في عودة القروسطية إلى دائرة الضوء، إذا كانت مؤسسات شركائه هي المسؤولة عن إظهار القرون الوسطى في أبهى صورها في المعارض الدولية، لكن بوغين لم يكن يعارض التكنولوجيا الصناعية الحديثة طالما كانت في خدمة العمارة القوطية، وقد تضمنت مؤسسات بوغين مؤسسة جورج ماير في لندن، وجون هاردمان في بيرمنغهام، التي امتلكتها عائلة كاثوليكية معروفة، وحتى بوغين ذاته كانت تلاحقه وصمة الكاثوليكية المرتبطة بالأجنبية، وانعكس ذلك على مشاركاته العامة[3]) حتى منتصف القرن التاسع عشر، عندما تبنت أفكاره الحركة الإنجليكانية، وأخذت تروج لعمارة الكنائس القوطية، وتنشرها في طول البلاد وعرضها. لم تقتصر المعروضات القروسطية، التي كانت -في الغالب- نماذج دينية، على القاعة القروسطية وحدها في معرض القصر البلوري الدولي، وإنما تعدتها إلى قاعات المعروضات الأجنبية أيضاً، ومن هذه المعروضات تمثال للعذراء الحزينة مع خلفية من القوطية الألمانية صممها إيرنست رايتشيل Ernst

(1) Official Descriptive and Illustrated Catalogue of the Great Exhibition of the Works of Industry of All Nations, 1851 (London: Spicer Brothers, 1851).

(2) Girouard, The Return to Camelot.

(3) Jeffrey A. Auerbach, The Great Exhibition of 1851: A Nation on Display (New Haven, CT: Yale University Press, 1999).

Rietschel؛ أحد أهم النحاتين الساكسونيين. ومن النماذج الصليبية عُرض تمثال ضخم لغودفري من بوليون، الذي توفي في عكا في القرن الثالث عشر، وقد صمم هذا التمثال النحات البلجيكي يوجين سيمونس، وقد أصبحت النماذج الصليبية موضوعاً مهماً في الفن الكولونيالي بعد ذلك بعدة عقود، لكنها غدت تُمثل الأفكار الروحية والدنيوية كذلك في منتصف القرن. كما أسهم بلاط الأمير ألبرت بعدد من المعدات القروسطية في المعرض الضخم؛ لإظهار اهتمام الأمير بتلك الفترة، وربط شخصيته بصورة الملك آرثر، وأسهم عدد من المؤسسات الأخرى في عرض منتجاتها أو مقتنياتها القروسطية؛ مثل شركة توبيس هوفمستيرز، التي قدمت أربعة مقاعد خشبية حفرت على الطراز القوطي الألماني، وقد كانت غاية في الدقة والحرفية، وكأنها مقاعد إحدى الكنائس القوطية القديمة.

نستطيع بعد هذا العرض المفصل لمعرض القصر البلوري أن نطرح فرضية مفادها أن القصر البلوري ذاته كان فكرة خيالية شرقية، تُظهر العالم الصناعي وكأنه القدس الجديدة المتلألئة بالأنوار، وهي ليست فرضية غريبة، فمنذ أواخر القرن الثامن عشر فصاعداً كانت العمارة الأوروبية تستعير العمارة الشرقية، والإسلامية في تصميم الحدائق والبيوت ذات الحدائق التي مثلت جنة عدن الشرقية. وإذا كان القصر البلوري يعكس في عمارته الخارجية الكنائس القوطية، فإنه يعكس العمارة الإسلامية من الداخل، وقد درس مصمم العمارة الداخلية للقصر أوين جونز Owen Jones العمارة الإسلامية بكل تفاصيلها وكان أول بريطاني يبرز في هذا المجال، وقد استخدم قصر الحمراء كنموذج للإضاءة والألوان الخاصة بالقصر البلوري[1].

ظهر نوع من القطبية في المواقف تجاه التصاميم الشرقية بعد المعرض الكبير

(1) Jones, The Alhambra Court.

في القصر البلوري، إذ شارك كل من هنري كول Henry Cole وأوين جونز في تأسيس قسم الفنون العملية عام 1852، بالإضافة إلى مساهمتهما في تأسيس متحف ساوث كنغرنتون، وكان كلاهما ينتقد الطبيعة الوظيفية للتصاميم المصنعة في المعرض الكبير، ويفضل الإنتاج الحرفي المعروف في بلاد الشرق والشرق الأوسط، ويعتبرانه موظفاً بصورة أفضل وبخاصة الزخرفة الإسلامية ثنائية الأبعاد، وقد خصص جونز في كتابه «قواعد الزخرفة The Grammar of Ornament» جزءاً كبيراً للزخرفة، والتصاميم الإسلامية يفوق ما خصصه للتصاميم القروسطية الأوروبية.

لقد قدم المعرض الكبير الثقافات الأخرى بطريقة مسرحية، وعجت القاعات التركية، والمصرية بالمعروضات التي تمثل لوحات معمارية مميزة، فضلاً عن أنها عكست روح الفخامة والثراء، أما القاعة التونسية فقد نُصبت فيها خيمة من جلود الحيوانات عُرضت فيها مختلف المنتوجات اليدوية التقليدية، وبعد النجاح الكبير للمعرض عام 1851 تقرر نقل موقعه المؤقت إلى موقع دائم في سيدينهام، وتضمن ذلك تغيراً في برنامج المعرض ونوعية معروضاته، فبدلاً من التركيز على التكنولوجيا الصناعية، أخذ القصر البلوري يمتلئ بالنماذج المعمارية المقلدة لأهم المعالم في العالم، وقام فيرغسون بتصميم القاعة الحبشية، أما جونز فقد صمم نموذجاً مطابقاً لقصر الحمراء، وكانت هناك أيضاً قاعة تمثل القرون الوسطى ضمن نماذج معمارية أخرى مختلفة منها الرومانية، والبيزنطية، والحبشية، والمصرية، والإسلامية، والإغريقية، والإيطالية. ولم يكن الهدف من وراء عرض هذه المجموعة الضخمة من النماذج المعمارية تتبع التطور التاريخي، بل مجرد عرض بانورامي للّحظات الثقافية المهمة في تاريخ تلك الحضارات. ومن وجهة نظر فنية محضة، كانت هذه الأعمال كلها متساوية، غير أن ردود الفعل المعاصرة لعرض تلك النماذج ميزت بحدة بين ما هو أهلي،

وما هو أجنبي بين المألوف والغريب الخارج على المألوف، وبين ما هو غربي وما هو شرقي، مما أتاح المجال بعد ذلك للمقارنات والتصنيفات التراتبية.

تبع المعرض الكبير عام 1851 عدد كبير من المعارض الأخرى الناجحة في العقود اللاحقة، وكانت كلها على غرار معرض 1851 مقامة تحت سقف واحد، إلاّ أنّ زيادة شعبية هذه المعارض، وزيادة عدد المعروضات الموجودة فيها دعت إلى تعدد أماكن العرض فيما يشبه الملحقات بالقاعة الرئيسية، فكانت تلك المعارض تقام في عدد من المباني على مساحة واسعة ترتبط مع بعضها بعدد من الممرات. وبعد زهاء ثلاثين سنة دخلت الأنثروبولوجيا كعامل مهم في تاريخ هذه المعارض، إذ ظهر في معرض باريس الدولي عام 1867 جناح كبير خاص بالمعروضات الأنثروبولوجية، تضمن معروضات ثقافية غير مألوفة وجوانب ترفيهية جديدة بعيداً عن أجنحة العرض، التي تضم وسائل الصناعة والتكنولوجيا ومنجزات القوى الإمبريالية[1]، وضم هذا الجناح أقساماً أوروبية تعرض مواضيع قروسطية وحداثية مختلفة. وبحلول موعد المعرض الهندي عام 1886، الذي كان يحتفي بانضمام الهند إلى الإمبراطورية، ظهر ارتباط ضعيف بين الماضي القروسطي لبريطانيا وحاضرها الكولونيالي، إذ ظهر في المعرض مشهد لعربة تجرها البغال تجوب شارعاً آسيوياً في مقاربة لمشهد قرية سيرلانكية، ويقابله مشهد لأحد شوارع لندن في القرون الوسطى قبل حريق لندن الكبير[2]. أما معرض باريس الدولي عام 1889، فقد ظهر فيه نموذج لبرج إيفل محاطاً بقرى مصغرة، في مقاربة بين التكنولوجيا الحديثة والبدائية. وفي معرض باريس عام

(1) Altick, The Shows of London, pp. 268-301.

(2) Frank Cundall, Reminiscences of the Colonial and Indian Exhibition, illus. Frank Cundall (London: W Clowes & Sons, 1886), Ernest T Hamy, Etudes Ethnographiques et Archeologiques sur l'Exposition Coloniale et Indienne de Londres (Paris: E. Leroux, 1887).

1900، خصص المعرض جناحاً خاصاً لعمارة الماضي والمستعمرات الكولونيالية الجديدة، ظهرت فيه مجسمات تمثل باريس القروسطية عام 1500 كما صورها فيكتور هوغو في أدبه[1]. وهكذا أخذت المدن القديمة جميعاً: لندن وباريس وفيينا، بالظهور مجسدة في المعارض الدولية مع بداية القرن العشرين، بتزامن مع المعروضات التي تكرس القوة الاقتصادية، والصناعية لأوروبا.

إذا كان الماضي القروسطي للمدن الأوروبية، التي تستضيف هذه المعارض يظهر وكأنه ماض مُستعمر، فإن حاضر المستعمرات الجديدة كان يُصَوَّر وكأنه من القرون الوسطى في استكمال لنظرية التطور التاريخي التي ظهرت في بداية القرن التاسع عشر، وقد كان إبراز شوارع القاهرة بمشربياتها العتيقة، والجِمال التي تجوب شوارعها سمة أساسية في جميع المعارض الأوروبية منذ العام 1880 فصاعداً، ولم تعد تلك الصورة تقتصر على القاهرة فحسب، وإنما اتسعت؛ لتمثل عالم الشرق عموماً، وأصبحت مادة ترفيهية مرغوبة من زوار تلك المعارض على اختلاف أهوائهم.

لقد ارتبطت صورة الشارع الشرقي بالصورة القروسطية لشوارع لندن، وباريس القديمة، وفي معرض عام 1867 في باريس، وصل الخديوي المصري إلى المعرض؛ ليجد أن بلاده يمثلها قصر ملكي من قاهرة القرون الوسطى، وليس هناك نموذج واحد يمثل التطور الحاصل في البلاد[2]. وفي معرض عام 1889، كانت القاهرة القديمة حاضرة أيضاً، يزينها الغبار والتراب الذي جُلب خصيصاً للمعرض[3].

(1) Morowitz and Emery, Consuming the Past.

(2) Timothy Mitchell, Colonising Egypt (Berkeley: University of California Press, 1988), 220.

(3) Zeynep Celik, Displaying the Orient: Architecture of Islam at Nineteenth-Century World's Fairs, Comparative Studies on Muslim Societies (Berkeley: University of

وحتى في المعارض المحلية التي كانت تقام لغايات محددة، كانت القرون الوسطى مرتبطة بالمهرجانات، والبازارات الشرقية، ففي معرض الصحة عام 1884 كانت صورة لندن القديمة بقذارتها، وعتمتها تمثل التناقض مع حاضرها الحديث بما يميزه من تمديدات صحية، وميزات علاجية حديثة، ومع ذلك فقد لقي الجانب القروسطي إقبالاً منقطع النظير لدى الزوار.

تكون نموذج واضح في المعارض الدولية عامة، يربط بين الكولونيالية والشرق، والقرون الوسطى بالترفيه من جهة، ويربط الأهلية والعمارة الغربية بالعمل والصناعة والتطور من جهة ثانية، مع بعض الاستثناءات التي حدثت في المعارض التي أقيمت في غير العواصم الكبرى. ففي معرض غلاسكو عام 1888 مثلاً، استعار المصممون الكثير من التصاميم من العمارة الشرقية، والإسلامية في بناء المبنى الرئيسي وقاعاته، فظهرت المعروضات الصناعية الغربية في قاعات شرقية خلابة، ولا تبرز الوثائق الخاصة بمعرض غلاسكو هذا الاختيار الخاص، ولكن يبدو أن هدف القائمين كان إظهار الارتباط بين التكنولوجيا الحديثة، والحضارات القديمة. وفي معرض آخر في غلاسكو عام 1911، حيث كان المحور الرئيس للمعرض العمارة الإسكتلندية، بالإضافة إلى التاريخ الإسكتلندي، والصورة الرومانسية لإسكتلندا، نلتقي هناك بنموذج لقرية إسكتلندية قديمة بعمارتها الخاصة، لكنها لم تكن تختلف كثيراً عن قرى تم عرضها سابقاً في مانشستر أو أدنبره.

تكرر ذلك النموذج في المعارض اللاحقة مثل معرض باريس عام 1878، حيث مثلت العمارة الأوروبية نماذج حديثة ومعاصرة، في حين ظهرت نماذج معمارية لمعالم أثرية قديمة؛ لتمثل الدول غير الغربية. وقد يرجع ذلك كما تقول بعض الدراسات الحديثة إلى أن وجود المعروضات الأجنبية كان يهدف

California Press, 1992).

للترفيه، وتقديم الطقوس الغربية ليس إلا، وما الأدوات والملابس والحرف اليدوية المعروضة إلا دعامات لهذا المشهد الترفيهي، وهذا ما حدث بالضبط في المعارض الأمريكية، إذ كانت المعارض تقسم إلى شقين: شق تعليمي وتسويقي تمثله الدول الأوروبية بما تعرضه من تكنولوجيا وصناعات تمثل الحاضر والمستقبل، وشق ترفيهي تمثله الدول الأجنبية الأخرى بما تعرضه من غرائب تثير الدهشة والمتعة في آن. وقد كانت النماذج الإثنية في هذه المعارض تستخدم للدراسة من جانب علماء الأنثروبولوجيا وطلابهم[1]، وحتى أوروبا ذاتها كانت تحظى بدرجة أقل من التقدير في المعارض الأمريكية، إذ كانت تُعد على درجة أقل من الحضارة، وحتى عام 1939، كانت القرى الألمانية، والسويدية، والدنماركية تعرض في المعارض الأمريكية؛ لتمثل أوروبا.

إن الإصرار على تقديم القرية الإنجليزية القديمة في مثل هذه المعارض يشي بازدواجية في التفكير تجاه محاكاة الماضي القروسطي. ففي المعرض الصحي الدولي عام 1884، عُرض نموذج لشارع قديم من شوارع لندن ضمن فعاليات المعرض، الذي كان مخصصاً؛ لإظهار الأجهزة والمعدات والخطط الموضوعة؛ لتحسين الصحة العامة[2]. وتلخص الهدف من عرض هذا الشارع القديم في إعادة التذكير بالصورة السلبية للماضي، مقارنة بالحاضر الفيكتوري النظيف، والآمن الذي يمثل صورة بريطانيا الحديثة. غير أن ما يثير الاهتمام أن صورة الماضي القروسطي تحولت منذ عام 1860 إلى مشهد فلكلوري مسرحي، حين

(1) Burton Benedict, The Anthropology of World's Fairs: San Francisco's Panama Pacific International Exposition of 1915 (Berkeley: Lowie Museum of Anthropology; Scolar Press, 1983).

(2) Annmarie Adams, Architecture in the Family Way: Doctors, Houses, and Women, 1870-1900, McGillQueen's/Hannah Institute Studies in the History of Medicine, Health, and Society (Montreal: McGill-Queen's University Press, 1996), 9-35.

أخذت المعارض الدولية تخصص الجناح القروسطي للعروض المسرحية الدرامية، والفقرات الترفيهية، التي يقدمها بعض المهرجين بأزيائهم الفاقعة الألوان.

يشير جي فريزر في كتابه «الغصن الذهبي» إلى الثقافة الأوروبية القروسطية أنها ثقافة تماثل العالم القديم، الذي تحاول وصفه، ولكن افتراضات فريزر هذه تتبلور بصورة أكبر مع نهايات القرن في كتاب أي كي شامبرز E.K. Chambers «المرحلة القروسطية The Mediaeval Stage»، حيث يصف شامبرز الثقافة الكلاسيكية بلغة عرقية: «يبدو أن غريزة التقليد والمحاكاة موجودة بصورة أكبر لدى شعوب البحر الأبيض المتوسط من باقي الشعوب» أما الرومان «فهم رياضيون، وليسوا مقلدين» ولديهم توجه مبالغ نحو الاستعراض وظفوه في حلقات صراع العبيد التي كانت تلقى رواجاً عظيماً، إلاّ أنّ شامبرز يعود دائماً إلى الدراما الفلكلورية، وهو يقول: إن هناك ثقافة فلكلورية زراعية موازية تستجيب فقط للتغيرات الموسمية، وتظهر ممارساتها تحت القشرة الخارجية للديانة المسيحية، إذ ترتبط العديد من الممارسات القديمة بالتقويم المسيحي، كما تتنكر الطقوس الوثنية للخصوبة في زي المهرجانات القروية المنتشرة.بما فيها من رقصات، وتعاويذ؛ لجلب المطر أو الشمس والتزين بأكاليل الزهور والتضحية بالحيوانات، كما أن أنواع الألعاب والمسابقات في هذه المهرجانات، تعود كلها إلى ممارسات الخصوبة الوثنية القديمة وطقوسها. وهناك أيضاً العروض التمثيلية والمسرحية، مثل مسرحيات روبن هود، ورقصة السيوف التي ترتبط بقوة بالعادات الفلكلورية.

مع بدايات القرن العشرين، كانت إسكتلندا وإيرلندا تمثلان في المهرجانات الإنجليزية بصورة ماضيهما القروسطي الرومانسي، في حين تمثل إنجلترا بحاضرها الصناعي والتكنولوجي؛ ليبرز الجزء السلتي من إنجلترا وكأنه مجموعة

من المستعمرات لا أكثر. أما القرية القروسطية الإنجليزية فقد كانت خارج هذا التصنيف وكأنها تمثل نموذجاً خاصاً من الشخصية الإنجليزية؛ نموذجاً كان قد تشكل في مرحلة ما قبل التصنيع. وعموماً كان هناك توجه ما بعد عام 1900 نحو عدّ العصر الإليزابيثي والثيودوري نقطة إنطلاق للإمبراطورية ذاتها، في الوقت ذاته الذي بدأت فيه قواعد الإمبراطورية بالاهتزاز.

مُثلت إنجلترا في معرض باريس 1900 بقصر على الطراز الثيودوري صممه السير إدوارد لوتينس Edward Lutyens؛ المعماري الشهير، وبطل التاريخ المعاصر لمرحلة ما بعد الحداثة، وقد صمم هذا القصر في أثناء فترة علاقته بالليدي ساكفيل، التي كانت تمول عدداً من مشاريعه، وقد ظلت علاقتهما وثيقة حتى إصابتها باضطرابات ذهنية في الفترة الأخيرة من حياتها[1]. وفي عام 1920 قدم لوتينس نموذجاً ثيودورياً آخر، ولكن بتصميم حديث.

قد تبدو هذه المعارض كأنها توظف القروسطية كموضوع ترفيهي فحسب، إلاّ أنّ الأدلة الموجودة حول رأي المعاصرين لها، تشير إلى جدية في استقبال النماذج القروسطية، واحترام شديد من جانب الجمهور، الذي كان يزور تلك المعارض. وترى إليزابيث إيمري، التي قامت بتحليل تطورات المعرض الفرنسي الدولي عام 1900، أن الاستقبال الحافل الذي قوبلت به المعروضات القروسطية في المعرض نمّ عن محاولة فرنسا أواخر القرن التاسع عشر الاستناد إلى الماضي القروسطي الفرنسي؛ لإعادة توحيد فرنسا التي قسمتها قضية دريفوس[2] إلى

(1) Jane Brown, Lutyens and the Edwardians: An English Architect and His Clients (London:Viking, 1996).

(2) قضية دريفوس: Dreyfus affair، فضيحة سياسية تضمنت إدانة أحد ضباط الجيش الفرنسي بالخيانة العظمى بسبب تسريبه أسراراً عسكرية للسفارة الألمانية في فرنسا، وحكم على الضابط بالسجن المؤبد. (المترجم)

قسمين متصارعين في المشهد السياسي[1]، وكأن هذه الصورة القروسطية تذكر فرنسا بما فقدته خلال عبورها إلى المدنية الحديثة. ويمسك ديفيد واين توماس David Wayne Thomas بالخيط ذاته في تعليقه على نموذج مانشستر القديمة، الذي عُرض في معرض مانشستر عام 1886، فهذا النموذج أعاد كتابة تاريخ المدينة، وكأنه يطبب الانقسامات المؤلمة التي خلفها تاريخها العمالي المؤلم[2]. يضيف ماكنزي Mackenzie كذلك أن المواضيع الشرقية والمصرية كانت إضافة مهمة للمشاريع المعمارية كما كانت المواضيع القوطية من قبلها، وقد وُظفت هذه المواضيع الشرقية في المشاريع المخصصة للترفيه والمتعة، مع أن بعضها كان -بالفعل- مأثرة معمارية عظيمة، وقد خصصت التصاميم المصرية، والإسلامية لدور السينما التي ظهرت حديثاً، في حين رأى فيرغسون أن الأساليب المعمارية الهندية، والإسلامية تتماشى مع الأساليب القوطية الحديثة، ولذلك فإن التأثير الشرقي يظهر جلياً في أساليب الفن الحديث وبخاصة في إسكتلندا[3].

تعيدنا هذه القراءات المختلفة للمعروضات القروسطية في معارض القرن التاسع عشر إلى الجدل المعقد حول طبيعة القرون الوسطى، الذي بدأنا به هذا الفصل. فكما قلنا سابقاً، كان هناك -ومنذ عصر النهضة- جدل ضمني أحياناً، وصريح أحياناً أخرى حول القرون الوسطى: إن كانت تمثل استمرارية لتطور الثقافة الغربية، أو أنها مرحلة قطيعة معها، وهل كانت القرون الوسطى أهلية، ومحلية ممثلة نقطة البداية للأمة الحديثة، أم أنها غربية، وأجنبية، ومفروضة، من

(1) Emery and Morowitz, Consuming the Past.

(2) David Wayne Thomas, «Replicas and Originality: Picturing Agency in Daniel Gabriel Rossetti and Victorian Manchester,» Victorian Studies 43, no. 1 (2000): 67-102. Alfred Darbyshire, A Booke of Olde Manchester and Salford, ed. George Milner (Manchester: John Heywood, 1887).

(3) MacKenzie, Orientalism: History, Theory, and the Arts.

قبل قوى خارجية؟ مازالت هذه الأسئلة معلقة حتى الآن وتلقى صدى واضحاً في تسيير القوى السياسية كما يقول باتريك جيري Patrick Geary في كتابه «أسطورة الأمم The Myth of Nations»[1].

لقد وضَّح المؤرخون، وعلماء الأنثروبولوجيا بكثير من التفاصيل في السنوات الأخيرة تأثير امتداد الإمبراطورية، ثم تراجعها في الداخل والخارج، ففي الوقت ذاته الذي تشربت فيه نخب المستعمرات التقاليد والعادات الغربية للمستعمِر، تسربت الأذواق الغربية إلى النخبة في الوطن الأم، ونحن هنا نطرح فرضية أن هذا التلاقح غير المتكافئ وُجد في الزمان والمكان أيضاً، إذ صُوّر الحاضر المتطور، والماضي البدائي للمستعمرات بأنه قروسطي، وفي المقابل صُوّر الماضي القروسطي بأنه غريب وبدائي. وما العروض الإثنية والقروسطية إلا مثال على هذا التصور. ولكن هناك أيضاً فرضيات أخرى لم تناقش بما يكفي في الدراسات، والأبحاث الفيكتورية والإدواردية، وحتى أكثر التحليلات تطرفاً في العصر الحديث حول الثقافة القروسطية، مازالت تكرر المفهوم الفكتوري في تطابق الثقافة القروسطية مع طريقة عرضها. وتُعرف القروسطية بأنها طريقة عرض، وهي تحمل في اللاشعور مفهوم القرن التاسع عشر حول الثقافة القروسطية أنها ثقافة للعرض والمشاهدة، وبذلك فإن مؤرخينا يستمرون في وصف القرون الوسطى بأنها تتمتع بالقِدم والحكمة ومع ذلك فهي طفولية ساذجة في الوقت نفسه. وأعتقد أننا ورثنا كل تلك التناقضات التي حللناها سابقاً؛ لأننا مازلنا نعتقد أن القرون الوسطى غريبة وقريبة، وممتعة ومخيفة في الآن ذاته[2]، وهي بعد كل ذلك تلك البلاد الغريبة التي تمثل أوطاننا.

---

(1) Patrick J. Gear; The Myth of Nations: The Medieval. Origins of Europe (Princeton: Princeton University Press, 2002).

(2) L.O. Aranye Fradenburg, Sacrifice Your Love: Psychoanalysis, Historicism, Chaucer (Minneapolis: University of Minnesota Press, 2002).

المراجع

Aarsleff, Hans. The Study of Language in England, 1780-1860. Princeton: Princeton University Press, 1967.

____. From Locke to Saussure: Essays on the Study of Language and Intellectual History. Minneapolis: University of Minnesota Press, 1982.

Ackerman, Robert William, and Gretchen P Ackerman. Sir Frederic Madden a Biographical Sketch and Bibliography. New York: Garland Pub., 1979.

Adams, Annmarie. Architecture in the Family Way: Doctors, Houses, and Women, 1870-1900. McGill-Queen's/Hannah Institute Studies in the History of Medicine, Health, and Society. Montreal: McGill-Queen's University Press, 1996. -

Adams, Eleanor Nathalie. Old English Scholarship in England from 1566-1800. New Haven: Yale University Press, 1917.

Adams, Henry. Mont-Saint-Michel and Chartres. Boston,' Cambridge: Houghton Mifflin Company Riverside Press, 1913.

____. The Education of Henry Adams: An Autobiography. Edited by Henry Cabot Lodge. Boston: Houghton Mifflin Co., 1918.

____. The Letters of Henry Adams. Edited by J.C. Levenson. Cambridge: Belknap Press of Harvard University Press, 1982.

____. Supplement to the Letters of Henry Adams Letters Omitted from the Harvard University Press Edition of the Letters of Henry Adams. Edited by J.C. Levenson. <Boston: Massachusetts Historical Society, 1989.

Aelfric. The Old English Version of the Heptateuch: Aelfric's Treatise on the Old and New Testament, and His Preface to Genesis. London: Published for Early English Text Society by the Oxford U.P., 1969.

Aldrich, Megan. «Gothic Sensibility: The Early Years of the Gothic Revival:» In A. W.N. Pugin Master of Gothic Revival. New Haven: Published for the Bard Graduate Center for Studies in the Decorative Arts, New York by Yale University Press, 1995.

Ali, Tariq. Shadows of the Pomegranate Tree. London: Verso, 1993.

____. The Book of Saladin. London: Verso, 1999.

Allen, Don Cameron. The Legend of Noah: Renaissance Rationalism in Art, Science, and Letters. Illinois Studies in Language and Literature: Urbana: University of Illinois Press, 1949.

Allen, M.D. The Medievalism of Lawrence of Arabia. University Park, PA: Pennsylvania State University Press, 1991.

Allwood, John. The Great Exhibitions. London: Studio Vista, 1977.

Altick, Richard D. The Shows of London. Cambridge, MA: Belknap Press, 1978.

Altick, Richard Daniel. The Shows of London. Cambridge, MA: Belknap Press, 1978.

Anderson, Benedict. Imagined Communities: Reflections on the Origin and Spread of Nationalism. London: Verso, 1983.

Andrewes, Lancelot. Selected Writings. Edited by P.E. Hewison. Fyfield Books. Manchester: Carcanet Press, 1995.

L'Architecture & la Sculpture a l'Exposition de 1900. Paris: A. Guerinet, 1904.

L'Architecture a I'Exposition Universelle de 1900. Paris: Librairies-imprimeries reunies, 1902.

Arden, Heather. Medievalism in France. Edited by Heather Arden. Studies in Medievalism. Michigan: Studies in Medievalism, 1983.

Art Journal. The Illustrated Catalogue of the Great Exhibition of London, 1851. Kennebunkport: Milford House, 1970.

____. The Illustrated Catalogue of the Great Exhibition of London, 1851. Kennebunkport: Milford House, 1970.

Ashley, Kathleen M. Victor Turner and the Construction of Cultural Criticism: Between Literature and Anthropology. Edited by Kathleen M. Ashley. Bloomington: Indiana University Press, 1990.

Atterbury Paul. A. W.N. Pugin Master of Gothic Revival. New Haven: Published for the Bard Graduate Center for Studies in the Decorative Arts, New York by Yale University Press, 1995.

Auerbach, Jeffrey A. The Great Exhibition of 1851: A Nation on Display. New Haven: Yale University Press, 1999.

Bacon, Nathaniel, and John Selden. An Historical and Political Discourse of

the Laws & Government of England from the First Times to the End of the Reign of Queen Elizabeth. With a Vindication of the Antient Way of Parliaments in England, Collected from Some Manuscript Notes of John Selden, Esq. London: Printed for J. Starkey, 1689.

Bakhtin, M.M. Rabelais and His World. Cambridge: MIT Press, 1968.

Bakhtin, M.M. and Michael Holquist. The Dialogic Imagination: Four Essays. Edited by Michael Holquist. Translated by Michael Holquist. University of Texas Press Slavic Series. Austin: University of Texas Press, 1981.

Bakhtin, M.M., and Caryl Emerson. Problems of Dostoevsky's Poetics. Edited by Caryl Emerson. Translated by Caryl Emerson. Theory and History of Literature. Minneapolis: University of Minnesota Press, 1984.

Bakhtin, M.M., V.N. Voloshinov, P.N. Medvedev, and Pam Morris. The Bakhtin Reader: Selected Writings of Bakhtin, Medvedev, and Voloshinov. Edited by Pam Morris. London: E. Arnold, 1994.

Bale, John. The Vocacyon of Johan Bale. Edited by Peter. Happe. Binghamton: Medieval & Renaissance Texts & Studies in conjunction with Renaissance English Text Society, 1990.

Ballantyne, Tony. Orientalism and Race: Aryanism in the British Empire. Cambridge Imperial and Post-Colonial Studies Series. NewYork: Palgrave, 2002.

Barczewski, Stephanie L. Myth and National Identity in Nineteenth Century Britain: The Legends of King Arthur and Robin Hood. Oxford: Oxford University Press, 2000.

Bar, Marius. The Parisian Dream City; A Portfolio of Photographic Views of the World's Exposition at Paris. St. Louis, MO: N.D. Thompson Publishing Co., 1900.

Beattie, James. Dissertations Moral and Critical. London: Printed for W. Strahan; and T. Cadell, in the Strand; and W Creech at Edinburgh, 1783.

Beaulieu, Jill and Mary Roberts. Orientalism's Interlocutors: Painting, Architecture, Photography. Edited by Jill. Beaulieu. Objects/Histories. Durham: Duke University Press, 2002.

Bedwell,William. Mohammedis Imposturae That is, a Discovery of the Manifold Forgeries, Falshoods, and Horrible Impieties of the Blasphemous

Seducer Mohammed: With a Demonstration of the Insufficiencie of His Law, Contained in the Cursed Alkoran, Deliuered in a Conference Had Betweene Two. Mohametans, in Their Returne from Mecha. London: Imprinted by Richard Field, 1615.

Benedict, Burton. The Anthropology of World's Fairs: San Francisco's Panama Pacific International Exposition of 1915. Berkeley: Lowie Museum of Anthropology; Scolar Press, 1983.

Benzie, William. Dr. F.J. Furnivall: Victorian Scholar Adventurer. Norman, Okla: Pilgrim Books, 1983.

Berman, Marshall. All That is Solid Melts Into Air: The Experience of Modernity. New York: Simon and Schuster, 1982.

Bernal, Martin. Black -Athena: The Afroasiatic Roots of Classical Civilization. New Brunswick: Rutgers University Press, 1987.

____. Black Athena Writes Back: Martin Bernal Responds to His Critics. Edited by David Chioni Moore. Durham: Duke University Press, 2001.

Bessmertny, Yuri L. «August 1991 as Seen by a Moscow Historian, or the Fate of Medieval Studies in the Soviet Era.' « American Historical Review (1992), 803-16.

Bhabha, Homi K. Nation and Narration. Edited by Homi K. Bhabha. London: Routledge, 1990.

____. The Location of Culture. London: Routledge, 1994.

Biddick, Kathleen: The Shock of Medievalism. Durham: Duke University Press, 1998.

Biddick, Kathleen. The Typoiogical Imaginary: Circumcision, Technology, History. Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 2003.

Bisaha, Nancy. «Petrarch's Vision of the Muslim and Byzantine East.» Speculum 76 (2001):284-314.

Bloch, R. Howard. and Stephen G. Nichols. Medievalism and the Modernist Temper. Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1996.

Bochart, Samuel. Samuelis Bocharti Opera Omnia. Hoc Est Phaleg, Canaan, et Hierozoicon. Quibus Accesserunt Dissertationes Variae Ad Illustrationem Sacri Codicis Aliorumqe Momumentorum Veterum. Praemittltur Vita Auetoris d Stephano Morino Descripta et Paradisi Terrestris Delineatio

Ad Mentem Bocharti. Lugduni Batavorum Trajecti ad Rhenum: Apud Cornelium Boutesteyn, & Samuelem Luchtmans. Apud Guilielmum vande Water, 1712.

Bochart, Samuel, Wust. Samuelis Bocharti Geographia Sacra Cujus Pars Prior Phaleg de Dispersione Centium & Terrarum Divisione Facta in AEificatione Turris Babel. Excusum Francofurti ad Moenum: Impensis Johannis Davidis Zunneri; typis Balthasaris Christophori Wustii., 1674.

Bodin, Jean. Selected Writings on Philosophy, Religion, and Politics. Edited by Paul Lawrence. Rose. Les Classiques de la Pensee Politique. Geneve: Librairie Droz, 1980.

Boece, Hector. A Description of Scotland. John Bellenden. London, 1587.

Boos, Florence Saunders. History and Community: Essays in Victorian Medievalism. Edited by Florence Saunders Boos. Garland Reference Library of the Humanities. London: Garland, 1992.

Brown, Jane. Lutyens and the Edwardians: An English Architect and His Clients. London: Viking, 1996.

Brownlee, David B. «Neugriechesch/Neo-Grec: The German Vocabulary of French Romantic Architecture.» Journal of the Society of Architectural Historians 50 (1991): 18-21.

Bruyne, Edgar de. Etudes d'Esthetique Medievale. Werken Uitgegeven Door de Faculteit Van de Letteren en Wijsbegeerte. Brugge: De Tempel, 1946.

Burke, Peter Popular Culture in Early Modern Europe. New York: Harper and Fow, 1978.

Burton, William. A Commentary on Antoninus. London: Printed by T. Roycroft, 1658.

Burton, William. The Description of Leicester Shire. London: Printed for John White, 1622.

Camden, William. Camden's Britannia, 1695. Edited by Edmund Gibson. NewYork: Johnson Reprint Corp., 1971.

Cannon, Garland Hampton. The Life and Mind of Oriental Jones: Sir William Jones, the Father of Modern Linguistics. Cambridge: Cambridge University Press, 1990.

Carley, James P and Julia Crick. «Constructing Albion's Past: An Annotated

Edition of De Origine Gigantum:» In Arthurian Literature XIII, 31-114. Woodbridge: D.S. Brewer, 1981.

Cervantes Saavedra, Miguel de. The Life and Exploits of the Ingenious Gentleman Don Quixote de la Mancha. Charles Jarvis. London: Printed for J. and R. Tonson and R. Dodsley, 1742.

Chambers, E.K. The Mediaeval Stage. London: Oxford University press, 1903.

Chandler, Alice. A Dream of Order: The Medieval Ideal in Nineteenth-Century English Literature. Lincoln: University of Nebraska Press, 1970.

Chateaubriand, Francois Auguste Rene. Genie Du Christianisme. Paris: Stereotype d'Herhan, 1807.

Chateaubriand, Francois Auguste Rene, and Charles Augustin Sainte-Beuve. (Evres Completes de Chateaubriand. Paris: Garnier freres, 1929.

Childe, V Gordon. The Aryans: A Study of Indo-European Origins. History of Civilization. London: Kegan Paul, Trench, Trubrier, 1926.

____. The Dawn of European Civilization. History of Civilization. London: K. Paul, Trench, Trubner, 1927.

____. Man Makes Himself. The Library of Science and Culture. London: Watts & Co., 1936.

____. What Happened in History. Pelican Books. Harmondsworth: Penguin Books, 1942.

____. Prehistoric Migrations in Europe. Serie A-Forelesninger. Oslo; Cambridge, MA; London: Aschehoug; Harvard University Press; Kegan Paul, Trench; Trubner & Co., 1950.

Clark, Kenneth. The Gothic Revival: An Essay in the History of Taste. New York: Humanities Press, 1970.

Codell, Julie E, and Dianne Sachko Macleod (eds. Orientalism Transposed: The Impact of the Colonies on British Culture. Aldershot: Ashgate, 1998.

Cohen, Jeffrey Jerome. Of Giants: Sex, Monsters, and the Middle Ages. Medieval Cultures. Minneapolis: University of Minnesota Press, 1999.

____ . The Postcolonial Middle Ages. The New Middle Ages. New York: St. Martin's Press, 2000.

Cohen, Jeffrey Jerome. Medieval Identity Machines. Medieval Cultures.

Minneapolis: University of Minnesota Press, 2003.

Cohn, Norman. Noah's Flood: The Genesis Story in Western Thought. New Haven: Yale University Press, 1996.

Collins, William. Oriental Eclogues [by W. Collins]. London, 1760.

Collins, William, Richard. Wendorf, and Charles. Ryskamp. The Works of William Collins. Edited by Richard. Wendorf: Oxford: Clarendon Press; Oxford University Press, 1979.

Colvin, Howard. Essays in English Architectural History, New Haven: Published for the Center for Studies in British Art by Yale University Press, 1999.

Conner, Patrick. Oriental Architecture in the West. London: Thames and Hudson, 1979.

____. The Inspiration of Egypt: Its Influence on British Artists, Travellers, and Designers, 1700-1900. Edited by Patrick Conner. [Brighton]: Brighton Borough Council, 1983.

Cotton, Robert. The Danger Wherein the Kingdome Now Standeth. The English Experience. Amsterdam: Theatrum Orbis Terrarum, 1975.

Crane, Susan. Insular Romance: Politics, Faith, and Culture in Anglo-Norman and Middle English Literature. Berkeley: University of California Press, 1986.

Crinson, Mark. Empire Building: Orientalism and Victorian Architecture. London: Routledge, 1996.

Cumberland, Richard. Sanchoniatho's Phoeician History. London: Printed by WB. for R. Wilkin, 1720.

Cundall, Frank. Reminiscences of the Colonial and Indian Exhibition. Edited by Frank. Cundall. Illustrated by Frank. Cundall. London: W Clowes & Sons, 1886.

Celik, Zeynep. Displaying the Orient: Architecture of Islam at Nineteenth-Century World's Fairs. Comparative Studies on Muslim Societies. Berkeley: University of California Press, 1992.

Dakyns, Janine Rosalind. The Middle Ages in French Literature 1851-1900. London: Oxford University Press, 1973.

Daniel, Norman. Islam and the West: The Making of an Image. Edinburgh:

University Press, 1960.

Daniel, Norman. Islam, Europe and Empire. Edinburgh: Edinburgh University Press, 1966.

____. The Arab Impact on Sicily and Southern Italy in the Middle Ages. Cairo: Istituto italiano di cultura per la R.A.E., 1975.

Daniel, Norman. The Arabs and Mediaeval Europe. London: Longman, 1979.

Darbyshire, Alfred. A Booke of Olde Manchester and Salford. Edited by George Milner. Manchester: John Heywood, 1887.

Davis, Kathleen. «National writing in the Ninth Century: A Reminder for Post Colonial Thinking about the Nation, «Journal of Medium and Early Modern Studies 28 (1998): 611-37.

Davis, Natalie Zemon. Society and Culture in Early Modern France. Stanford: Stanford University Press; 1975.

____. The Return of Martin Guerre. Cambridge: Harvard University Press, 1983.

____. Fiction in the Archives: Pardon Tales and Their Tellers in Sixteenth-Century France. The Harry Camp Lectures at Stanford University. Stanford: Stanford University Press, 1987.

Davis, Norman, and C.L. Wrenn. English and Medieval Studies Presented to J.R.R. Tolkien on the Occasion of His Seventieth Birthday. London: Allen & Unwin, 1962.

Dean, James M. The World Grown Old in Later Medieval Literature. Medieval Academy Books. Cambridge: Medieval Academy of America, 1997.

Denomy, Alexander Joseph. The Heresy of Courtly Love. New York: D.X. McMullen Co., 1947.

Dickins, Bruce. J.M. Kemble and Old English Scholarship. London: H. Milford, 1940.

Dobin, Howard. Merlin's Disciples: Prophecy, Poetry, and Power in Renaissance England. Stanford: Stanford University Press, 1990.

Drake, Nathan. Literary Hours or, Sketches, Critical, Narrative, and Poetical: London: Longman, Hurst, Rees, Orme, and Brown, 1820.

Drukker, Tamar. «Thirty-Three Murderous Sisters: A Pre-Trojan Foundation Myth in the English Prose Brut Chonicle:» Review of English Studies 54,

no. 216 (September 2003): 449-63.

Drukker, Tamara. «Thirty-Three Murderous Sisters: A Pre-Trojan Foundation Myth in the Middle English Prose Brut Chronicle:' Review of English Studies 54, no. 216 (September 2003): 449-63.

Eastlake, Charles L. and J. Mordaunt Crook. A History of the Gothic Revival. Edited by J. Mordaunt Crook. Leicester: Leicester University Press, 1970.

Eastman, Barrett. Paris, 1900: The American Guide to City and Exposition. New York: Baldwin & Eastman, 1899.

Eco, Umberto. Travels in Hyper Reality: Essays. San Diego: Harcourt Brace Jovanovich, 1986.

Ellis, Steve. Chaucer at Large: The Poet in the Modern Imagination. Medieval Cultures. Minneapolis London: University of Minnesota Press, 2000.

Ellmann, Richard. Golden Codgers: Biographical Speculations. London: Oxford University Press, 1973.

Elmes, James. Memoirs of the Life and Works of Sir Christopher Wren. London: Priestley and Weale, 1823.

Empson, William. Some Versions of Pastoral. London: Chatto & Windus, 1935.

Evans, Ruth. « <Gigantic Origins: An Annotated Translation of De Origine Gigantum.' « In Arthurian Literature XVI 197-211. Woodbridge: D.S. Brewer, 1981.

Evelyn, John. Diary. Oxford: Clarendon Press, 1955.

Faral, Edmond. Les Arts Poetiques Du XIIe et Du XIIIe Siecle. Paris: E. Champion, 1924.

Federico, Sylvia. New Troy: Fantasies of Empire in the Late Middle Ages. Medieval Cultures. Minneapolis: University of Minnesota Press, 2003.

Ferguson, Arthur B. Utter Antiquity: Perceptions of Prehistory in Renaissance England. Durham: Duke University Press, 1993.

Fergusson, James. An Essay on the Ancient Topography of Jerusalem, with Restored Plans of the Temple, Ec., and Plans, Sections, and Details of the Church Built by Constantine the Great Over the Holy Sepulchre, Now Known as the Mosque of Omar. London: J. Weale, 1847.

____. The Illustrated Handbook of Architecture: Being a Concise and Popular

Account of the Different Styles of Architecture Prevailing in All Ages and All Countries. London: J. Murray, 1855.

____. A History of Architecture in All Countries from the Earliest Times to the Present Day. London: J. Murray, 1862.

____. History of Indian and Eastern Architecture. New York: Dodd, Mead & Company, 1891.

Fergusson, James, arid James Burgess. The Cave Temples of India. London: W H. Allen &Co., etc., 1880.

Ffrench,Yvonne. The Great Exhibition, 1851. London: Harvill Press, 1950.

Fordun, John. Johannis de Fordun Chronica Gentis Scotorum. Edited by William E Skene. Historians of Scotland. Edinburgh: Edmonston & Douglas, 1871.

____. John of Fordun's Chronicle of the Scottish Nation. Edited by William Forbes Skene. Edinburgh: Edmonston and Douglas, 1872.

Fortescue, John, John Selden, and Ralph de Hengham. De Laudibus Legum Angliae. Edited by John Selden. Illustrated by John Selden, translated by John Selden. In the Savoy [London]: Printed by E. and R. Nutt, and R. Gosling (assigns of E. Sayer, Esq.) for R. Gosling, 1737.

Fradenburg, L.O. Aranye. Sacrifice Your Love: Psychoanalysis, Historicism, Chaucer. Medieval Cultures, 31. Minneapolis: University of Minnesota Press, 2002.

France. L'Exposition Universelle de 1989 et les Grands Projets de l'Etat a Paris [Paris]: Ministere de l'urbanisme et du logement, Mission de coordination des grandes operations d'architecture et d'urbanisme, 1983.

Frank, Joseph. «Spatial Form in Modern Literature:' In The Widening Gyre: Crisis and Mastery in Modern Literature. Bloomington: Indiana University Press, 1968.

Frankl, Paul. The Gothic. Princeton: Princeton University Press, 1960.

Frantzen, Allen J. « `Chivalry, Sacrifice and The Great War: The Medieval Contexts of Edward Burne Jones' <The Miracle of the Merciful Knight':' In Speaking Images: Essays in Honor of VA, Kolve 611-35. Asheville: Pegasus Press, 2001.

Frantzen, Allen J. Desire for Origins: New Language, Old English, and

Teaching the Tradition. New Brunswick: Rutgers University Press, 1990.

Frantzen, Allen J. and John D. Niles. Anglo-Saxonism and the Construction of Social Identity. Edited by Allen J. Frantzen. Gainesville: University Press of Florida, 1997.

Frart, Roland. A Parallel of the Ancient Architecture with the Modern. London: Printed by T.W. for J. Walthoe, 1733.

Frazer, James. The Golden Bough: A Study in Comparative Religion. New York: Macmillan, 1894.

Freeman, Edward Augustus. A History of Architecture. London: J. Masters, 1849.

Friebe, Wolfgang. Buildings of the World Exhibitions. Leipzig, East Germany: Edition Leipzig, 1985.

Frye, Northrop. Anatomy of Criticism: Four Essays. Princeton: Princeton University Press, 1957.

Fulford, Tim, and Peter J. Kitson. Romanticism and Colonialism: Writing and Empire, 1780-1830. Edited by Tim Fulford. Cambridge: Cambridge University Press, 1998.

Ganim, John M. Style and Consciousness in Middle English Narrative. Princeton: Princeton University Press, 1983.

____. Chaucerian Theatricality. Princeton: Princeton University Press, 1990.

____. «The Literary Uses of the New History.» In The Idea of Medieval Literature New Essays on Chaucer and Medieval Culture in Honor of Donald R. Howard, edited by James M. Dean, 209-26. New York: University of Delaware Press; Associated University Presses, 1992.

____. «The Myth of Medieval Romance:» In Medievalism and the Modernist Temper. Edited by R. Howard Bloch and Stephen G. Nichols. 148-67. Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1996.

Geary, Patrick J. The Myth of Nations: The Medieval Origins of Europe. Princeton: Princeton University Press, 2002.

Geertz, Clifford. The Interpretation of Cultures: Selected Essays. New York: Basic Books, 1973.

Geertz, Clifford. Local Knowledge: Further Essays in Interpretive Anthropology. NewYork: Basic Books, 1983:

Geoffrey of Monmouth. The Historia Regum Britannica of Geoffrey of Monmouth. Edited by Acton Griscom. London: Longmans, Green and Co., 1929.

____. The History of the Kings of Britain. The Penguin Classics: Baltimore: Penguin Books, 1966.

Germann, Georg. Gothic Revival in Europe and Britain: Sources, Influences, and Ideas. Cambridge: MIT Press, 1973.

Gillispie, Charles Coulston. Monuments of Egypt the Napoleonic Edition: The Complete Archaeological Plates from la Description de l'Egypte. Edited by Charles Coulston. Gillispie. Princeton, NJ: Princeton Architectural Press in association with the Architectural League of New York, the J. Paul Getty Trust, 1987.

Ginzburg, Carlo. The Cheese and the Worms: The Cosmos of a Sixteenth-Century Miller. Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1980.

Ginzburg, Carlo. Clues, Myths, and the Historical Method. Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1989.

Girouard, Mark. The Return to Camelot: Chivalry and the English Gentleman. New Haven: Yale University Press, 1981.

Glencross, Michael. Reconstructing Camelot: French Romantic Medievalism and the Arthurian Tradition. Arthurian Studies. Cambridge: D.S. Brewer, 1995.

Goldstein, R. James. The Matter of Scotland: Historical Narrative in Medieval Scotland. Regents Studies in Medieval Culture. Lincoln: University of Nebraska Press, 1993.

Gordon, Alexander. Itinerarium Septentrionale or, A Journey Thro' Most of the Counties of Scotland, and Those in the North of England. London: Printed for the author and sold by G. Strahan etc., 1726.

Gossman, Lionel. Medievalism and the Ideologies of the Enlightenment: The World and Work of LaCurne de Sainte-Palaye. Baltimore: Johns Hopkins Press, 1968.

Greenhalgh, Paul: Ephemeral Vistas: The Expositions Universelles, Great Exhibitions, and World's Fairs, 1851-1939. Manchester: Manchester University Press, 1988.

Gurevich, Aron. Categories of Medieval Culture. London: Routledge & Kegan Paul, 1985.

____. Medieval Popular Culture: Problems of Belief and Perception. Cambridge Studies in Oral and Literate Culture. Cambridge: Cambridge University Press, 1988.

____. Historical Anthropology of the Middle Ages. Edited by Jana Howlett. Chicago: University of Chicago Press, 1992. .

Haddad, Emily A. Orientalist Poetics: The Islamic Middle East in Nineteenth-Century English and French Poetry. Aldershot: Ashgate, 2001.

Halfpenny, William and John Halfpenny. Chinese and Gothic Architecture Properly Ornamented. NewYork: B. Blom, 1968.

Hamy, Ernest T Etudes Ethnographiques et Archeologiqttes sur l'Exposition Coloniale et Indienne de Londres. Paris: E. Leroux; 1887.

Hanning, Robert W. The Vision of History in Early Britain from Gildas to Geoffrey of Monmouth. New York: Columbia University Press, 1966.

Hardison, O.B. Christian Rite and Christian Drama in the Middle Ages: Essays in the Origin and Early History of Modern Drama. Baltimore: Johns Hopkins Press, 1965.

Harrison, Antony H. Swinburne's Medievalism: A Study in Victorian Love Poetry. Baton Rouge: Louisiana State University Press, 1988.

Hartley, L.P. The Go-Between. London: H. Hamilton, 1953.

Heffernan, Carol Falvo. The Orient in Chaucer and Medieval Romance. Studies in Medieval Romance. Woodbridge: D.S. Brewer, 2003.

Heine, Heinrich. De l'Allemagne. Paris: Presses d'aujourd'hui, 1979.

____. The Romantic School and Other Essays. Edited by Jost Hermand. The German Library. New York: Continuum, 1985.

____. Religion and Philosophy in Germany: A Fragment. London: Trubner & Co., 1882.

____. Samtliche Werke. Edited by Hans Kaufmann. Munchen: Kindler Verlag, 1964.

____. History of Religion and Philosophy in Germany. Edited by Paul Lawrence Rose. James Cook University of North Queensland Historical Publications. Townsville, Old.: Dept. of History, James Cook University of

North Queensland, 1982.

Heng, Geraldine. Empire of Magic: Medieval Romance and the Politics of Cultural Fantasy. New York: Columbia University Press, 2003.

Henson, Eithne. The Fictions of Romantick Chivalry: Samuel Johnson and. Romance. Rutherford: Fairleigh Dickinson University Press; Associated University Presses, 1992.

Higden, Ranulf: Polychronicon Ranulphi Higden Monachi Cestrensis Together with the English Translations af John Trevisa and of an Unknown Writer of the Fig Century.

Edited by John Trevisa. Rerum Britannicarum Medii Aevi Scriptores. London: Longman, 1865.

Hill, Christopher. Puritans and Revolutionaries: Essays in Seventeenth-Century History Presented to Christopher Hill. Edited by D.H. Pennington. Oxford: Clarendon Press, 1982.

Hobsbawm, E .J. and T O. Ranger. The Invention of Tradition. Edited by E J. Hobsbawm. Cambridge: Cambridge University Press, 1983.

Hodgen, Margaret Trabue. Early Anthropology in the Sixteenth and Seventeenth Centuries. Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 1964.

Hoffenberg, Peter H. An Empire on Display: English, Indian, and Australian Exhibitions from the Crystal Palace to the Great War. Berkeley: University of California Press, 2001.

Holinshed, Raphael. Holinshed's Chronicles-England, Scotland, and Ireland with a New Introd. by Vernon F. Snow. New York: AMS Press, 1976.

Holsinger, Bruce, «Medieval Studies, Postcolonial Studies, and the Genealogies of Critique,». Speculum 77 (2002):1195-227.

Horace. Satires, Epistles, and Ars Poetica with an English Translation. Loeb Classical Library. Cambridge: Harvard University Press, 1932.

Horn, Georg. De Originibus Americanis Libri Quatuor. HagaeComiris: Sumptibus Adriani Vlacq, 1652.

Howe, Irving. A World More Attractive: A View of Modern Literature and Politics. New York: Horizon Press, 1963.

Howe, Nicholas. Migration and Mythmaking in Anglo-Saxon England. New Haven: Yale University Press, 1989.

Huddesford, William, Thomas Warton, Thomas Hearne, Anthony a Wood, and Pre1801 Imprint Collection (Library of Congress. The Lives of Those Eminent Antiquaries John Leland, Thomas Hearne, and Anthony d Wood with an Authentick Account of Their Respective Writings and Publications, from Original Papers. Edited by William Huddesford. Oxford: J. and J. Fletcher, etc., 1772.

Huet, Marie Helene. Monstrous Imagination. Cambridge:. Harvard University Press, 1993.

Huet, Pierre-Daniel. A Treatise of Romances and Their Original. London: Printed by R. Battersby for S. Heyrick, 1672.

Hugo, Victor. Les Orientales. Collection Poesie. Paris: Gallimard, 1964.

____ . CEvres Poetiques. Bibliotheque de la Pleiade. Paris: Gallimard, 1964.

Hunter, Michael. John Aubrey and the Realm of Learning. New York: Science History Publications, 1975.

Hurd, Richard. Hurd's Letters on Chivalry and Romance, with The Third Elizabethan Dialogue. New York: AMS Press, 1976.

Husbands, John. A Miscellany of Poems by Several Hands. Oxford: Printed by Leon. Lichfield, 1731.

Hubsch, Heinrich. In What Style Should We Build?: The German Debate on Architectural Style. Translated by Wolfgang. Herrmann. Santa Monica, CA: Getty Center for the History of Art and the Humanities, 1992.

Inden, Ronald B. Imagining India. Oxford: Basil Blackwell, 1990.

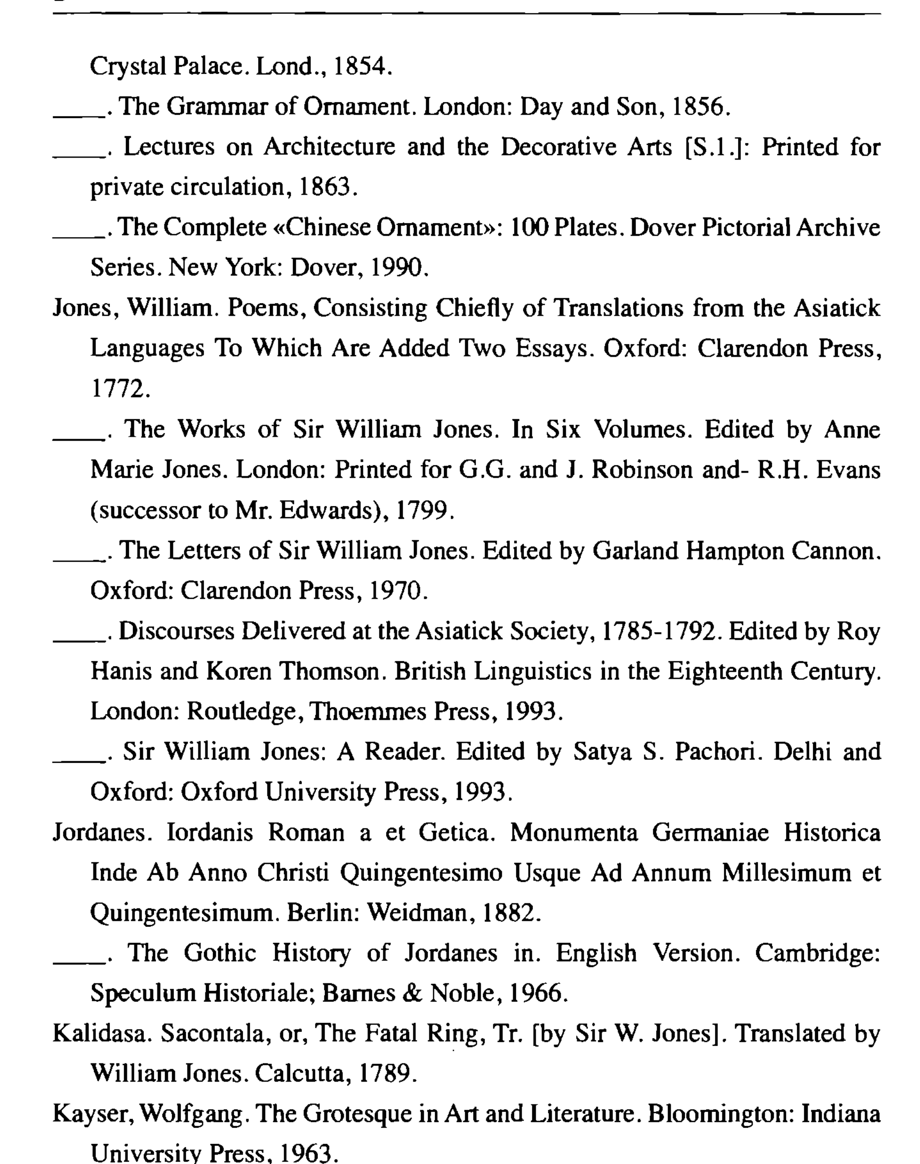
Ingham, Patricia Clare, and Michelle R. Warren. Postcolonial Moves: Medieval Through Modern. Edited by Patricia Clare Ingham. New York: Palgrave Macmillan, 2003.

John Dagenais and Margaret Greer. «Decolonizing the Middle Ages: Introduction:» Journal of Medieval and Early Modern Studies 30, no. 3 (2000): 431-48.

Johnson, Lesley. «Return to Albion.» In Arthurian Literature XIII, 19-40. Woodbridge: D.S: Brewer, 1981.

Johnston, Arthur. Enchanted Ground: The Study of Medieval Romance in the Eighteenth Century. London: Athlone Press, 1964. .

Jones, Owen. The Alhambra Court in the Crystal Palace. Guides and Handbooks,



Crystal Palace. Lond., 1854.

____. The Grammar of Ornament. London: Day and Son, 1856.

____. Lectures on Architecture and the Decorative Arts [S.1.]: Printed for private circulation, 1863.

____. The Complete «Chinese Ornament»: 100 Plates. Dover Pictorial Archive Series. New York: Dover, 1990.

Jones, William. Poems, Consisting Chiefly of Translations from the Asiatick Languages To Which Are Added Two Essays. Oxford: Clarendon Press, 1772.

____. The Works of Sir William Jones. In Six Volumes. Edited by Anne Marie Jones. London: Printed for G.G. and J. Robinson and- R.H. Evans (successor to Mr. Edwards), 1799.

____. The Letters of Sir William Jones. Edited by Garland Hampton Cannon. Oxford: Clarendon Press, 1970.

____. Discourses Delivered at the Asiatick Society, 1785-1792. Edited by Roy Hanis and Koren Thomson. British Linguistics in the Eighteenth Century. London: Routledge, Thoemmes Press, 1993.

____. Sir William Jones: A Reader. Edited by Satya S. Pachori. Delhi and Oxford: Oxford University Press, 1993.

Jordanes. Iordanis Roman a et Getica. Monumenta Germaniae Historica Inde Ab Anno Christi Quingentesimo Usque Ad Annum Millesimum et Quingentesimum. Berlin: Weidman, 1882.

____. The Gothic History of Jordanes in. English Version. Cambridge: Speculum Historiale; Barnes & Noble, 1966.

Kalidasa. Sacontala, or, The Fatal Ring, Tr. [by Sir W. Jones]. Translated by William Jones. Calcutta, 1789.

Kayser, Wolfgang. The Grotesque in Art and Literature. Bloomington: Indiana University Press, 1963.

Keller, Barbara G. The Middle Ages Reconsidered: Attitudes in France from the Eighteenth Century Through the Romantic Movement. New York: F Lang, 1994.

Kendrick, T.D. The Druids: A Study in Keltic Prehistory. London: Methuen, 1927.

____. British Antiquity. London: Methuen, 1950.

Ker, W. P. Epic and Romance. London: Macmillan, 1897.

Kinchin, Perilla, Juliet Kinchin, and Neil Baxter. Glasgow's Great Exhibitions: 1888, 1901, 1911, 1938, 1988. Wendlebury Bicester, Oxon: White Cockade, 1988.

Kliger, Samuel. «The `Goths' in England: An Introduction to the Gothic Vogue in Eighteenth-Century Aesthetic Discussion.» Modern Philology 43 (1945):.107-17.

Kliger, Samuel. The Goths in England: A Study in Seventeenth and Eighteenth Century Thought. New York: Octagon Books, 1972.

Koff Leonard Michael and Brenda Deen Schildgen. The Decameron and the Canterbury Tales: New Essays on an Old Question. Eds. Leonard Michael Koff: Madison: Fairleigh Dickinson University Press, 2000.

Kontje, Todd Curds. German Orientalisms. Ann Arbor: University of Michigan Press, 2004.

Kuklick, Henrika. The Savage Within: The Social History of British Anthropology, 1585-1945. Cambridge: Cambridge University Press, 1991.

Lane, Edward William. An Account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians. London: C. Knight and Co., 1837.

La Peyrere, Isaac de. Praedamitae Sive Exercitatio Super Versibus Duodecimo, Decimotertio, & Decimoquarto, Capitis Quinti Epistolae D. Pauli Ad Romanos. Quibus Inducuntur Primi Homines Ante Adamum Conditi. Amsterdam: Louis & Daniel Elzevier, 1655.

La Peyrere, Isaac de. Men Before Adam. Or, A Discourse Upon the Twelfth, Thirteenth, and Fourteenth Verses of the Fifth Chapter of the Epistle of the Apostle Paul to the Romans. [Followed by] A Theological Systeme Upon That Presupposition, That Men Were Before Adam. London, 1656.

Lasater, Alice E. Spain to England: A Comparative Study of Arabic, European, and English Literature of the Middle Ages. Jackson: University Press of Mississippi, 1974. Lawrence, T.E. Seven Pillars of Wisdom a Triumph. London: J. Cape, 1935.

Lean, David. Lawrence of Arabia. Criterion Collection. United States:

Columbia Pictures The Voyager Company, 1989.

Leask, Nigel. British Romantic Writers and the East Anxieties of Empire. Cambridge Studies in Romanticism. Cambridge: Cambridge University Press, 1992.

Lefkowitz, Mary R. ed. Black Athena Revisited. R. Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1996.

Leigh, Charles. The Natural History of Lancashire, Cheshire, and the Peak, in Derbyshire with an Account of the British, Phoenician, Armenian, Gr. and Rom. Antiquities in Those Parts. Oxford: Printed for the Author, etc., 1700.

Levine, Joseph M. Humanism and History: Origins of Modern English Historiography. Ithaca: Cornell University Press, 1987.

Lewis, C.S. «De Descriptione Temporum.» In They Asked for a Paper: Papers and Addresses. London: G. Bles, 1962.

____. «The Anthropological Approach.» In English and Medieval Studies Presented to J.R.R. Tolkien, Norman Davis, 219-30. London: Allen, 1962.

List, Robert N. Merlin's Secret: The African and Near Eastern Presence in the Ancient British Isles. Lanham, Md.: University Press of America, 1999.

Littleton, C. Scott and Linda A. Malcor. From Scythia to Camelot: A Radical Reassessment of the Legends of King Arthur, the Knights of the Round Table, and the Holy Grail. Garland Reference Library of the Humanities. New York: Garland, 1994.

Loomis, Roger Sherman. Celtic Myth and Arthurian Romance. New York: Columbia University Press, 1927.

Loomis, Roger Sherman, ed. Arthurian Literature in the Middle Ages: A Collaborative History. Oxford: Clarendon Press, 1959.

Lopez, Donald S: Curators of the Buddha: The Study of Buddhism Under Colonialism. Edited by Donald S. Lopez. Chicago: University of Chicago Press, 1995.

Lowe, Lisa. Critical Terrains: French and British Orientalisms. Ithaca: Cornell University Press, 1991.

Mabire, Jean-Christophe. L'Exposition Universelle de 1900. Paris, France: Harmattan, 2000.

MacDougall, Hugh A. Racial Myth in English History: Trojans, Teutons, and AngloSaxons. Hanover: University Press of New England, 1982.

MacKenzie, John M. Orientalism: History, Theory, and the Arts. NewYork: St. Martin's Press, 1995.

Mack, John E. A Prince of Our Disorder: The Life of T.E. Lawrence. Boston: Little, Brown, 1976.

Maine, Henry Sumner. Village Communities in the East and West London: J. Murray, 1890.

Makdisi, Saree. Romantic Imperialism: Universal Empire and the Culture of Modernity. Cambridge Studies in Romanticism. Cambridge: Cambridge University Press, 1998.

Manasseh ben Israel. The Hope of Israel. Edited by Henry. Mechoulan. Translated by Henry. Mechoulan: Oxford: Published for the Littman Library by Oxford University Press, 1987.

Mancoff, Debra N. The Arthurian Revival in Victorian Art. Garland Reference Library of the Humanities. New York: Garland, 1990.

Mancoff, Debra N. The Arthurian Revival: Essays on Form, Tradition, and Transformation. Edited by Debra N. Mancoff: Garland Reference Library of the Humanities. New York: Garland Pub., 1992.

Mandell, Richard D. Paris 1900: The Great World's Fair. Toronto: University of Toronto Press, 1967.

Matthews, David. The Making of Middle English, 1765-1910. Medieval Cultures. Minneapolis: University of Minnesota Press, 1999. .

Matthews, William. «The Egyptians in Scotland: The Political History of a Myth.» Viator 1 (1970): 289-306.

McKisack, May. Medieval History in the Tudor Age. Oxford: Clarendon Press, 1971.

Menocal, Maria Rosa. Shards of Love: Exile and the Origins of the Lyric. Durham: Duke University Press, 1994.

____. The Literature of Al-Andalus. Edited by Maria Rosa. Menocal. Cambridge History of Arabic Literature. New York: Cambridge University Press, 2000.

Menocal, Maria Rosa. The Ornament of the World: How Muslims, Jews, and

Christians Created a Culture of Tolerance in Medieval Spain. Boston: Little, Brown, 2002.

Menocal, Maria Rosa. The Arabic Role in Medieval .Literary History: ,I Forgotten Heritage. Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 2003.

Metcalf, George J. «The Indo-European Hypothesis in the Sixteenth and Seventeenth Centuries.» In Studies in the History of Linguistics: Traditions and Paradigms, Dell Hymes, 233-57. Bloomington: Indiana University Press, 1974.

Metlitzki; Dorothee. The Matter of Araby in Medieval England. New Haven: Yale University Press, 1977.

Metzger, David. Medievalism and the Academy II: Cultural Studies. Edited by David Metzger. Studies in Medievalism. Cambridge: D.S. Brewer, 2000.

Mileur, Jean-Pierre. The Critical Romance: The Critic as Reader, Writer, Hero. Madison: University of Wisconsin Press, 1990.

Milton, John. Complete Prose Works. New Haven: Yale University Press, 1953.

Mitchell, Jerome. Scott, Chaucer, and Medieval Romance: A Study in Sir Walter Scott's Indebtedness to the Literature of the Middle Ages. Lexington: University Press of Kentucky, 1987.

Mitchell, Timothy. Colonising Egypt. Berkeley: University of California Press, 1988.

Mitter, Partha. Much Maligned Monsters' History of European Reactions to Indian Art. Oxford: Clarendon Press, 1977.

Moliere. CEvres de Moliere. Edited by Eugene Andre Despois and Paul Mesnard. Paris: Hachette et cie., 1873.

Morowitz, Laura and Elizabeth Emery. Consuming the Past the Medieval Revival in Fin-de-Siede France. Aldershot: Ashgate, 2003.

Morton, PA. Hybrid Modernities: Architecture and Representation at the 1931 Colonial Exposition, Paris. Cambridge: MIT Press, 2000.

Moser, Stephanie. Ancestral Images: The Iconography of Human Origins. Ithaca: Cornell University Press, 1998.

Mulryan, John. Milton and the Middle Ages. Edited by John Mulryan. Lewisburg: Bucknell University Press; Associated University Presses,

1982.

Neret, Gilles. Description de l'Egypte. Koln: Benedikt Taschen, 1994.

Nicholas, Constance. Milton's Medieval British Readings. Urbana, 1951.

Oergel, Maike. The Return of King Arthur and the Nibelungen: National Myth in Nineteenth-Century English and German Literature. European Cultures. New York: Walter de Gruyter, 1998.

Official Descriptive and Illustrated Catalogue of the Great Exhibition of the Works of Industry of All Nations, 1,851. London: Spicer Brothers, 1851.

Ogilby, John. America: Being the Latest, and Most Accurate Description of the New World. London: Printed by the Author, 1671.

Olender, Maurice: The Languages of Paradise: Aryans and Semites, a Match Made in Heaven. New York: Other Press, 2002..

Parry, Graham. The Trophies of Time: English Antiquarians of the Seventeenth Century. Oxford: Oxford University Press, 1995.

Patterson, Lee. Negotiating the Past: the Historical Understanding of Medieval Literature. Madison: University of Wisconsin Press, 1987.

Patterson, Lee. Literary Practice and Social Change in Britain, 1380-1530. Edited by Lee Patterson. The New Historicism. Berkeley: University of California Press, 1990.

____. Chaucer and the Subject of History. Madison: University of Wisconsin Press, 1991.

Percy, Thomas. Reliques of Ancient English Poetry. London: L.A. Lewis, 1839.

Perry, Graham. The Trophies of Time: English Antiquarians of the Seventeenth Century. Oxford: Oxford University Press, 1995.

Picavet, Francois Joseph. Les Ideologues: Essai sur l'Histoire Des Idees. Paris. F. Alcan, 1891.

Piggott, Stuart. William Stukeley: An Eighteenth- Century Antiquary. Oxford: Clarendon Press, 1950.

Piggott, Stuart. William Camden and the Britannia. London, 1953.

____. Celts, Saxons, and the Early Antiquaries. Edinburgh: Edinburgh University Press, 1967.

____. The Druids. New York: Praeger, 1968.

____. Ruins in a Landscape: Essays in Antiquarianism. Edinburgh: Edinburgh University Press, 1976.

____. Antiquity Depicted: Aspects of Archaeological Illustration. Walter Neurath Memorial Lectures. NewYork: Thames and Hudson, 1978.

Piggott, Stuart. Ancient Britons and the Antiquarian Imagination: Ideas from the Renaissance to the Regency. London: Thames and Hudson, 1989.

Plum, Werner. World Exhibitions in the Nineteenth Century, Pageants of Social and Cultural Change. Bonn-Bad Godesberg: Friedrich-Ebert-Stifrung, 1977.

Pugin, A.W.N. Contrasts or, A Parallel Between the Noble Edifices of the Middle Ages, and Corresponding Buildings of the Present Day, Shewing the Present Decay of Taste. Accompanied by Appropriate Text. London: C. Dolman, 1841.

____. The True Principles of Pointed or Christian Architecture. London: J. Weale, 1841.

Quatremere de Quincy. Dictionnaire Historique d'Architecture. Paris: Librairie d'Adrien le Clere, 1832.

____. The True, the Fictive, and the Real: The Historical Dictionary of Architecture of Quatremere de Quincy. Translated by Samir Younes. London: A. Papadakis, 1999.

Quinet, Edger, Le genie des religions. Pans: Pagnerre, 1857.

Raleigh, Walter. The History of the World. Edited by C.A. Patrides. London: Macmillan, 1971.

Richards, Jeffrey, ed. Imperialism and juvenile Literature. Manchester: Manchester University Press, 1989.

Ritson, Joseph. Ancient Engleish Metrical Romancees. London: W. Bulmer arid Company, for G. and W Nicol, 1802.

Robson-Scott, WD. The Literary Background of the Gothic Revival in Germany: A Chapter in the History of Taste. Oxford: Clarendon Press, 1965.

Rossi, Paolo. The Dark Abyss of Time: The History of the Earth & the History of Nations from Hooke to Vico. Chicago: University of Chicago Press, 1984.

Rougemont, Denis de. Love in the Western World. New York: Harcourt, Brace and Company, 1940.

Rowlands, Henry. Mona Antiqua Restaurata. Dublin: Printed by Aaron Rhames, for Robert Owen, 1723.

Ruskin, John. The Works of John Ruskin. Edited by Edward Tyas Cook. London: G. Allen, 1903.

____. The Opening of the Crystal Palace Considered in Some of Its Relations to the Prospects of Art. New York: J.B. Alden, 1973.

Rydell, Robert W All the World's a Fair: Visions of Empire at American International Expositions, 1876-1916. Chicago: University of Chicago Press, 1984.

____. The Books of the Fairs: Materials About World's Fairs, 1839-1916, in the Smithsonian Institution Libraries. Chicago: American Library Association, 1992.

Rydell, Robert W, Nancy E. Gwinn, Smithsonian Institution, and James Burkhart Gilbert. Fair Representations: World's Fairs and the Modern World. Edited by Robert. W. Rydell. European Contributions to American Studies. Amsterdam: W University Press, 1994.

Sahlins, Marshall David. Islands of History. Chicago: University of Chicago Press, 1985.

Said, Edward W Orientalism. New York: Pantheon Books, 1978.

____. The World, the Text, and the Critic. Cambridge: Harvard University Press, 1983.

Sammes, Aylett. Britannia Antiqua Illustrata or, The Antiquities of Ancient Britain, Derived from the Phoeicians. London: Printed by T Roycroft, for the author, 1676.

Scherb, Victor I. «Assimilating Giants: The Appropriations of Gog and Magog in Medieval and Early Modern England.» Journal of Medieval and Early Modern Studies 32, no. 1 (Winter 2002): 59-84.

Schildgen, Brenda Deen. Pagans, Tartars, Moslems, and Jews in Chaucer's Canterbury Tales. Gainesville: University Press of Florida, 2001.

____. Dante and the Orient. Illinois Medieval Studies. Urbana: University of Illinois Press, 2002.

Schlegel, Friedrich Von. On the Language and Wisdom of the Indians. London: Henry G. Bohn, 1849.

Schwab, Raymond. Oriental Renaissance: Europe's Rediscovery of India and the East, 1680-1880. New York: Columbia University Press, 1984.

Selden, John. De Dis Syris Syntagmata II. Lipsiae: Impensis J. Brendeli, 1662.

Selden, John and William Dugdale. A Brief Discourse Touching the Office of Lord Chancellor of England. Translated by William Dugdale. London: Printed for Thomas Lee, 1677.

Selden, John and WA. Hauser. The Fabulous Gods Denounced in the Bible. Philadelphia: J.B. Lippincott & Co., 1880.

Sheringham, Robert. De Anglorum Gentis. Cantabrigiae Excudebat J. Hayes, impensis E. Story, 1670.

Shklar, Judith N. and Stanley Hoffmann. Political Thought and Political Thinkers: Edited by Stanley Hoffmann. Chicago: University of Chicago Press, 1998.

Simmons, Clare A. Reversing the Conquest: History and Myth in Nineteenth-Century British Literature. New Brunswick: Rutgers University Press, 1990.

____. Medievalism and the Quest for the «Real» Middle Ages. Edited by Clare A. Simmons. London, Portland, OR: F Cass, 2001.

Simons, John. From Medieval to Medievalism. Edited by John Simons. Basingstoke: Macmillan, 1992.

Simpson, Roger. Camelot Regained: The Arthurian Revival and Tennyson, 1800-1849. Arthurian Studies. Cambridge: D.S. Brewer, 1990.

Smiles, Sam. Die Image of Antiquity: Ancient Britain and the Romantic Imagination. New Haven: Published for the Paul Mellon Centre for Studies in British Art by Yale University Press, 1994.

Smith, Andrew and William Hughes. Empire and the Gothic: The Politics of Genre. Edited by Andrew Smith. New York: Palgrave, 2003.

Smith, Anthony D. The Ethnic Origins of Nations. Oxford: B. Blackwell, 1987.

____. Myths and Memories of the Nation. New York: Oxford University Press,

1999.

Smith, R.J. The Gothic Bequest: Medieval institutions. in British Thought, 1688-1863. Cambridge: Cambridge University Press, 1987.

Snorri Sturluson. The Prose Edda. Translated by Arthur Brodeur. New York: The American-Scandinavian Foundation, 1916.

____. Heimskringla: The Norse King Sagas. Translated by Samuel Laing. London: J.M. Dent and E.P Dutton, 1930.

Soo, Lydia M. Wren's`Tracts' on Architecture and <Other Writings. Cambridge: Cambridge University Press, 1998.

Sparling, Tobin Andrews and Laura C. Roe. The Great Exhibition: A Question of Taste. New Haven: Yale Center for British Art, 1982.

Speirs, John. Medieval English Poetry: The Non-Chaucerian Tradition. London: Faber and Faber, 1957.

Steeves, Harrison R. Learned Societies and d English Literary Scholarship in Great Britain and the United States. New York: Columbia University Press, 1913.

Stocking, George W Victorian Anthropology. New York: Free Press; 1987.

____. After Tylor: British Social Anthropology, 1888-1951. Madison: University of Wisconsin Press, 1995.

Stoianovich, Traian. French Historical Method: The Annales Paradigm. Ithaca: Cornell University Press, 1976.

Stow, John and Edmund Howes. The Annales, or, Generall Chronicle of England. Londini: Impensis Thomae Adams, 1615.

Strabo. Strabonis Revm Geographicarvm Libri XVII. Lutetim Parisiorum: Typis regus, 1620.

Stukeley, William. Abury, a Temple of the British Druids, with Some Others, Described. Wherein is a More Particular Account of the First and Patriarchal Religion; and of the Peopling the British Islands. Illustrated by William Stukeley. London: Printed for the author and sold by W Innys, R. Manby, B. Dod, J. Brindley, and the booksellers in London, 1743.

____. Stonehenge, a Temple Restor'd to the British -Druids; Abury, a Temple of the British Druids. Myth & Romanticism. New York: Garland Pub., 1984.

Taine, Hippolyte. History of English Literature. New York: H. Holt and Company, 1886.

Thomas, David Wayne. «Replicas and Originality: Picturing Agency in Daniel, < Gabriel Rossetti and Victorian Manchester.' « Victorian Studies 43, no. 1 (2000): 67-102.

Thorowgood, Thomas. Ievves in America, or, Probabilities That the Americans Are. of That Race. London: Printed by W[illiam]. H[unt]. for Tho. Slater, and are be to [sic] sold at his shop at the signe of the Angel in Duck lane, 1650.

Trautmann, Thomas R. Aryans and British India. Berkeley: University of California Press, 1997.

Turhan, Filiz. The Other Empire: British Romantic Writings About the Ottoman Empire. Literary Criticism and Cultural Theory. New York: Routledge, 2003.

Twyne,John.DeRebvsAlbionicis,BritannicisAtqveAnglicis,Commentariorum Libri Duo... Edited by Thomas Twyne. Londini: Excudebat E. Bollifantus, pro R. Watkins, 1590.

Ussher, James. Britannicarum Ecclesiarvm Antiqvitates. Dublinii: Ex officina typographica Societatis bibliopalarum, 1639.

Ussher, James. The Annals of the World. Deduced from the Origin of Time. London: Printed by E. Tyler 1658.

Utz, Richard J. Chaucer and the Discourse of German Philology: A History of Reception and an Annotated Bibliography of Studies, 1793-1948. Making the Middle Ages. Turnhout: Brepols, 2002.

Utz, Richard J., T. A. Shippey, and Leslie J. Workman. Medievalism in the Modern World Essays in Honour of Leslie J. Workman. Edited by Richard J. Utz. Making the Middle Ages. Turnhout: Brepols, 1998.

Vallancey, Charles. An Essay on the Antiquity of the Irish Language. Dublin: Printed by and for S. Powell, 1772.

Vasari, Giorgio. Le Opere di Giorgio Vasari. Firenze: Sansoni, 1973.

Verduin, Kathleen. Medievalism in North America. Edited by Kathleen. Verduin. Studies in Medievalism. Cambridge: D.S. Brewer, 1994.

Vergil, Polydore. Polydore Vergil's English History. Edited by Henry Ellis.

London: J.B. Nichols, 1846.

. Historia Anglica, 1555. Menston: Scolar Press, 1972.

Verstegan, Richard. A Restitution of Decayed Intelligence. English Recusant Literature, 1558-1640. Ilkley (Eng.]: Scolar Press, 1976.

Waddell, L.A. The Phoenician Origin of Britons, Scots & Anglo-Saxons Discovered by Phoenician & Sumerian Inscription in Britain, by Pre-Roman Briton Coins £a a Mass of New History. London: Williams and Norgate, 1924.

Ward, Patricia A. The Medievalism of Victor Hugo. Pennsylvania State University Studies. University Park: Pennsylvania State University Press, 1975.

Warren, Michelle R. History on the Edge: Excalibur and the Borders of Britain, 1100-1300. Medieval Cultures. Minneapolis: University of Minnesota Press, 2000.

Warton, Thomas. Observations on the Fairy Queen of Spenser. London: R. and J. Dodsley, 1762.

____. Essays on Gothic Architecture. Illustrated by Thomas Warton. London: Printed by S. Gosnell for J. Taylor, 1804.

____. The History of English Poetry. Edited by Richard Price. London: Printed for T Tegg, 1824.

Weever, John. Ancient Funerall Monuments. The English Experience; Its Record in Early Printed Books Published in Facsimile. Amsterdam: Theatrum Orbis Terrarum, 1979.

Weir, David. Brahma in the West: William Blake and the Oriental Renaissance. Albany, NY: State University of New York Press, 2003.

Weisl, Angela Jane. The Persistence of Medievalism: Narrative Adventures in Contemporary Culture. New Middle Ages. New York: Palgrave, 2003.

Wellek, Rene. The Rise of English Literary History. Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1941.

____. A History, of Modern Criticism: 1750-1950. New Haven: Yale University Press, 1955.

Widukind. Rerum Gestarum Saxonicarum Libri Tres. Monumenta Germaniae Historica. Hannover: Hahnsche Buchhandlung, 1989.

Wittig, Susan. Stylistic and Narrative Structures in the Middle English Romances. Austin: University of Texas Press, 1978.

Workman, Leslie J. Medievalism in England. Edited by Leslie J. Workman. Studies in Medievalism. Cambridge: D.S. Brewer, 1992.

____. Medievalism in Europe. Edited by Leslie J. Workman. Studies in Medievalism. Cambridge: D.S. Brewer, 1994.

Workman, Leslie J., and Kathleen Verduin. Medievalism in England IL Edited by Leslie J. Workman. Studies in Medievalism. Cambridge: D.S. Brewer, 1996.

Workman, Leslie J., Kathleen.Verduin, and David Metzger. Medievalism and the Academy. Edited by Leslie J. Workman. Studies in Medievalism. Cambridge: D.S. Brewer, 1999.

Yeager, Robert F, Charlotte C. Morse, and VA. Kolve. Speaking Images: Essays in Honor of VA. Kolve. Asheville, NC: Pegasus Press, 2001.

Zettl, Ewald. An Anonymous Short English Metrical Chronicle. Edited by Ewald Zettl. Early English Text Society (Series. London: Pub. for the Early English Text Society by H. Milford, Oxford University Press, 1935.

الاستشراق والقرون الوسطى

يتناول هذا الكتاب علاقة أوروبا القرون الوسطى بالشرق، عبر دراسة تاريخ الأدب الغربي والعمارة واللغة، كاشفاً بذلك عن أزمة في هوية الغرب الحضارية. فلقد ظل تعريف الثقافة القروسطية، يحمل في طياته - لمدة طويلة - بذور الصراع بين الغرب والأمم الأخرى. وقد زعم أصحاب النظريات الإنسانية المتقدمة أن الثقافة القروسطية بما فيها من عمارة قوطية، ورومانسية قروسطية، كانت نتيجة لتأثيرات أجنبية خارجية؛ شرقية على وجه الخصوص. كما حاول آثاريو القرنين السابع عشر والثامن عشر البحث عن أصول فينيقية للثقافة البريطانية، والربط بين كهنة الدرويد والحضارات القديمة. إن هذا الكتاب يكشف عن نموذج يظهر فيه الماضي وكأنه يعبر عن بلاد غريبة، شرقية في الغالب، وهو أمر يثير التساؤلات حول نقاء أصول الثقافة الغربية.







